قضية ضائعة

بقلم

جراهام جرين

ترجمة

محمود مسعود

دار الهلال

روايات الهلال

Rewayat Al - Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال

العدد ٣٥٢ ـ ابريل ١٩٧٨ ـ ربيع الثانى ١٣٩٨

No. 352 — April 1978

بيانات ادارية

ثمن العدد : فى جمهورية مصر العربية ١٥٠ مليما • عن الكميات المرسلة بالطائرة ـ فى سوريا ولبنان ٢٠٠ قرشا ، فى الاردن ٢٠٠ فلسا ، فى العراق ٣٠٠ فلسا ـ فى الكويت ٣٠٠ فلسا ـ فى السعودية ٣٫٥ ريال سعودى

قيمة الاشتراك السنوى : « ١٢ عددا » فى جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٥٠ قرشا صاغا ـ فى سائر أنحاء العالم ٦ دولارات أمريكية أو ٢٫٥ جنيه والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى جمهورية مصر العربية والسودان [illegible]

[illegible]

روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمي

الغــــلاف بريشــة
الفنان احمـد الورنجي

تقديم

تتميز مؤلفات الكاتب الانجليزى جراهام جرين التى ناهزت الأربعين كتابا بالواقعية التى لعله استمدها من جولاته وأسفاره الكثيرة فى شتى أنحاء العالم ــ ومنها ماكان بتكليف من وزارة الخارجية أو الكنيسة الكاثوليكية لتقصى الحقائق سياسية كانت أو دينية أو لغير ذلك من الأغراض ــ ولعله استمدها كذلك من عمله محررا بجريدة التيمس وناقدا فنيا بمجلة سبكتاتور . ومن هنا جاءت رواياته معبرة عن موضوعية لابسها بنفسه وعايش واقعها ودرسها عن كثب ، سواء كانت مسارحها فى فيتنام أو المكسيك أو فى كثير من أنحاء أفريقيا خاصة ، ولكنه ينحو مع ذلك فيما يؤلف من روايات وقصص الى الرمزية التى وان اتخذت من الواقع خلفية لها ودعامة ترتكز عليها ، فانما تستعين بالأحداث والظروف الجغرافية والطبيعية لخلق شخوص ومواقف اجتماعية وانسانية وابتكار حبكات روائية واستنبــاط محاورات فكرية وفلسفية ودينية تدور فيها الصراعات العقلية بين مختلف الأطراف والمحاور وتتتابع فى غير مهادنة ولا لين ، حتى ولو انتهت بمصرع طرف أو محور فكرى استمساكا بالمذهب وذودا عن العقيدة . وهو حين ينحو هذا المنحى لا يتمسك بشخصية بذاتها من شخصياته لكى يجلى لها البطولة ويعقد عليها لواء النصر والظفر بنهاية سعيدة مرضية ، وانما يدع التفاعل الواقعى الحتمى والتصارع الفكرى يأخذان مجراهما الطبيعى فى مسار الأحداث وتطورات القضية ، بغض النظر عما قد يبدو فى مجال الصراع الآن بين الخير والشر وبين الحق والضلال وبين الصدق والزيف وبين الجمــال والقبح وبين الفضيلة والرذيلة من انتكاسات عارضة هى فى أساسها وليدة مافى الحياة الواقعية ذاتها من صراعات مريرة مضطرمة بين تلك العوامل جميعا ، ولكن فى غير ماتعاطف مع تلك الانتصارات الوقتية الموهومة ، لأنها اذ تبدو على هذه الصورة المجافية لحق أو صلاح أو خير أو جمال ، يغدو فرسانها المجلون فى الظاهر وهم الى الهزيمة والاندحار أقرب بما انكشف من سوءاتهم وتعــرى من معدنهم وافتضح من نحائزهم الضاربة جذورها فى منابت الفساد أو المداجاة أو الأثرة أو

الجشع او الاستعلاء . وانما تبقى فى هذه المعركة الكبرى بين كل ماهو انسانى كريم وماهو أنانى زنيم قلوب شجاعة منطوية على الايمان الراسخ ، وعقول وهاجة تنير الدياجير ، وعزائم صلاب تشحذ الهمم وسواعد شداد ترفع الرايات المنكسة ، لكى يمضى الركب الى الغاية التى تتوخاها الرسالات الانسانية الى غاياتها المرموقة .

ولكى ننتقل من التعميم الى التخصيص فقد اختار جراهام جرين لروايتنا هذه اقليما استوائيا فى صميم غابات افريقيا مسرحا لها ، تتفاعل فيه العوامل الطبيعية والجغرافية والمناخية فتفشى فيه امراضا خطيرة لعل أخطرها مرض الجذام البغيض ، ولكن قلوبا كريمة انطوت على نوازع الخير والانسانية التى لا تتأثر بمعوقات الجنس أو اللون أو الدين أو اللغة او الفوارق العنصرية عموما ـ تتصدى لهذا الداء الوبيل بالعلاج بما يؤدى الى الشفاء برغم مايتخلف عنه من تشويهات . وقد جسد المؤلف لتحقيق هذه الغاية الانسانية النبيلة شخصية الدكتور كولين ـ التى صاغها المؤلف على مثال شخصية طبية حقيقية عرفها ونوه بها فى صدر روايته اعترافا بالفضل وامتنانا ـ تلك الشخصية التى تمضى فى أداء رسالتها بعزم خارق برغم ضعف الامكانات المادية والضن بالمعاونة حتى من أولئك المستوطنين الأثرياء الذين انحصر كل همهم فى استنزاف خيرات القارة والعكوف على أسمارهم ومباذلهم ، وحتى برغم مامنى به الطبيب الانسانى الخير من فقد زوجته وشريكة حياته صريعة مرض النوم وهى تطرق صميم الغابة حثا للمصابين بالداء على التقدم للمداواة والعلاج ، ولكن المعاونة التى طالما تمناها الطبيب لا تلبث أن تلوح بوادرها فى الافق بقدوم وافد غريب الى المنطقة اكتنف شخصيته غموض أغرب . ويدور على الأثر صراع حامى الوطيس بين أطراف كثيرة لاستكناه حقيقة الرجل المجهول الغامض : أهو شخصية عالمية مشهورة لها من البواعث ما نأى بصاحبها عن الاستمتاع بحياة الشهرة والمجد ومالهما من آثار مدمرة للنفس أحيانا وماجاء به الى هذا الركن القصى فى صميم الغابات يلتمس فيه نهاية له ضيقا بكل مجد وزهادة فى كل نعيم وانكارا لكثير من القيم ويأسا من كل ماخاله حبا وكان فيه ضاربا بسهم وفير ؟ وماهى النوازع التى كانت تحدوه فى ماضيه العريض الى البروز وبعد الصيت ؟ وكيف هوى الى هذا الدرك السحيق من يأس مطبق وانكار لقيم وسعى جاهد للانزواء والضياع ؟

وكيف استطاع الطبيب بفكره الثاقب وروحه المتسامية ان ينفض الغبار عن نفس الغريب المتآكلة وعزيمته المتخاذلة ويذكى فيه عزما وليدا ينتشله من وهدة الضياع ويدفعه الى مؤازرة الطبيب بما تفرد به من مقومات لكي يمضي الاثنان قدما فى اتمام تلك الرسالة الانسانية فى هذا الركن القصي من العالم وضرب مثلا يمكن ان يحتذى فى أركان اخرى من العالم يفتك الداء بضحايا آخرين له يجاوز تعدادهم خمسة عشر مليونا ، ليكون فى هذا اسوة حسنة ينشدها المصلحون وارباب الرسالات الانسانية فى شتى الاقطار والامصار ؟ مثال واحد نزجيه من طبيعة تلك النوازع الانسانية التى تحدو الطبيب فى اداء رسالته حين يسأله الوافد الغريب عن دوافعه لما ينبعث اليه ، التماسا لما يمسك على الوافد ايمانه ، فيقول الطبيب : « أريد ان اتكلم قليلا عن التغيير والتطور . لو اننى ولدت مجرد « اميبا » ذات الخليـة الواحدة ، فمن كان يحلم بعصر « الرئيسات » وهى الثدييات التى تشمل الانسان والقرد كما تعرف ؟ ان التطور قد استقر بصـفة نهائية فى عقل الانسان وقلبه . ان النملة والسمكة وحتى القرد ، كلها قد وصلت الى اقصى مايمكن ان تصـل اليه . اما فى عقولنا وقلوبنا فان التطور يمضى فى طريقه بسرعة مذهلة . ويكاد الانسان ان ينسى كم من عديد مئات الملايين من السنين قد تعاقب فيما بين عصر « الديناصور » وعصر « الحيوانات الرئيسة » ، ولكننا شهدنا فى عصرنا هذا ، التغير والانتقال من محرك الديزل الى المحرك النفاث ، والى شطر الذرة . اننا نمتطى موجة تطورية عظمى . افرض ان الحب قدر له ان يتطور فى اذهاننا بمثل السرعة التى تطورت وتتطور بها المهارة الفنية . ان التاثير هنا قمين بأن يذهب مذاهب تفوق حدود التصور ، كما فى أصحاب الرسالات الانسانية والمصلحين . والتطور اليوم يمكن ان يفرز لنا أشخاصـا كهتلر ، مثلمـا يفرز أصحاب الرسالات الانسانية ، اذا وجد التربة الصالحة التى تزكو فيها البذرة »

ولكن ، هل يكتفى مجتمع المتفرجين اللاهين العاكفين على اجتناء المصالح الذاتية والمتشدقين بالشعارات الجوفاء بنكوصهم عن الاسهام فى هذه الرسالة الانسانية ، أم تراهم يعمدون الى بث العـوائق وتخذيل العزائم وتحويل الرسالة عن غايتها المرجوة ؟ وأى سـلاح يستخدمونه لذلك سوى سلاح المراة وهو سلاح ذريع ان يكن الرجل الغامض قد جاء الى هذا الركن القصى ضيقا به وازدرارا عن مغرياته

ومفاتنه ، فهل يغدو الآن وهو فى جهاده النبيل مع صفيه الطبيب وشريكه فى المعركة عرضة للتأثر به ، لا انقيادا لغرائز ماضية خبت جذواتها ولكن استهدافا لعوامل أخرى متسامية يأخذ بها الآن فى نهجه الجديد فى الحياة ؟ وكيف تفضى طاقات الحمقى وجهالات الجهال وتخرصات المراجعين ذوى الشمارات الجـــوفاء الى تلك العواقب الوخيمة التى تصير اليها الأمور ؟

للقارىء أن يستخلص لنفسه من كل أولئك مايشاء ، الا ان يكون ذلك ايذانا بنهاية المعركة بين الخير والشر ، وبين الحق والضلال ، وبين الصدق والزيف ، وبين الفضيلة والرذيلة ، وبين الجمال والقبح برغم كل انتكاس عارض لايمكن ان يحول أبدا دون الاضطلاع من جديد بحمل أعباء الرســـالة ، ليكون هـــذا منهاجا لأصحاب الرسالات الانسانية فى كل موقع من عالمنا المثقل بويلات لم تفلح ذروة الحضارة البشرية المعاصرة فى استئصالها من جذورها .

محمود مسعود

القسم الأول

الفصل الأول

— ١ —

كتب راكب السفينة في دفتر يومياته وهو فى (الصالون) محاكيا الفيلسوف ديكارت سخرية وتهكما هذه العبارة : « اننى اشعر بالمشقة والعناء ، واذن فانا حى » ، ثم جلس والقلم فى يده دون أن يكون لديه مزيد يدونه . وكان ربان السفينة فى ردائه الكهنوتى الابيض قرب نوافذ (الصالون) المفتوحة يقرأ فى كتاب الصلوات اليومية ، ولم يكن ثمة هواء كاف لتحريك حتى حوافى لحيته ... ان الاثنين ظلا وحيدتين معا على صفحة النهر مدى عشرة ايام — او بالاحرى باستثناء هيئة البحارة الستة الافريقيين وركاب سطح السفينة الاثنى عشر أو نحوهم ممن كانوا يتغيرون بلا تفريق بين أحد منهم عند كل قرية كانت السفينة تتوقف لديها ... وكانت السفينة المملوكة للأسقف تشبه سفينة مجدافية بالية صغيرة من سفن نهر المسيسيبى المزودة بعجلات التجديف وقد غدا طلاؤها الأبيض فى أمس الحاجة الى التجديد ... ومن نوافذ (الصالون) كان من الممكن رؤية النهر امامهم وهو ينبسط ، ومن تحتهم الركاب وقد جلسوا فوق الأطواق وهم يمشطون شعرهم بين كتل الخشب اللازمة للمحرك .

واذا كان عدم التغيير معناه السكينة ، فقد كانت هذه هي السكينة حقا ، يجدها الانسان كبندقة فى قلب قشرة صلبة من المشقة والعناء — من حرارة تطبق عليهم حيث يضيق النهر الى مجرد مائتى متر ، ومياه « دش » ساخنة دائما بتأثير آلات السفينة ، ومن بعوض فى المساء ، ومن ذباب « تسى تسى » فى النهار باسطا اجنحته خلفا وكأنه طائرات نفاثة مقاتلة صغيرة ... والواقع أن لافتة عند ضفة النهر لدى آخر قرية مرت بها السفينة حملت تحذيرا بثلاث لغات يقول : (منطقة مرض النوم . احترسوا من ذباب تسى تسى) ... وكان

الربان يقرأ كتاب الصلوات وبيده مذبة ، وكان كلما قتل ذبابة رفع جثتها الضئيلة للمسافر كي يفحصها قائلا : « تسي تسي » ـ وكان ذلك اقصى الحوار بين الاثنين ، اذ لم يكن احدهما يتكلم لغة الآخر في يسر او دقة .

وأحيانا كانت الفرصة تسنح لحديث عابر بين الربان والمسافر الوحيد (بالقمرة) بعد تناول العشاء وقبل التهيؤ للنوم ، اذ قال المسافر بعد ان سرى الى سمعه غناء الركاب الذي لم يفهم كلماته ، وكان الحديث بينهما يدور بالفرنسية أو الفلمنكية محرفا :

ـ ماذا يغنون يا أبي ؟.. اي نوع من الغناء هذا ؟ أهي اغنيات حب ؟...

فأجاب الربان قائلا :

ـ لا . ليست أغنيات حب . انهم يتغنون فقط بما حدث اثناء اليوم ، وكيف ابتاعوا لدى القرية الأخيرة أواني طهي جميلة سوف يبيعونها بربح طيب على امتداد النهر، كما انهم بالطبع يتغنون بك وبي .

ـ وما الذي يتغنون به عني ؟

ـ انهم يتغنون الآن فيما أظن . هل أترجم لك مايقولون ؟. انه ليس مديحا كله .

ـ نعم ، اذا تفضلت .

ـ « هذا رجل ابيض ليس من الآباء ولا من الأطباء . وليست له لحية . وهو قادم من مكان بعيد ـ لا نعرف من اين ـ ولا يقول لأحد الى اين هو ذاهب ، ولا لماذا . وهو رجل غني ، لأنه يشرب (الويسكي) كل ليلة ويدخن طول الوقت . ومع ذلك فهو لا يقدم سيجارة لأحد » .

ـ ان هذا لم يخطر ببالي قط .

فقال الربان :

ـ طبعا ، انا اعرف اين انت ذاهب. لكنك لم تخبرني ابدا لماذا .

ـ ان الطريق الذي سدته الفيضانات. ولم أجد سوى النهر .

ـ ليس هذا ماعنيته بكلامي :

وكان مثل هذا الحوار ختام يوم آخر من ايام الرحلة النهرية .

ـ ٢ ـ

بعد ستة ايام وصلت السفينة الى مكان قام فيه معهد لاهوتي كالح ، فوق ربوة من الطمي على ضفة النهر . وفي هذا المعهد تولى الربان

فيما مضى تعليم اللغة اليونانية ، وهكذا توقفت السفينة فى هذا الموضع لقضاء الليل ، ومن ذلك احياء الذكرى القديمة ، وكذلك لشراء الكتل الخشبية اللازمة لوقود السفينة بسعر ارخص بما تبيع به شركة (أوتراكو) المحتكرة الكبرى لمنتجات النهر وروافده :

وبعد تناول العشاء اجتمع الرهبان فى القاعة العامة يحتفون بالربان والمسافر ، ولكنهم انصرفوا أكثر ماانصرفوا الى لعب الورق ، والاستماع الى الراديو احيانا ، وكانت ضحكاتهم تجلجل فى القاعة ومع هذا فقد شعر المسافر بالأمن بينهم ، فانهم لن يبادروه باسئلة فضولية ، ولو انه كان قاتلا هاربا من وجه العدالة ، فما من احد بينهم كان يحفزه الفضول للتدسس الى سره ونبش جراحه القديمة . ومع ذلك ــ ودون أن يعرف لهذا سببا ــ فان ضحكهم كان يضايقه ، وكأنه طفل صخاب أو قرص موسيقى (جاز) ... لقد ضاق بما كانوا يبدون من بهجة بالأشياء الصغيرة ــ حتى بزجاجة (الويسكى) التى جاءهم بها من السفينة ، وبدا له أن من يترهبون يمكن أن يروضوا أنفسهم على المعيشة الدنيوية ...

وما لبث المسافر أن نهض متبرما وابتعد الى ناحية اخرى فى القاعة الموحشة . لقد طالعته صورة للبابا الجديد معلقة على الحائط . وفوق منضدة قائمة للزينة رأى بضع روايات بوليسية ومجموعة كبيرة من الصحف المخصصة للبعثات التبشيرية . ورأى فوق الحائط تقويما يحمل صورة ارسالية كهذه الارسالية ، ولعلها مدرسة لاهوتية مماثلة أو منافسة ، وبدا له بناؤها شنيعا أيضا ، وقد تجمع الآباء امامها وهم يضحكون لذلك ... فلم يتمالك أن تساءل فى نفسه ترى متى بدأ نفوره من الضحك وكراهيته له وكأنه رائحة فاسدة !

ثم خرج الى الظلمة التى ينيرها ضوء القمر . فصافحت بصره شموع قلائل كانت لاتزال موقدة فوق أطراف السفينة ، ومشعل يتحرك فوق سطحها العلوى ، وهى علامات دلته على موضع رسو السفينة ، فترك النهر ووجد دربا وعرا يبدأ من خلف الفصول الدراسية وقد يفضى الى مايسميه الجغرافيون قلب افريقيا . فسار فيه مسافة قصيرة لا لسبب يعرفه ، مستهديا بضوء القمر والنجوم . فسرى الى سمعه من أمام لون من الموسيقى . وقد أفضى من الدرب الى قرية كان أهلها ايقاظا ربما بسبب اكتمال القمر ، ولو صح هذا لكانوا ادق من مفكرة يومياته فى تحديد مواقيت القمر . وكانوا يدقون

الطبول ويرقصون ، وراحوا يحدقون اليه من خلال نيران صغيرة اشعلوها ؛ وشعر بضحكاتهم البريئة وكأنها سخرية تلدغه .. انهم لم يكونوا يضحكون منه ، بل كانوا يضحكون بعضهم مع بعض ، وقد شعر بأنه معزول عنهم كما كان معزولا فى القاعة العامة بمعهد اللاهوت فى نطاقه الخاص حيث الضحك بمثابة مقاطع لغة معادية .

فما لبث أن استدار وعاد ادراجه الى المعهد .

كانت القاعة خاوية ، وانفض اللاعبون ، فمضى الى غرفة نومه . لقد تآلفت «قمرته» الصغيرة فى السفينة الى حد انه شعر بأنه أعزل فى هذه القاعة الفسيحة التى لم يكن بها سوى منضدة للغسل وابريق وحوض وكوب ومقعد وزجاجة ماء مغلى على الأرض . ثم طرق بابه احد الآباء ، ولعله رئيس الرهبان ، ودخل ، وقال له :

ــ هل أنت بحاجة الى اى شىء ؟

ــ لاشىء . لا أريد شيئا .

وكاد يشفع هذا بقوله :

ــ هذه هى مشكلتى .

فنظر رئيس الرهبان فى ابريق الماء ليرى ان كان ممتلئا وقال :

ــ سوف تجد لون الماء قاتما ، ولكنه نظيف جدا .

ورفع غطاء اناء الصابون للتأكد من وجود الصابون به ، فبدت له قطعة جديدة برتقالية اللون ، حتى قال مباهيا :

ــ من نوع (عوامة النجاة) .

فرد المسافر قائلا :

ــ اننى لم استعمل هذا النوع منذ كنت طفلا .

ــ كثير من النـــاس يقولون انه جيد فى الحرارة الشديدة . ولكننى لا اعانى ابدا من مثل هذه الحرارة .

وفجأة وجد المسافر أن من العسير الا يتكلم ، فرد بقوله :

ــ ولا أنا . اننى لا أعانى من اى شىء . اننى ماعدت اعرف ماهى المعاناة . اننى وصلت الى المنتهى فى كل هذا ايضا .

ــ ايضا ؟

ــ مثل كل شىء . لقد بلغت نهاية كل شىء .

فتحول عنه رئيس الرهبان دون فضول ، وقال .

ــ لا بأس . انت تعرف أن المعاناة هى شىء سوف يظل استحضاره ماثلا على الدوام كلما حلت الدواعى اليه . طاب نومك . ســـوف اوقظك فى الساعة الخامسة صباحا .

الفصل الثانى

— ا —

فحص الدكتور كولين سجل الاختبارات التى اجريت على الرجل : لقد بين البحث عن بكتير الجذام فى المسحات التى أخذت من الجلد على مدار ستة شهور نتيجة سلبية . ان الرجل الذى وقف أمامه بعصا تحت كتفه قد فقد كل أصابع قدميه ويديه . قال له الدكتور:

— بديع . لقد شفيت .

اقترب الرجل خطوة أو اثنتين من مكتب الطبيب . لقد بدت قدميه عديمتا الأصابع ، كمودين أو « قضيبين » ، وكان اذا مشى كمن يدق الأرض ويسطحها . وقد قال فى اشفاق :

— هل لابد أن أذهب من هنا ؟.

نظر الدكتور كولين الى العقب الذى بسطه الرجل كقطعة خشب شكلت بصـــورة جافية الى ما يشبه يد انســـان ، كانت القاعدة السارية فى مستعمرة الجذام هذه الا تؤدى سوى الحالات المرضية المعدية . وكان على البارئين من المرض ان يعودوا الى قراهم ، أو — اذا تيسر — أن يتابعوا مايلزم من علاج كمـــرضى من الخـــارج فى مستشفى بلدة « لوك » ، عاصمة الاقليم . لكن « لوك » كانت تبعد أياما كثيرة سواء بطريق البر او النهر . وقال الدكتور كولين أخيرا :

— من العسير أن تجد عملا لك فى الخارج . وسأرى مايمكن عمله من أجلك . اذهب وكلم الأخوات .

والواقع ان العقب بدا بلا فائدة ، ولكن كان من الخوارق مايمكن ان تؤديه اليد المبتورة الأصابع بعد التعليم . فهناك رجل فى مستعمرة الجذام بغير أصابع علموه كيف يخيط مثل اية أخت . ولكن حتى النجاح فى هذا كان مثيرا للحزن ، اذ كانت نتيجته مضيعة للجهد والمادة ، لقد ظل الطبيب على مدار خمسة عشر عاما وهو يحلم بيوم تتهيأ فيه الاعتمادات المالية لاستحداث أدوات خاصة تلائم كل حالة من حالات التشوه ، ولكنه الآن لايجد من المال مايكفى حتى لتزويد المستشفى (بمراتب) صالحة .

وقد سأل الطبيب الرجل عن اسمه ، فاجاب :
ـ ديوجراتياس .
وفي تضجر نادى الطبيب الرقم التالى .
طوال خمسة عشر عاما لم يعرف الدكتور كولين الا يومين اشد حرارة من هذا اليوم . وحتى أبناء الاقليم كانوا شاعرين بوطاة الحرارة ولم يصل الى المستوصف هذا اليوم أكثر من نصف عددهم المعتاد .
ولم تكن هناك حتى مروحة ، وكان الدكتور كولين يقوم بعمله تحت مظلة في الشرفة ، بها منضدة ، ومقعد خشبي صلب ، ومن خلفه غرفة المكتب الصغيرة التيكان يرتاع من دخولها لعدم كفاية التهوية .
وتعاقب المرضى يكشفون اجسامهم أمامه واحدا بعد الآخر .
وكان يجرى أصابعه على سطح المريض ويدون ملاحظاته بصورة تكاد تكون آلية . كان يعلم أن الملاحظات غير ذات قيمة لدى المرضى ، ولكن لمس أصابعه كان يهيىء راحة نفسية لهم . فبهذا يدركون أنهم غير « منبوذين » . والواقع ان الطبيب يضع فى حسبانه دائما انه بعد ايجاد العلاج للمرض بدنيا ، فان الجذام سيظل دائما مشكلة نفسانية .
ثم ترامى الى سمع الدكتور كولين صوت جرس سفينة . وفى هذه اللحظة مر رئيس الرهبان بالمستوصف راكبا دراجته متجها الى الشاطىء . وقد لوح بيده فرفع الطبيب يده ردا للتحية . لعل هذا اليوم هو موعد وصول سفينة شركة أوتراكو التى تأخرت عن موعدها طويلا . كان المفروض أن تصل مرة كل أسبوعين بالبريد ، ولكن لم يكن يمكن الاعتماد عليها بحال .
وكانت الساعة تناهزالثانية عشرة عندما انهى الطبيب عمله لهذا اليوم . فدخل الى المكتب الصغير الحار ومسح يديه بالكحول .
ولم يلبث ان سار الى الشاطىء . كان ينتظر كتابا مرسلا اليه من اوربا ، هو اطلس الجذام اليابانى ، ولعله وصل الآن مع البريد .
كان الشارع الطويل فى قرية المجذومين يؤدى الى النهر . كانت به بيوت صغيرة من حجرتين مبنية بالآجر ، وقد الحقت بها في الساحات الخلفية أكواخ من الطين . وعندما جاء الى هنا منذ خمسة عشر عاما لم يكن ثمة سوى اكواخ الطين ــ وهى الآن تستخدم كمطابخ ومع ذلك فقد جرت العادة عندما يوشك احد على الموت أن ينسحب الى الساحة الخلفية . لاينبغى له أن يموت فى سكينة فى غرفة مزودة بجهاز راديو وصورة للبابا . انما هو يتأهب للموت فقط حيث

مات أسلافه من قبل ، فى الظلام الذى تكتنفه رائحة الطين اليابس والأوراق الجافة . وفى الفناء الخلفي الثالث الى اليسار كان هناك شيخ يقضي نحبه الآن ، جالسا فى مقعد فى عتمة باب المطبخ .

وكانت الأرض فيما وراء القرية وقبيل النهر بقليل يجرى تمهيدها ليوم تتيسر فيه اقامة المستشفى الجديد . كانت مجموعة من المجذومين تدق الرقعة الأخيرة فى الموقع تحت اشراف الأب جوزيف الذى كان يعمل معهم جنبا لجنب ويدق الأرض بنفسه مرتديا بنطلونه « الجاكى » العتيق وقبعته الرخوة التى نال منها الزمن .

قال الدكتور كولين مناديا الأب جوزيف :

ـ سفينة أوتراكو ؟...

فرد الأب جوزيف قائلا :

ـ لا . هى سفينة الأسقف .

ومضى فى تمهيد الأرض بقلميه قائلا :

ـ يقولون هناك مسافر على ظهر السفينة .

ـ مسافر ؟

وشارف الدكتور كولين فى سيره مدخنة السفينة التى برزت بين اكداس الكتل الخشبية المعدة للوقود . وشاهد رجـلا يتقدم الى ناحيته . ورفع الرجل قبعته ، فبدا فى مثل سنه ، فى أواخر الخمسينات ، فى وجهه منابت لحية بادية المشيب ، وكان يرتدى بذلة استوائية مجعدة ، وقلل يعرفه بنفسه :

ـ اسمى كيرى .

ولم تكن جنسيته أوضح من لهجته . فقال الطبيب :

ـ أنا الدكتور كولين . هل تبقى هنا ؟

ـ ان السفينة لن تسير الى أبعد من هذا المكان .

قال الرجل هذه الكلمات وكأنها كانت التفسير الوحيد للموقف .

ـ ٢ ـ

كان الدكتور كولين ورئيس الرهبان يقومان مرة كل شهر بمراجعة حسابات الارسالية فيما بينهما . ان الانفاق على مستعمرة الجذام كان فى نطاق مسئولية (الأخوية الرهبانية) التى تنتمى اليها الارسالية ، اما مرتب الطبيب وتكاليف الادوية فكانت الحكومة تتكفل بها . وكانت الحكومة هى الطرف الأغنى ، ولكن الأقل رغبة فى البذل ، ومن ثم كان الطبيب يبذل قصارى جهده لتخفيف العبء عن (الأخوية الرهبانية) . وفى كفاح الاثنين للعدو المشترك وهو الداء

العضال نشأت بين الرجلين صداقة وثيقة . وكان الدكتور كولين يشهد القداس أحيانا ، وان كان معروفا انه الى العلمانية أقرب منه الى التدين . وكانت المشكلة الوحيدة التى يعانيها الطبيب هى سيجار (الشيروت) الذى لم يكن يفارق شفتى الراهب والذى كان رماده يتناثر بين أوراق الطبيب بلا انقطاع ، خصوصا هذه المرة عندما جلس الدكتور كولين بعد تقديره لكبير الأطباء فى (لوك) عن حاجة الارسالية الى ساعة حائط جديدة وثلاث (ناموسيات) ، لتحويله بدوره الى الحكومة .

قال رئيس الرهبان معتذرا عن رماد السيجار الذى تناثر بين صحائف أطلس الجذام اليابانى الذى كان الطبيب يتصفحه ، وهو أشبه فى ألوانه الزاهية ورسومه الخلقية باحدى لوحات فان جوخ .

ــ أنا آسف . هذا فى الحقيقة شىء لا يطاق . لكنك سوف تعذرنى . فاننى تلقيت زيارة من مسيو ريكيه . انه يثير اعصابى .

ــ وماذا يريد ؟

ــ آه . انه أراد ان يستقصى موضوع زائرنا الجديد . ثم انه بالطبع كان على أتم استعداد لشرب (الويسكى) الذى جاء به الزائر .

ــ هل كان هذا يساوى رحلة ثلاثة أيام ؟

ــ حسنا . انه نال (الويسكى) على الأقل . وقد قال ان الطريق البرى ظل مستحيلا لمدة أربعة أسابيع ، وأنه شعر بأنه (يتصور) لحديث ثقافى يشبع نهمه الفكرى .

ــ وكيف حال زوجته ــ ومزرعة النخيل ؟

ــ ان ريكيه يسعى الى المعلومات ، ولا يشفى الغليل بمعلومات لغيره . وقد بدأ متلهفا للمناقشة فى مشاكله الروحية .

ــ ماكنت أتصور قط أن له اية مشاكل روحية .

ــ اذا لم يكن للانسان مايتباهى به، فانه يتباهى بمشاكله الروحية . وبعد أن شرب كأسين من الويسكى ، بدأ يحدثنى عن صلاة المائدة .

ــ وماذا فعل ؟

ــ لقد أعرته كتابا . وبالطبع لن يقرأه . ان ست سنوات أمضاها شكلا فى معهد اللاهوت لم تجده نفعا . لكن بغيته الحقيقية كانت اكتشاف من هو كيرى زائرنا الجديد ، ومن أين جاء ، والى متى سيبقى هنا . وقد كنت على استعداد لكى أخبره بهذا لو اننى كنت أعرف شخصيا . ومن حسن الحظ أن ريكيه يخاف المجذومين ، وقد تصادف وقتها ان دخل علينا تابع كيرى . لماذا خصصت

ديوجراتياس لكيرى ؟

ـ ان الفتى قد شفى ، لكنه من الحالات (المحترقة) ، وهى كما تعرف حالات المجذومين الذين يفقدون اطرافهم بسبب المرض قبل تمام شفائهم ، ولم يكن فى نيتى ابعاده والاستغناء عنه . ففى قدرته ان يكنس الارض ويعد فراشا للنوم بغير اصابع اليدين والقدمين .

ـ ان زائرينا احيانا شديدو الحساسية ويصعب ارضاؤهم .

ـ اؤكد لك ان كيرى لا يهتم بهذا . والواقع انه طلب ديوجراتياس شخصيا . فقد كان الشاب هو اول مجذوم شاهده عندما هبط من السفينة . وطبعا قلت له ان الشاب قد شفى .

ـ ان ديوجراتياس جاءنى برسالة اثناء اجتماعى مع ريكيه ، ولا اظن انه استحب ان المسها . وقد لاحظت انه لم يصافحنى عند انصرافه . بالغرابة الافكار التى تخطر للناس عن الجذام يادكتور !

ونفض رئيس الرهبان رماد سيجاره فى المنفضة ، ولكن التوفيق لم يكن يحالفه تماما فى هذه العملية ، بينما ساله الطبيب :

ـ مارايك فى كيرى يا ابى ؟ ماظنك فيما جاء به الى هنا ؟

ـ ان مشاغلى الكثيرة لا تسمح لى بالتدسس الى الدوافع التى تحرك اى انسان . انني هيأت له غرفة وفراشا . ان فما آخر نطعمه ليس مشكلة . وانصافا له فانه بدا على أتم استعداد لمديد المعاونة ـ ان كان هناك اية معاونة يمكنه تقديمها . ولعله لايعدو أن يكون بسبيل البحث عن مكان هادىء ينال فيه الراحة .

ـ قليل من الناس من يمكن أن يختاروا مستعمرة جذام مكانا للاستجمام .

ـ لن يجدينا كثيرا أن نفتش عن الدوافع عند كيرى . انه لايسيء الى أحد فى شيء .

ـ فى اليوم الثانى لوجوده هنا اخذته الى المستشفى ، فقد اودت أن أختبر ردود الفعل عنده . كانت هى المعتادة فى الواقع : الغثيان لا الاستهواء . وقد اضطررت ان اعطيه نشقة من الاثير .

ـ أنا لست متشككا مثلك يادكتور فيما يحرك الناس من دوافع . هناك أناس يحبون الفقر ويتعاطفون معه . فهل هذا مدعاة للانتقاد والتشكك فى الدوافع ؟

ـ ان المتعاطف مع المجذومين يصبح ممرضا خائبا وينتهى بأن يلحق بمرضى الجذام .

ـ ورغم هذا فقد قلت انت يادكتور ان الجـــذام هو مشـــكلة

نفسانية. وقد يجدي على المجذوم أكبر الجدوى أن يشعر بمن يحبه.
— بوسع المريض دائمـا ان يميز ان كان محبـوبا لذاته أو أن الجذام فقط هو مبعث الحب . انا لا أريد أن يكون الجذام محبوبا انني اريد استئصاله . هناك خمسة عشر مليونا من المجذومين فى العالم . اننا لانريد ان نضيع الوقت مع ذوى الأعصاب المضطربة يا أبى .
— ليتك تجد وقتا تضيعه يادكتور. فانك تجهد نفسك في العمل.
لـكن الدكتور كولين لم يكن منصتا الى هذا الكلام ، فقد قال :
— هل تتذكر مستعمرة الجذام الصغيرة فى قلب الغابات ، تلك التى كانت تشرف عليها الراهبات ؟ عندما اكتشف عقار (دى — دى — اس) لشفاء الجذام فان المرضى هناك تناقص عددهم حتى أصبح يعد على أصابع اليد . فهل تعرف ماذا قالت لى احدى الراهبات ؟ « هذا فظيع يادكتور . عن قريب لن نجد عندنا مجذومين بتاتا » . هذا بالتاكيد طراز من المتعاطفين مع الجذام .
فقال رئيس الرهبان :
— يا للمسكينة ! انك لم تنظر الى الجانب الآخر .
— أي جانب آخر ؟
— جانب العانس المتقدمة فى السن ، ذات الأفق المحدود ، المتلهفة لفعل الخير ، ولأن تكون ذات نفع . ان الدنيا ليس فيها مكان متسع لأناس من هذا الطراز . وقد أدى استعمال أقراص العقار الأسبوعية الى ملاشاة ماكانت تمارسه من الانبعاث الى الخير والخدمة الاجتماعية .
— ظننتك يا أبي لا تعنى بالدوافع الحافزة الى العمل والتصرف .
— آه . انني أستقصى فقط الظواهر السطحية مثلما تفعل فى تشخيصك يادكتور . لكن قد يكون من الخير لنا جميعـا اذا نحن قنعنا حتى بهذه السطحية . ليس هناك ضرر حقيقى فى حكم يبنى على السطحية ، لكن اذا نحن بدأنا فى سبر ماهو كائن وراء تلك الرغبة فى حب الخير ونفع الغير ، فقد نجد أشياء رهيبة ، ويستحوذ علينا اغراء بالتوقف عند هذا الحد ... ومع ذلك اذا واصلنا التعمق وسبر الأغوار ، فمن يدرى ماذا تكون النتيجة ؟ — ان هذه الأشياء المرهوبة قد لاتعدو أن تكون طبقات قليلة تحت السطح . على أى حال فان الأدعى الى السلامة هو تقبل الأحكام الظاهرية . بالامكان دائما نبذها ، حتى من جانب الضحايا .
— وكيرى ؟ ماذا عنه ؟ من ناحية الظواهر السطحية بالطبع .

القسم الثانى

الفصل الأول

ـ ١ ـ

من الضرورى دائما للغريب اذا حل فى منطقة غير مألوفة أن يبادر الى احاطة نفسه بجو يعهده ويسكن اليه ، كأن يتزود بآلة فوتوغرافية أو بمجموعة كتب جاء بها معه . لكن كيرى لم يتزود بآلة فوتوغرافية ولا كتب ، وكل ماجاء به هو دفتر يومياته . وفى صباح أول يوم عندما أوقظ من نومه فى الساعة السادسة على صوت الصلوات المنبعث من الكنيسة الصغيرة الملاصقة لبابه ، استحوذ عليه ألم بالغ ، هو ألم الوحدة المطبقة والعزلة الشاملة عن البيئة التى جاء اليها .

وقبل أن يسترسل فى تحليل هذه المشاعر التى تضرب جذورها فى الماضى البعيد سمع صوت ديوجراتياس وهو يطرق الباب . كان الصوت فى الحقيقة صرير (عقب) يديه وهو يعالج رفع رتاج الباب وكان معه دلو ماء حمله معلقا على معصمه . ان كيرى كان قد سأل الدكتور كولين قبل استخدام ديوجراتياس ان كان الشاب يعانى من الألم ، فطمأنه الطبيب مؤكدا أن فقد أصابع اليدين والقدمين هو البديل للألم .

وهكذا بدأ كيرى منذ صباح يومه الأول يهيىء لنفسه هذا الجو المعهود فى نطاق غير المعهود . كانت هذه هى سنة البقاء ، وكذلك كان كل صباح يفطر فى الساعة السابعة مع الآباء فى الارسالية . كانوا يتوافدون الى القاعة العامة من حيث كانوا يباشرون مختلف الأعمال الموكولة اليهم فى الساعة الماضية ، منذ انتهاء الصلوات . وقد كان الأب بول والأخ فيليب مسئولين عن المولد الذى يمد بالكهرباء الارسالية ومستعمرة الجذام . وكان الأب جان معهودا اليه باقامة القداس فى بيت الراهبات ، وكان الأب جوزيف يشرف على العمال

وهم يمهدون الأرض لاقامة المستشفى الجديد . اما الاب توماس ذو العينين الغائرتين فى وجهه الشاحب المغبر فكان يزدرد قهوته مسرعا وكأنها دواء مقزز ، ثم ينثنى مهرولا للاشراف على المدرستين .

ولكن كيرى تحرى أن يعزل نفسه عن صحبتهم . فقد كان خائفا من الأسئلة التى يمكن أن يبادروه بها ، حتى بدأ يدرك انهم - مثل رهبان معهد اللاهوت على النهر - لن يبادروه باسئلة ذات شأن ، وحتى الأسئلة التى كانوا يرونها ضرورية كانت تصاغ بعبارات تقريرية مثل : « يوم الأحد يصل الى هنا أتوبيس فى الساعة السادسة والنصف اذا رغبت فى حضور القداس » . ولم يكن كيرى مطالبا بأن يرد عليهم بقوله انه تخلى عن شهود القداس منذ أكثر من عشرين سنة . وهكذا فان غيابه لن يكون ملحوظا .

وبعد الافطار كان يأخذ كتابا استعاره من مكتبة الطبيب الصغيرة ويقصد الى ضفة النهر . كان النهر يتسع عند هذه البقعة الى نحو ميل . وكان يجلس فوق صندل عتيق مهجور يلوذ به من النمل ، وكانت جلسته تمتد حتى الساعة التاسعة عندما تصبح الحرارة غير محتملة . كان يقرأ أحيانا ، واحيانا اخرى كان يراقب جريان النهر بما يحمل من جزر الحشائش والنباتات المائية فى مسيرة لا نهاية لها من قلب افريقيا الى مصبه فى البحر السحيق .

فاذا اشتدت الحرارة واستحال الجلوس فى الشمس انضم الى الطبيب فى المستشفى أو المستوصف ، فاذا انتهت هذه الفترة كان ذلك ايذانا بتنصف النهار . ولم يعد الآن يشعر بالغثيان من أى شىء يبصره ، وغدا فى غير حاجة الى زجاجة الاثير .

وبعد شهر على هذا النحو تحدث الى الطبيب ، فقال له :

- الا ترى أن الأيدى العاملة تنقصك وأنت تتعامل مع ثمانمائة من الناس ؟

- هو ذاك .

- لو تيسر أن تكون لى فائدة عندك - انا اعرف اننى غير مدرب .

- انك ستفارقنا قريبا ، أليس كذلك ؟ .

- لم أضع اية خطط لى .

- هل لك اية دراية بالعلاج بالكهرباء ؟

- لا .

- يمكن تدريبك ، اذا كنت ترغب . ستة أشهر فى أوربا .

فقال كيرى :

ـ لا أريد أن اعود الى أوربا .
ـ ابدا ؟
ـ ابدا . انا خائف من العودة .
ان هذه العبارة بدت فى سمعه درامية ، فحاول سحبها قائلا :
ـ لست اعنى الخوف بمعناه . لمجرد هذا السبب او ذاك .
اجرى الطبيب أصابعه فوق البقع البادية على ظهر طفل . ان الطفل كان يبدو لغير العين المتمرسة تام الصحة . ولكن الدكتور كولين قال :
ـ هذه حالة سوف تكون متفاقمة . تحسس هنا .
كان تردد كيرى غير ملحوظ مثل الجذام ذاته . ولأول وهلة لم تستشف اصابعه شيئا ، ولكنها لم تلبث أن تعثرت فى مواضع بدا فيها جلد الطفل وقد نمت فوقه طبقة اضافية . فقال الطبيب :
ـ هل لك اية دراية بالكهرباء ؟
ـ انا آسف .
ـ ذلك لأننى فى انتظار بعض الأجهزة من اوربا . لقد تأخر وصولها طويلا . وبهذه الأجهزة سوف يكون فى استطاعتى أن أقيس درجة حرارة الجلد فى عشرين موضعا فى وقت واحد . لا يمكنك أن تستشف هذا بأصابعك ، ولكن هذه العقدة الصغيرة اكثر حرارة من باقى البشرة حولها . وفى المأمول ان اتمكن ذات يوم من أن أعرف مثلها مسبقا واتخذ الاجراءات اللازمة . انهم يحاولون هذا فى الهند الآن .
فقال كيرى :
ـ انك تتكلم عن أشياء مستعصية على . أنا رجل ذو مهنة واحدة . موهبة واحدة .
فقال الطبيب :
ـ وماهى هذه المهنة ؟ نحن هنا كمدينة مصغرة ، وليس هناك سوى مهن قليلة لا نستطيع ان نجد لها مكانا عندنا .
وتطلع الى كيرى بارتياب مفاجىء ، قائلا :
ـ لعلك لست من الكتاب ؟ لامكان الكاتب هنا . اننا نريد أن نعمل فى سلام . اننا لانريد أن تكتشف الصحافة العالمية وجودنا هنا كما اكتشفت شفايتزر .
ـ أنا لست كاتبا .
ـ أو مصور ؟ ان المجذومين هنا لن يقبلوا أن يكونوا معروضات

فى أى متحف للرعب . !

ـ لست مصورا . صدقني انني أريد السلام بالقدر الذى تريده انت . ولو استطاعت السفينة أن تتقدم الى ابعد من هنا لما هبطت منها عندكم .

ـ اذن قل لى ماهى مهنتك ، لكى اضعك فيما انت مؤهل له .

فقال كيرى :

ـ انني هجرت المهنة .

ومرت فى هذه اللحظة احدى الاخوات فوق دراجة لمشغلة تعنيها فمضى كيرى يقول :

ـ الا يوجد شيء بسيط يمكن ان اكسب منه قوتى ؟ التضميد مثلا ؟ انني لم اتدرب على هذا أيضا ، لكن لن يصعب تدريبى . من المؤكد وجود شخص ما يتولى غسل الأربطة والضمادات . بامكانى ان احتل مكانا أوفر به عاملا اكثر نفعا .

ـ هذا اختصاص الأخوات . وحياتى هنا ماكانت تجدى نفعا لو اننى تدخلت فى اختصاصاتهن . هل تشعر بالقلق وعدم الاستقرار ؟ ربما تستطيع عند عودة السفينة الى هنا فى المرة القادمة أن تعود الى العاصمة . هناك فرص كثيرة فى (لوك) .

فقال كيرى :

ـ لا أنوى أن أعود أبدا .

فقال الطبيب ساخرا :

ـ فى هذه الحالة يحسن ان تنذر الآباء .

ثم نادى عامل المستوصف قائلا :

ـ كفى مرضى لهذا اليوم .

وبينما جعل يغسل يديه بالكحول ادار راسه نحو كيرى قائلا بعد أن صارا وحدهما :

ـ هل انت مطلوب للبوليس ؟ لا لزوم للخوف من أن تقول لى ـ او لأى احد بيننا . سوف تجد مستعمرة الجذام هنا مكانا مأمونا كل الأمن .

ـ لا . انا لم ارتكب جريمة . اؤكد لك انه ليس فى حالتى اى شيء يثير الاهتمام . انني اعتزلت ، وهذا كل شيء . واذا كان الآباء لا يريدونني هنا ، ففى امكانى دائما ان امضى فى طريقى .

ـ لقد قلتها انت نفسك : ان السفينة لا تستطيع التقدم ابعد من هنا .

ـ هناك الطريق البرى .
ـ نعم . في اتجاه واحد . هو الطريق الذى جئت منه ، وهو ليس مفتوحا دائما . هذا فصل الأمطار .
فقال كيرى :
ـ هناك دائما قدماى .
بحث كولين عن ابتسامة في وجه كيرى ، لكنه لم يجد لها أثرا . فقال :
ـ اذا كنت تريد مساعدتي حقا ولا تمانع في رحلة شاقة ، فيمكنك ان تركب سيارة النقل الثانية وتذهب الى (لوك) . ان السفينة قد لاتعود الى هنا قبل اسابيع ، واجهزتي الجديدة لابد انها وصلت الآن الى البلدة . ان الرحلة سوف تستغرق حوالى ثمانية أيام ذهابا وايابا ـ اذا حالفك الحظ . فهل تذهب ؟ سيكون معنى هذا ان تنام في الغابة ، واذا لم تكن (المعديات) عاملة فسوف تضطر الى العودة .
ثم استطرد الطبيب قائلا وقد صمم في نفسه الا يتهمه رئيس الرهبان بأنه ألح على كيرى بالذهاب :
ـ هذا فقط اذا كنت تريد المساعدة من ناحيتك ... فانت ترى ان رحلة كهذه مستحيلة لأى احد منا هنا . لا يمكن الاستغناء عنا .
ـ بالطبع . سوف ابدأ الرحلة في الحال .
بدا للطبيب انه قد يكون هنا ايضا امام حالة من (الالتزام) ، لكنه ليس التزاما لاية قوة قدسية او اجتماعية ، وانما لأى شيء مما تسوقه المقادير . واستطرد قائلا :
ـ ويمكنك ايضا ان تأخذ معك بعض الخضر واللحم المحفوظ . بامكاني أنا والآباء ان نجتزىء بما عندنا تغييرا لنمط الغذاء . وهناك ثلاجات في (لوك) . قل لديوجراتياس ان يجهز لك فراشا سفريا من بيتي . واذا وضعت دراجة في سيارة النقل فيمكنك ان تمضى الليلة الأولى عند أسرة (بيران) ، لكن لن يمكنك الوصول الى مقرهم بالسيارة ، لانهم على مبعدة من النهر . وهناك ايضا أسرة شانتان بعدهم بحوالى ثماني ساعات ـ اللهم الا اذا كانوا قد عادوا الى اوربا لست اتذكر تماما ، وبعد هذا كله هناك دائما ريكيه قرب المعدية الثانية ، على مدى نحو ست ساعات من (لوك) . انا واثق انك سوف تلقى ترحيبا حارا منه .
فقال كيرى :

ــ انني افضل أن انام في سيارة النقل . أنا لست رجلا اجتماعيا .
ــ انني أحذرك . ليست هذه رحلة سهلة . وبامكاننا دائما أن ننتظر عودة السفينة .

وتوقف برهة حتى يرد كيري ، ولكن كل ماتيسر لكيري أن يقوله هو :

ــ يسرني أن تكون لي فائدة .

والواقع أن الارتياب بين الاثنين أمات كل حوار جديد . وبدا للطبيب أن العبارات الوحيدة التي يمكن أن يلتمسها للتعبير الآمن السليم هي من قبيل العقاقير المطهـــرة المحفـــوظة في ركن قصي بالمستوصف !

ــ ٢ ــ

كان النهر يخترق الغابات بمنحنى شديد ، وقد عجز الحـــكام المتعاقبون عن شق طريق عبر هذا المنحنى يمتد من بلدة لوك العاصمة بسبب تكاثف الغابات وغزارة الأمطار . وكان الدرب الوحيد المطروق مجازا ضيقا لا يجسر أحد على اجتيازه أثنـاء الأمطـار . وكانت المستوطنات القليلة القائمة في الغابة تغدو عندئذ معــزولة تماما ، اللهم الا باستخدام الدراجة التي تصل براكبيها الى النهــر حيث يعسكرون في احدى قرى الصيد انتظارا لوصول سفينة .

وفي الليلة الأولى لرحلة كيري توقف بسيارة النقل الصغيرة عند منعطف في الطريق يتفرع منه درب يؤدي الى مزرعة أسرة (بيران) وقد فتح علبة حساء وعلبة لحم محفوظ بينما اعد له ديوجراتياس فراشا في الجزء الخلفي من سيارة النقل وأشعل موقــد الطهي ، وعرض كيري عليه أن يشاركه طعامه ، ولكن الشاب كان قد جاء معه بطعام خاص ، وجلس كلاهما معتزلا عن الآخر يتناول عشـــاءه في صمت . وبعد العشاء اقترب منه كيري وفي نيته أن يبادره بكلام ما ، ولكن الشاب نهض على قدميه ونأى عن الحديث على نحــو أوقف الكلمات على لسان كيري وكأنما تطفل عليه في كوخه بالقرية .

وهكذا سار مبتعدا مسافة قليلة عن السيارة لشعوره بأن النوم عصي عليه ، فسمع وقع قدمي ديوجراتياس من خلفه . لعله تبعه بفكرة حمايته ، أو لعله خاف أن يبقى وحيدا في الظلام قرب سيارة النقل . فاستدار كيري متبرما اذ لم تكن لديه رغبة في أية صحبة ، واذا الرجل منتصب أمامه على قدميه المستديرتين بلا أصـــابع ، مستندا على عصاه ، فكان أشبه بشيء نبت في هذه البقعة منـــذ

أجيال يعلم به الناس في يوم معين يحملون اليه القرابين والهدايا .

قال له كيري :

ــ هل هذا الدرب يؤدي الى مستوطنة اسرة بيران ؟

فرد الرجل بالايجاب . ولكن كيري كان يعرف أنه رد تقليدي لا يؤكد شيئا . وهكذا عاد ادراجه الى السيارة وتمدد فوق الفراش السفري . وسمع ديوجراتياس وهو يعد لنفسه فراشا أسفل السيارة ، فاستلقى كيري على ظهره محدقا في مكان النجوم التي غيبها عن ناظريه سقف (الناموسية) . وقد حلم في نومه بفتاة عرفها ذات مرة وخال انه أحبها ، فجاءت اليه باكية لأنها كسرت زهرية تعتز بها ، وقد غضبت منه لأنه لم يشاركها الألم والحزن ، وصفعته على وجهه ، ولكنه شعر بالصفعة خفيفة رقيقة على خده ، وقال لها : « انا آسف . ان حالتي متفاقمة ، ولا يمكنني الاحساس بشيء على الاطلاق . انا مجذوم » . وفيما هو يشرح لها مرضه افاق من نومه .

على هذه الشاكلة كانت ايامه ولياليه . لم يكن يكربه شيء ، ولم يضايقه سوى شعور الملل في الغابة .

ثم تبين أن المعديات صالحة للعمل ، وان الأنهار لم تكن تتعرض للفيضان برغم الأمطار التي تدفقت غزيرة في ليلتهما الأخيرة . واشرقت الشمس من جديد . وغدا الدرب طريقا سويا على بعد اميال قليلة من (لوك)

(٣)

بحثا طويلا عن جهاز الدكتور كولين قبلما عثرا على اثره .

أبدى قسم البضائع في شركة أوتراكو انه لايعرف شيئا عنه ، واشار بالبحث عنه في الجمرك .

وفي مكتب الجمرك الصغير رحب المراقب الهولندي بكيري ودعاه الى الجلوس وتناول كأس من الشراب ، ولكنه عندما سمع ان كيري [illegible]

المختص الذى ظن أن الطرد ربما كان يحتوى على تمثال مقدس أو كتب لمكتبة الآباء قد انكر أول الأمر كل علم بأمره . ثم ابدى فى النهاية أن الطرد قد أعيد ارساله الى وجهته علي ظهر سفينة شركة أوتراكو فى رحلتها الأخيرة ، وربما كانت السفينة محتجزة فى مكان ما عبر النهر . وهكذا قصد كيرى بسيارة النقل الى مستودع الأغذية المحفوظة للحصول على قدر من البقول ، واضطر ان يقف فى الصف الطويل .

كانت الأصوات من حوله عالية صاخبة ، حتى خيل اليه لحظة أنه عاد الى اوربا ، فانكمش على نفسه بحركة غريزية خوفا من ان يعرفه أحد . لقد تجلى له وهو فى هذا المتجر المزدحم أن السكينة التى ينشدها كانت مكفولة الى حد ما عبر النهر وفى شوارع مستعمرة الجذام . وقد سمع صوت امرأة تقول للمدير الأوربى محتجة :

ـ لكن لابد أن يكون عندكم بطاطس . كيف يمكن أن تنكر هذا ؟ انها جاءت بطائرة الأمس ، وهذا ما أخبرنى به قائد الطائرة . اننى دعوت الحاكم للعشاء .

وبهذه العبارة التهديدية الأخيرة ظهرت البطاطس خفية ملفوفة فى كيس من السيلوفان .

وفجأة سمع كيرى صوتا يقول :

ـ أنت كيرى . أليس كذلك ؟

التفت . كان المتكلم رجلا طويلا مقدس القامة مفرطا فى البنية . وكان له شارب صغير أسود مثل بقعة سناج ، ووجه ضيق مسطح ممتد كخطين متوازيين . ومالبث أن وضع يدا حارة قلقة على ذراع كيرى قائلا :

ـ اسمى ريكيه . اننى لم أعثر عليك فى اليوم الفائت عندما زرت مستعمرة الجذام . كيف جئت الى هنا ؟ هل وصلت سفينته ؟

ـ جئت بسيارة نقل .

ـ كنت محظوظا اذ تمكنت من المرور . لابد ان تبقى ليلة فى منزلى وأنت فى طريق العودة .

ـ على أن أعود الى مستعمرة الجذام .

ـ بامكانهم الاستغناء عنك يامسيو كيرى . لابد لهم أن يتصرفوا بغير وجودك . بعد أمطار الليلة الماضية سوف تكون المياه مرتفعة جدا بالنسبة للمعدية . لماذا تنتظر هنا ؟

ـ أردت فقط بعض البقول و ...

فصاح الرجل يومى على الطلب قائلا ان هذا هو الاسلوب المعتاد فى المتجر ، وعاد يقول له :

ـ ان البديل لاقامتك عندنا هو البقاء هنا حتى يهبط منسوب المياه ، وأؤكد لك انك لن ترتاح فى الفندق . هذه بلدة محدودة ، وليس فيها مايشوق رجلا مثلك . انت كيرى العظيم ، أليس كذلك ؟

قال ريكيه هذا وقد اطبق فمه كفكى مصيدة وقد لمعت عيناه دهاء ومكرا كعينى مخبر سرى . بينما رد كيرى قائلا :

ـ لست اعرف قصدك .

ـ اننا لا نعيش كلنا معزولين عن العالم تماما مثل الآباء وصديقنا الطبيب المتشكك . هذه طبعا مثل صحراء ، ومع ذلك فاننا نحاول بقدر الامكان ان نكون على اتصال بالعالم . اننى بالطبع سوف احترم وجودك متخفيا . لن أقول شيئا . ولك ان تثق باننى لن افضح ضيفى . انك سوف تكون اكثر أمنا عندى منك فى الفندق . لايوجد سواى وزوجتى . والحقيقة كانت زوجتى هى التى قالت لى : « هل تظن انه يمكن أن يكون هو كيرى نفسه ؟ » .

ـ انت مخطىء .

ـ آه . لا . لست مخطئا . بامكانى أن أريك صورة فوتوغرافية عندما تأتى الى بيتى ـ صورة فى احدى الصحف التى تبقى عند الانسان لاحتمال أن تكون لها فائدة . لها فائدة ؟! هذه الصورة لها فائدة بالتاكيد ، لأنه لولاها كنا نظنك مجرد قريب لكيرى أو أن الاسم هو محض مصادفة ؛ اذ من يتوقع أن يجد كيرى العظيم منزويا فى مستعمرة جذام فى قلب الغابة ؟ لابد لى ان اعترف اننى متعجب مملوء بالفضول . لكن بامكانك ان تثق بى ، وتثق بى على طول الخط . ان لى مشكلاتى الخطيرة الخاصة بى ، وهكذا فاننى اتعاطف مع رجل آخر له مشكلاته الخاصة به . اننى دفنت نفسى أيضا . يحسن بنا الآن ان نخرج ، ففى بلدة صغيرة كهذه للجدران آذان .

ـ انا آسف ... انهم ينتظرون عودتى ...

ـ الله وحده هو المتصرف فى أحوال الجو . ثق يامسيو كيرى انك غير مخير .

الفصل الثاني

كان البيت والمصنع يشرفان على مكان المعدية . لم يكن ثمة موقع افضل من هذا يختاره رجل له طباع ريكيه الفضولية النهمة . وكان مستحيلا على أي انسان يستخدم الطريق البرى المؤدى من البلدة الى داخلية الاقليم الا ويمر بالنافذتين الواسعتين اللتين كانتا اشبه بعدستي منظار مكبر مسلط على النهر . وقد مرت بهما السيارة تحت الظلال القاتمة الزرقة لأشجار النخيل في اتجاه النهر ، بينما تبعهما سائق ريكيه وديوجراتياس فى سيــارة كيرى .

قال ريكيه :

ــ هذا هو الموقف يامسيو كيرى . ان النهر ارتفعت مياهه كثيرا ولا فرصة أمامك للعبور هذه الليلة . ومن يدري حتى اذا كان يمكن هذا غدا ..؟ وهكذا فأمامنا وقت لأحاديث طريفة ، أنت وانا .

وبينما اجتازت بهما السيارة ساحة المصنع بين الغلايات الضخمة المعرضة للصدأ كانت تفوح من حولهما رائحة قوية تشبه رائحة السمن الصناعي الزنخ ، وهبت لفحة هواء ساخن من خلال مدخل مفتوح الباب ، وبدا هيكل فرن يهدر فى الضوء الخالى . وقال ريكيه .

ــ لابد أن هذا العمل سيبدو فى نظرك بالطبع وأنت معتاد على المصانع في (الغرب) شيئا عنيفا الى حد ما ، هــذا وان كنت لا اتذكر أنك كنت يوما مهتما بالمصانع ومايتصل بها .

ــ لا .

ــ هناك مجالات كثيرة جدا كان فيها كيري العظيم مبرزا سباقا .

كان ريكيه يكرر فى حديثه كلمة (العظيم) وكأنها لقب من ألقاب الشرف لصيق بالاسم .

ومضى ريكيه يقول بينما كانت السيارة تدرج مهتزة بين الغلايات :

ــ ان المصنع يعمل ــ يعمل بطريقته العتيقة . اننا لانترك شيئا هنا تحت بند (العوادم) . عندما ننتهي من الثمار لا يبقى شيء ، فبعد أن يتم عصر الزيت نلقي بالقشور فى الفرن ، وهكذا لانحتاج الى اى وقود آخر لابقاء الفرن مشتعلا .

وتركا السيارتين في الفناء وتقدما الى البيت . ونادى ريكيه في الشرفة وهو يكشط الطين عن حذائه :

ــ ماري . ماري .

فجاءت فتاة ترتدي بنطلونا أزرق من القطن الميقن ذات وجه مليح ساذج وتقدمت مسرعة حول ناصية الشرفة تلبية للنداء . وقد هم كيري أن يقول : « هذه ابنتك ؟ » عندما سبقه ريكيه قائلا :

ــ زوجتي . وهذا ياعزيزتي هو كيري العظيم . انه حاول انكار نفسه ، لكنني قلت له أن عندنا صورة فوتوغرافية له .

ــ انا مسرورة جدا بلقائك ، وسوف نحاول أن نوفر لك أسباب الراحة .

لقد انطبع في خاطر كيري انها حفظت مثل هذه العبارات المنمقة عن ظهر قلب من مربيتها أو من كتاب (للاتيكيت) . والآن وقد القت الدور المحفوظ مالبثت ان اختفت فجاة كما جاءت . ربما كان جرس المدرسة قد دق للعودة الى فصول الدراسة !

قال ريكيه :

ــ اجلس . ان ماري ستعد الشراب . بوسعك أن ترى انني دربتها لكي تعرف مايحتاجه الانسان .

ــ هل أنت متزوج منذ فترة طويلة ؟

ــ منذ سنتين . انني جئت بها الى هنا بعد اجازتي الأخيرة . في موقع كهذا من الضروري وجود رفيق . هل أنت متزوج ؟

ــ نعم ــ اعني انني كنت متزوجا .

ــ أعرف بالطبع أنك تظن . انها صغيرة جدا بالنسبة لي . لكنني أنظر الى الأمام . اذا كنت تؤمن بالزواج فعليك أن تنظـــر الى المستقبل . مازال أمامي عشرون سنة ــ دعني آمل لحياة نشطة ، وماذا يكون حال امرأة في الثلاثين بعد عشرين سنة ؟ ان الانسان يحتفظ بحيويته في المناطق الاستوائية . الا توافق ؟

ــ انني لم أفكر في شيء من هذا قط ، ومازلت حتى الآن لااعرف المناطق الاستوائية .

ــ ان ماري سوف تظل غضة شباب مدة كافية . انني في أعماق قلبي أؤمن ايمانا شديدا بالحب .

وجاء الساقي في الشرفة يحمل صفحة تتبعه مدام ريكيه . فتناول كيري كأسا ووقفت مدام ريكيه الى جانبه بينما رفع الساقي زجاجة (السيفون) ــ توزيعا للاختصاصات ، وسألته :

ـ هلا قلت مقدار الصودا التى تريدها ؟
فقال لها ريكيه :
ـ والآن ياعزيزتي ، غيرى ملابسك بثوب مناسب .
وبين الشراب عاد من جديد الى طرق ماوصفه (بموضوعك) . لقد صار الآن أقرب الى المشير الناصح منه الى المخبر السرى ، مما يؤهله للمشاركة فى الموقف ، وقال :
ـ لماذا انت هنا ياكيرى ؟
ـ لابد للانسان أن يكون فى مكان ما .
ـ ومع ذلك ، فكما قلت هذا الصباح ، لايمكن أن يتوقع احـد وجودك عاملا فى مستعمرة جذام .
ـ انا لا اعمل هناك .
ـ عندما ذهبت بسيارتى الى هناك منذ أسابيع ، قال الآباء انك فى المستشفى .
ـ كنت أراقب الطبيب اثناء عمله . اننى موجود بالقرب منهم فقط ، هذا كل ماهناك . لايوجد مايمكن أن أقوم به .
ـ يبدو أن هذا اهدار للموهبة .
ـ ليست لى موهبة .
فقال ريكيه :
ـ يجب الا تحتقرنا نحن ابناء الأقاليم المساكين !
وعندما انتقلوا للعشاء ، وبعد أن ردد ريكيه صلاة مائدة قصيرة ، عادت مضيفة كيرى الى الكلام ، فقالت :
ـ ارجو ان تتهيأ لك الراحة هنا .
وقالت أيضا :
ـ هل تحب (السلطة) ؟
لقد بدا شعرها الاشقر يتخلله ويظلله العرق ، ورأى كيرى عينيها تتسعان اشفاقا عندما مرقت عبر المائدة فراشة سوداء وبيضـاء بجناحين زرعهما كجناحى خفاش ، وقالت من جديد وعيناها المحدقتان تتبعان الفراشة عندما استقرت على الحائط كقطعة أشنة :
ـ لابد أن ترتاح هنا وكأنك فى بيتك .
لم يتمالك أن تساءل فى نفسه : ترى هل شعرت بأنها مرتاحة فى بيتها هى نفسها ؟ .
وقالت :
ـ لا يأتينا هنا زائرون كثيرون .

وذكره كلامها هذا بصبية اضطرت الى الترحيب بزائر ريثما تعود امها . وكانت قد ابدلت ملابسها فيما بين الويسكي والعشاء فارتدت ثوبا من القطن تغطيه رسوم أوراق الخريف ، كذكرى من ذكريات أوربا .

ولكن ريكيه قاطعها قائلا :

ـ لا زائر جاءنا مثل كيري العظيم على اى حال .

جاءت عبارته كما لو اسكت جهاز راديو كان مدارا لسماع درس في السلوك والتصرف بعد أن استمع الى مافيه الكفاية . لقد انقطع الصوت على الهواء ، ولكن بدأ في عينيها الحذرتين الخجولتين كأنما تريد أن تقول دون أن يسمعها أحد :

ـ إن الطقس كان حارا الى حد ما في الفترة الاخيرة ، أليس كذلك ؟ لعل رحلتك بالطائرة من أوربا كانت طيبة ؟

قال لها كيري :

ـ هل تحبين الحياة هنا ؟

روعها السؤال . ولعل الرد لم يكن في كتاب (الجمل المحفوظة) وقد اجابت :

ـ آه . نعم . نعم . انها مشوقة جدا .

وارسلت نظرها عبر منكبه تحدق من خلال النافذة الى حيث قامت الفلايات كتماثيل عصرية في الساحة التي يضيئها القمـــر ، ثم لم تلبث أن ارتدت بنظرها الى الفراشة فوق الحائط الى جانب سحلية ربضت تنتظر الفريسة .

قال ريكيه :

ـ هاتي لنا تلك الصورة ياعزيزتي .

ـ أية صورة ؟

ـ صورة مسيو كيري .

نهضت تجر قدميها كارهة وقد قامت بدورة لتجنب الحائط الذى حطت عليه الفراشة وربضت السحلية ، ثم عادت على الأثر ومعهـــا نسخة قديمة من مجلة (تايم) .

لقد تذكر كيري صورة « الوجه » الذى يصغره الآن بعشرة أعوام منشورا على صفحة الغلاف (وكان صدور عدد المجلة متوافقا مع زيارته الأولى لنيويورك) . ان الفنان الذى رسم الصورة نقلا عن صورة فوتوغرافية له ، قد أسبغ على ملامحه مسحة رومانسية . فلم يكن هذا هو الوجه الذى كان يطالعه عندما يحلق ذقنه ، ولكن

كان اقرب الى وجه واحد من ابناء عمومته الابعدين . لقد عكست الصورة المرسومة المشاعر والافكار والآمال والدخائل التى لم يفض بها قطعا الى اى صحفى . وكانت خلفية الصورة تمثل صرحا من زجاج وفولاذ يمكن أن يخاله الرائى قاعة للموسيقى أو حتى دفيئة برتقال ، لو لم يبين صليب ضخم قائم خارج الباب انه مبنى كنيسة.

قال ريكيه :

ـ هكذا ترى اننا نعرف كل شىء .

ـ اننى لا اتذكر ان المقال المنشور كان دقيقا تماما .

ـ أظن ان الحكومة أو الكنيسة قد عهدت اليك بانجاز عمل هنا ؟

ـ لا . فاننى اعتزلت .

ـ كنت اظن أن رجلا من طرازك لا يعتزل ابدا .

ـ آه . كل انسان يعتزل فى النهاية .

وعندما انتهى العشاء انصرفت (الفتاة) ، مثلما تفعل طفلة بعد الحلوى . وقال ريكيه :

ـ أظن انها ذهبت لكتابة يومياتها . هذا يوم مشهود بالنسبة لها ، اذ تقابل كيرى العظيم . أنها سوف تجد مما تدونه فى مفكرتها.

ـ هل تجد مادة كثيرة تكتب عنها ؟

ـ لا اعرف . فى البداية كنت القى نظرة هادئة على ماتكتب ، لكنها اكتشفت هذا ، وهى الآن تضع ماتكتب تحت القفل . واظن آننى ضايقتها كثيرا من هذه الناحية . اتذكر مرة انها كتبت فى يومياتها : « وسالة لى من امى . ان مكسيم المسكينة انجبت خمسة كلاب » . وكان ذلك فى اليوم الذى قلدنى فيه الحاكم وساما ، لكنها نسيت أن تسجل اى شىء عن هذه المناسبة الحافلة .

ـ لابد أن الحياة هنا موحشة بالنسبة لـها .

ـ آه . لا اعرف . هناك واجبات منزلية كثيرة حتى فى الغابة ، وحتى اكون صريحا كل الصراحة ، اظن ان الحياة أشد وحشة بالنسبة لى . انها أبعد أن تكون رفيقا مثقفا ، كما يمكنك أن ترى هذا بنفسك . وهذه هى احدى مساوىء الاقتران بزوجة صغيرة السن . اننى اذا اردت أن اتكلم فى المسائل التى تهمنى وتشوقنى فعلا ، يتعين على ان اقصد بالسيارة الى حيث يقيم الاباء . وماأطوله من طريق يقطعه الانسان من أجل حديث ! ان من يحيا الحياة التى احياها لديه وقت موفور لكى يفكر ويقلب الامور . انا متدين طيب فيما ارجو ، لكن هذا لايمنع من أن تكون لى مشاكل روحية . كثير

من الناس ياخذون عقيدتهم الدينية ماخذا يسيرا ، ولكنني امضيت ست سنوات وانا شاب مع الجزويت . ولو كان رئيسي وانا مترهب اكثر انصافا لما وجدتني هنا . لقد فهمت من ذلك المقال المنشور عنك فى مجلة (تايم) انك من الكاثوليك أيضا .

فقال كيرى للمرة الثانية :

ـ انني اعتزلت .

ـ آه . دع عنك هذا الكلام . الانسان لايكاد يعتزل هذا .

في هذه اللحظة وثبت السحلية فوق الحائط على الفراشة واخطأتها ، فربضت جامدة مرة أخرى ، ناشرة مخالبها الضئيلة على الحائط كانها أوراق سرخس .

وقال ريكيه :

ـ اقول لك الحقيقة . انني اجد اولئك الآباء فى مستعمرة الجذام جماعة لاترضى مثلى . فهم اكثر اهتماما بالكهرباء والبناء منهم بمسائل الايمان . ومنذ أن سمعت بوجودك هنا رحت أتطلع الى حوار مع كاثوليكي مثقف .

ـ لا يمكنني أن أطلق على نفسي هذا الوصف .

ـ خلال السنين الطويلة التى اقمتها هنا ، لبثت منكفئا على نفسي وحيد افكارى الخاصة . هناك رجال فيما اظن يمكنهم تدبير امورهم ، اما انا فلا . انني قرات كثيرا جدا فى موضوع الحب .

ـ الحب ؟

ـ حب الاله .

ـ لست مؤهلا للكلام فى هذا .

فرد ريكيه قائلا :

ـ انك تغمط قدرك .

وقام الى مائدة جانبية وجاء بصحفة من الاشربة ، فاقلق بحركته السحلية التى اختفت خلف نسخة جافية من لوحة (الهروب الى مصر) ، وقال ريكيه :

ـ كأس من (كوانترو) ، أم تفضل (فان ديرهوم) .

وفيما وراء الشرفة رأى كيرى هيكلا نحيلا فى ثوب مصبوغ برسوم أوراق ذهبية يتحرك شطر النهر . لعل الرعب من الفراشات كان يتلاشى عند صاحبة الثوب المزركش فى الهواء الطلق .

وقال ريكيه :

ـ لقد عودت نفسي وانا فى معهد اللاهوت على التفكير اكثر من

معظم الرجال ، ان عقيدة كعقيدتنا ، اذا فهمها الانسان متعمقا ، تطرح امامنا مشكلات كثيرة . وعلى سبيل المثال ــ لا ، ليس هذا مجرد مثال ــ انني سأثب الى صميم مايقلقني حقا ، فأنا لا اعتقد ان زوجتي تفهم الطبيعة الحقة للزواج في ضوء العقيدة الدينية .

سرى من الخارج في الظلام صوت شيء يلقى في الماء ، ولعلها قطع اخشاب صغيرة ترمى في النهر .

ومضى ريكيه يقول :

ــ يبدو لي احيانا انها جاهلة لكل شيء تقريبا . واجدني اتساءل في نفسي ان كانت الراهبات قد علمنها اي شيء على الاطلاق . وقد رايت هذا بنفسك ــ فانها حتى لاترسم اشارة الصليب في اوقات الطعام عندما اردد صلاة المائدة . ان الجهل ، كما تعرف ، اذا تجاوز حدا معينا ، قد يؤدي حتى الى الغاء الزواج في القانون الكنسي ، هذا واحد من المسائل التي حاولت مناقشتها مع الآباء دون جدوى . انهم يفضلون اكثر الحديث عن (التوربينات) .

فقال كيري :

ــ انا لست اهلا لمناقشة هذا .

وكان بوسعه في فترات الصمت التي تتخلل الحديث ان يسمع جريان النهر المترع . فاسترسل ريكيه قائلا :

ــ انت تنصت على الاقل . انني حين افعل اجد الآباء وقد بدأوا الكلام عن بئر جديدة يقترحون حفرها .. بئر يامسيو كيري ! بئر يفضلونها على مشكلة انسان روحية !

وشرب كأسه ، ثم صب لنفسه اخرى ، واستطرد قائلا :

ــ انهم لايدركون ... افرض مجرد فرض اننا لم نكن متزوجين زواجا تاما . بامكانها ان تتركني في اي وقت يامسيو كيري .

ــ من السهل التخلي عما تسميه (زواجا تاما) .

ــ لا . لا . المسألة اعقد من هذا كثيرا . هناك الضغوط الاجتماعية ــ وخاصة هنا .

ــ اذا كانت تحبك ...

ــ ليس في هذا حماية لي . نحن رجال مجربون واسعو الخبرة بالحياة يا كيري ، انت وانا .. ان حبا كهذا لايدوم . انني حاولت أن اعلمها اهمية محبة الله . لانها اذا احبته ، فلا يمكنها ان تغضبه ، أليس كذلك ؟ ولو كان هذا ففيه قدر من الامان . لقد حاولت أن اجعلها تصلي ، لكن لا اظن انها تعرف من الصلوات اكثر من بعض

التراتيل العامة . اى صلوات ترتلها انت ياكيرى ؟
ـ لا شيء ، الا في لحظات الخطر احيانا ، من قبيل العادة .
ـ انت تمزح . هذا مؤكد . لكن الموضوع خطير جدا . هل لك في كأس اخرى ؟
ـ ماالذى يضايقك حقيقة ياريكيه ؟ رجل آخر ؟
عادت الفتاة الى ضوء المصباح المعلق عند ناصية الشرفة ، وكانت بيدها رواية بوليسية من (السلسلة السوداء) . وقد صفرت صفيرا لا يكاد يسمع ، ولكن ريكيه سمعه ، فقال :
ـ هذا الجرو اللعين . انها تحب جروها اكثر من اى شيء آخر .
ولعل شراب (فاندير هوم) الذى احتساه اثر على منطقه فى تسلسل الحديث ، اذ قال :
ـ انا لست غيورا . ليس مايكربنى هو وجود رجل آخر . انها قليلة المشاعر . بل انها ترفض احيانا حتى واجباتها .
ـ اية واجبات ؟
ـ واجباتها نحوى ، كزوج .
ـ لم يخطر لى قط أن هذا يعتبر واجبات مفروضة .
ـ انت تعرف تماما انها كذلك فى نظر العقيدة الدينية . ليس لاحد حق التنصل الا بموافقة مشتركة .
ـ اظن انه قد توجد أوقات لا تريدك فيها .
ـ اذن فما المفروض أن اعمل ؟ هل تخليت عن الترهب مقابل لا شيء على الاطلاق ؟
فقال كيرى مكرها :
ـ لو كنت مكانك لما حدثتها باسراف عن المحبة التى تقول بها . فربما كانت لا ترى تشابها بين هذا وبين تلك الواجبات .
فسارع ريكيه يقول :
ـ بل هو تشابه ويثق لرجل له عقيدتى .
قال هذا رافعا يده وكأنما يجيب على سؤال امام زملائه الدارسين المترهبين ، وبدت الشعيرات الخشنة المنتصبة فيما بين عقد أصابعه كصف من شوارب قصيرة . فقال كيرى :
ـ يبدو انك متمكن من موضوعك :
ـ فى معهد اللاهوت كنت انجح دائما فى اخلاقيات اللاهوت .
ـ لا اظن انك بحاجة الى اذن ـ او الى الآباء ايضا . من الواضح انك فكرت فى كل شيء تفكيرا مرضيا لك .

ـ هذا من تحصيل الحاصل . لكن الانسان بحاجة أحيانا الى التاكيد والتشجيع . لا يمكنك أن تتصور يامسيو كيري ماهي بالراحة التى يشعر بها الانسان اذا خاض فى هذه المشكلات مع كاثوليكى .

ـ لا أعرف أنه يمكن ان ينطبق على هذا الوصف .

فضحك ريكيه قائلا :

ـ ماذا ؟ كيرى العظيم ! لايمكنك أن تخدعني. ما انت الا متواضع شديد التواضع . ترى كيف لم يكرموك بلقب كونت الامبراطورية الرومانية المقدسة ـ مثل ذلك المغنى الارلندى . ماذا كان اسمه ؟

ـ لا اعرف . لست من أهل الموسيقى .

ـ عليك أن تقرأ مايقولونه عنك فى مجلة (تايم) .

ـ فى شئون كهذه فان مجلة (تايم) ليست بالضرورة وثيقة الاطلاع . هل تمانع اذا ذهبت الى فراشى ؟ لابد لى أن أستيقظ مبكرا فى الصباح حتى أدرك المعدية التالية قبل حلول الظلام .

ـ بالطبع . وان كنت أشك فى أن تتمكن من عبور النهر غدا .

وتبعه ريكيه فى الشرفة الى غرفته . وكان الظلام يضج بالضفادع وقد بدا له بعد فترة طويلة من انصراف مضيفه بعد أن تمنى له ليلةطيبة فان الضفادع تواصل النقيق مرددة عبارات ريكيه الطنانة : صلاة المائدة ـ القداس ـ الواجبات ـ الحب ، الحب ، الحب .

الفصل الثالث

(١)

قال الطبيب بحدة :

ـ أنت تريد أن تكون ذا فائدة ، أليس كذلك ؟ ولا تريد أعمالا حقيرة لمجرد أنها أعمال حقيرة ؟ أنت لا بالقديس ولا بمحب التعذيب.

ـ أن ريكيه وعدني ألا يخبر أحدا بأمري .

ـ أنه وفى بوعده قرابة شهر . وهذا في حد ذاته انجاز كبير بالنسبة لريكيه . وعندما جاء الى هنا منذ أيام لم يخبر سوى رئيس الرهبان على انفراد .

ـ وماذا قال رئيس الرهبان ؟

ـ قال أنه لايمكن أن يسمع شيئا على انفراد خارج نطاق الاعتراف .

وتابع الطبيب فك أربطة الجهاز الكهربائي الثقيل الذي كان قد وصل أخيرا على ظهر سفينة شركة أوتراكو . وقد بلغ من حرص الطبيب على الجهاز الثمين أنه لم يشأ فتحه في المستوصف ، بل في غرفة المعيشة الخاصة به . وقد قال الطبيب لكيرى تبريرا لهذا أنه يفضل الاحتفاظ بالجهاز في بيته الى أن يتم بناء المستشفى الجديد .

وقال الطبيب :

ـ لابد لنا الآن من البت في الموضع الذي ستقام فيه التوصيلات الكهربائية . هل تعرف هذا ؟

ـ لا .

فقال الطبيب وهو يلمس برقة الجهاز المعدني كما يمسح الانسان باعزاز خاصرة تمثال انثوى من تماثيل (رودان) البرونزية :

ـ طالما تمنيت هذا الجهاز . وأحيانا كنت استسلم لليأس . ما أكثر الأوراق التي كان علي أن أستوفيها ، والأكاذيب التي كنت أدلي بها . وهاهو ذا أخيرا أمامي .

ـ وماذا يفعل هذا الجهاز ؟

ـ انه يقيس بنسبة عشرين ألفا من الثانية رد الفعل العصبي .

سوف يأتي يوم نباهي فيه بمستعمرة الجذام هذه . ونباهي بك ايضا وبالدور الذي تكون اديته .

ــ قلت لك انني اعتزلت .

ــ ان الانسان لايعتزل ابدا مهنته .

ــ بل يعتزل ، فلا تخطىء . الانسان يصل حتما الى نهاية .

ــ لماذا انت هنا اذن ؟ لكي تحب امراة من الاقليم ؟

ــ لا . الانسان يصل الى نهاية هذا ايضا . من المحتمل ان الجنس والمهنة يولدان معا ويموتان معا . دعني الف الضمادات أو احمل الدلاء . كل ما أريده هو تمضية الوقت .

ــ حسبتك تريد ان تكون ذا فائدة .

ــ اسمع .

قال كيري هذا واخلد الى الصمت .

ــ انا سامع .

ــ لست أنكر ان مهنتي كان لها مرة معنى كبير عندي . وكذلك كان للنساء . ولكن فائدة ماكنت اصنعه لم تكن قط ذات اهمية عندي . لم اكن ابني مجمعات سكنية ولا مصانع. عندما كنت اصنع شيئا كنت أصنعه من اجل لذتي الخاصة .

فقال الطبيب :

ــ اعلى هذا النمط كنت تحب النساء ؟

لكن كيري لم يكد يسمعه . كان يتكلم كما يأكل الجائع :

ــ ان مهنتك تختلف يادكتور . انت معني بالناس ، اما انا فلم اكن معنيا بالناس الذين يحتلون الحيز عندي ــ كنت معنيا بالحيز وحده .

ــ في هذه الحالة ماكنت اطمئن الى توصيلاتك السباكية !

ــ ان الكاتب لا يكتب لقرائه ، أليس كذلك ؟ ومع ذلك فلابد له رغم هذا من اتخاذ احتياطات أولية للعمل على راحتهم الفكرية . ان اهتمامي كان منصرفا الى الحيز ، والضوء ، والتناسب . والمواد الجديدة كنت اهتم بها فقط فيما قد يكون لها من تأثير على تلك العناصر الثلاثة . الخشب ، والاحجار ، والفولاذ ، والاسمنت المسلح ــ كلها مواد قد يبدو ان الحيز يتغير بما يستخدمه الانسان منها اطارا له . ان المواد عند الفنان المعماري هي بمثابة عقدة الرواية عند الكاتب . لكنها ليست هي الحافز عنده على العمل . الحافز فقط هو الحيز ، والضوء ، والتناسب .

ــ ان اثنتين من الكنائس التي شيدتها لهما شهرة ذائعة . الم

تهتم بما حدث في داخلهما ــ للناس ؟
ــ ان وضوح السماع كان مرعيا بالطبع . وكان المذبح المرتفع مرئيا لكافة الانظار . لكن الناس كرهوا الكنيستين . قالوا انهما لم تصمما من اجل الصلاة . كان قصدهم انهما لم يشيدا على النمط الروماني او القوطي او البيزنطي . وفي خلال سنة واحدة كدسوهما بتماثيل مصيص رخيصة للقديسين . وانتزعوا النوافذ البسيطة التى وضعتها ووضعوا مكانها زجاجا ملونا ، وبعد ان دمروا ماهياته من الحيز والضوء ، ساغ لهم ان يصلوا من جديد . بل انهم غدوا فخورين بما افسدوه . اننى اصبحت ماوصفوه بالمخطط المعمارى الكاثوليكي العظيم ، لكننى لم اعد اشيد كنائس اخرى يادكتور .
ــ انا لا اعرف كثيرا عن هذه المسائل ، لكن اظن انه كان لهم الحق في ان يعتقدوا أن صلواتهم اهم كثيرا من عمل من اعمال الفن .
ــ من الناس من صلوا في السجون ، ومنهم من صلوا في احياء الفقراء وفي معسكرات الاعتقال . ان الطبقات المتوسطة فقط هي التى تطالب بالصلاة في بيئات لائقة . اننى اضيق احيانا بمن يتكلمون عن الصلاة رياء . ان ريكيه اكثر من استخدم هذه الكلمة هل تصلى يادكتور كولين ؟
ــ اظن أن آخر مرة صليت فيها كانت قبل الامتحان النهائي لكلية الطب . وانت ؟
ــ اننى امسكت منذ زمن طويل . ان اهتمامي كله كان موجها الى العمل . قبل أن اذهب للنوم ، حتى ولو كنت بصحبة امراة ، فان آخر شيء كنت افكر فيما دائما هو العمل . ان المشكلات التى كانت تبدو مستعصية على الحل كثيرا ماكانت تحل نفسها اثناء النوم . وكنت اجعل غرفة نومى مجاورة لمكتبى ، وبهذا كان يتيسر لى أن امضي دقيقتين أمام مرسمى آخر كل شي .
ــ ان هذا يبدو قاسيا الى حد ما بالنسبة للمراة .
ــ ان التعبير عن الذات شيء صعب وأنانى ، انه يأكل كل شيء ، حتى الذات . وفي النهاية تراك ولم تجد حتى ذاتا تعبر عنها . ليس لي اي اهتمام باي شيء أكثر من ذلك يادكتور .
ــ اليس لك اطفال ؟
ــ كان لى ذات مرة ، لكنهم اختفوا في هذه الدنيا منذ زمن طويل . ان الاتصال قد انقطع بيني وبينهم . ان (التعبير عن الذات) ياكل فيك شخصية الأب ايضا .

ـ وهكذا فكرت أن بامكانك ان تجيء وتموت هنا ؟

ـ نعم . كان هذا في ذهني . ولكنني أردت أكثر ما اردت أن اكون في مكان ناء حيث لايوجد اى مبنى جديد او امراة يمكن ان يذكرني احدهما بانه كان ثمة حين من الزمن كنت فيه على قيد الحياة ، ولي مهنة تشغلني وامراة احبها ـ ان كان ذلك حبا . ان مرضاك المشلولين يقاسون ، وأعصابهم فيها حس ، ولكنني يادكتور واحد من المشوهين الذين بتر الجذام اوصالهم .

ـ لو جئت منذ عشرين سنة لكان في الوسع ان نقدم لك الموت ، ولكن عملنا الآن ينحصر فقط في العلاج والشفاء . ان عقار (دى دى ـ اس) يكلف ثلاثة شلنات . وهو أرخص كثيرا من ثمن الكفن .

ـ ايمكنك شفائي ؟

ـ ربما كانت (تشوهاتك) لم تتفاقم الى حد كبير بعد . اذا جاء المريض الى هنا متأخرا جدا فان المرض ينتهي بأن يأكل نفسه .

ووضع الطبيب قماشا برقة فوق الجهاز يغطيه ، قائلا :

ـ ان المرضى الآخرين ينتظرون . هل تريد ان تخرج معي ام تفضل البقاء هنا مفكرا في (حالتك المرضية) ؟ يحدث كثيرا أن المرضى المشوهين يفضلون الاعتزال ايضا ، بعيدا عن الأنظار .

***

كان الهواء من حولهما في المستشفى ثقيلا ساكنا لم تحركه قط مروحة ولا نسيم . وقد آنس كيرى من فوره قذارة الفرش ـ ان النظافة لم تكن ذات اهمية للمجذوم ، وانما للسليم فقط . وكان المرضى يجيئون معهم (بمراتبهم) التي لعلها كانت في حوزتهم طول حياتهم ـ وهي من الخيش الخشن الذي كان القش يتسرب منه . وكانت الأقدام المعصوبة تتمدد في القش وكأنها لفائف لحم سيئة التغليف . وفي الشرفة كان المرضى الذين يستطيعون السير يجلسون في الشمس . وشوهدت امراة مشلولة الاجفان لا تستطيع اغماض عينيها أو حتى ان تطرف بهما وقد انتحت ناحية ذات ظل قليل بعيدا عن وطأة الضوء القاسي . وكان ثمة رجل بلا أصابع يعرض طفلا فوق ركبته ، ورجل آخر انبطح في الشرفة وقد استطال أحد ثدييه .

لم يكن ثمة شيء كثير يستطيع الطبيب ان يفعله لأى واحد من هؤلاء . فان الرجل المصاب بالتضخم كان له قلب ضعيف لا يحتمل اجراء عملية جراحية . واذا كان بوسع الطبيب ان يخيط أجفان المراة ، الا انها رفضت ذلك خوفا . وأما الطفل فهو مصاب بالجذام .

وماكان بوسع الطبيب كذلك مساعدة أولئك المرضى فى العنبر الأول الذين كانوا سيموتون بداء السل ، ولا المرأة التى راحت تجد نفسها بين الفراش وقد ضمرت ساقاها بشلل الأطفال . ولقد طالما بدا للطبيب أن من الظلم ان الجذام لم يمنع كل غيره من هذه الأمراض (وفى الجذام وحب الكفاية لاحتمال اى انسان له) ، ومع ذلك فان تلك الأمراض الأخرى هى التى كانت تؤدى الى وفاة اكثر مرضاه.

ومضى الطبيب يتفقد المرضى وكيرى يسير فى أثره .

وفى المطبخ المقام من الطين خلف بيت من بيوت أخذ المجذومين جلس رجل فى العتمة فوق كرسى مركب قديم . وعندما اجتاز الطبيب الفناء بذل الرجل جهدا للنهوض ، لكن ساقه لم تحتملاه ، فأومأ بالتحية معتذرا . فقال الطبيب بصوت خافت : « ضغط دم مرتفع . لا أمل . انه جاء الى مطبخه لكى يموت » .

كانت ساقا الرجل ناحلتين كساقى طفل ، وقد لف وسطه بخرقة احتشاما . وكان كيرى قد شاهد ملابسه التى تركها مطوية بعناية فى الكوخ الجديد المبنى بالآجر تحت صورة البابا . وتدلت فوق تجويف صدره أيقونة مقدسة بين الشعر القليل الأشيب . ولم يلبث الرجل أن سأل عن صحة الطبيب ، فقال له الطبيب :

ــ هل هناك أى شىء يمكن أن أجىء به اليك ؟

فأجاب الرجل بالنفى ، قائلا ان لديه كل مايحتاج اليه :

وقد استفهم من الطبيب عما اذا قد تلقى حديثا نبأ من اسرته ، وسأل عن صحة والدة الطبيب ، فأجاب :

ــ انها فى سويسرا ، بين الجبال . فى اجازة بين الثلوج .

ــ الثلوج ؟

ــ نسيت . انك لم تر الثلوج أبدا . هى بخار متجمد . ضباب متجمد . ان الهواء يبرد جدا فلا تذوب الثلوج ، وتمتد فوق الأرض بيضاء طرية كالريش ، وتغطى البحيرات بالثلوج .

فقال الرجل الكهل مباهيا :

ــ انا اعرف ماهو الثلج ، فقد رأيته فى ثلاجة . هل والدتك مسنة مثلى ؟

ــ اكبر سنا .

ــ اذن فيجب الا تسافر بعيدا عن دارها . لابد للانسان أن يموت فى قريته اذا تيسر .

ونظر مكتئبا الى ساقيه الناحلتين قائلا :

ـ لا يمكن ان تحملانى ، والا لسرت الى قريتى .
فقال الطبيب :
ـ بامكانى تدبير سيارة نقل لكى تذهب بك . لكن لا اظن انك ستحتمل الرحلة .
فقال الكهل :
ـ هذه مضايقة شديدة لك . وعلى اى حال فليس هناك وقت ، لاننى ساموت غدا .
ـ ساخبر رئيس الرهبان لكى يأتى ويراك باقرب وقت ممكن .
ـ لا اريد ان اسبب اية مضايقة له . فعليه واجبات كثيرة . اننى لن اموت قبل الليل .
وكان قرب كرسي المركب زجاجة ويسكى قديمة بها سائل بنى وقد ربطت حولها بنباتات ذابلة. فسأل كيري الطبيب بعد ان تركا الرجل :
ـ ما الذى وضعه فى الزجاجة ؟
ـ دواء . سحر . ابتهال الى آلهه نزامبى .
ـ ظننت انه كاثوليكى .
ـ لو اننى امضيت استمارة لقلت اننى كاثوليكى ايضا . وهذا هو الشأن معه . ان نصف ايمانه بالمذهب الكاثوليكى ونصفه بالمعبود نزامبى . ليس الفارق كبيرا بيننا فيما يختص بالعقيدة . كل ما اتمناه هو ان اكون رجلا معالى مثله .
ـ هل سيموت حقا غدا ؟
ـ اظن هذا . ان لهم مقدرة خاصة عجيبة فى المعرفة .
وفى المستوصف وقفت امراة مجذومة معصبة القدمين تنتظر وقد حملت صبيا بين ذراعيها . كانت ضلوع الصبى ظاهرة واحدة واحدة . كانت مثل قفص القيت فوقه ليلا خرقة سوداء لابقاء طائر نائما تحتها ، ومثل طائر ايضا كانت انفاسه تتحرك من تحت الخرقة . وقد قال الطبيب ان الجذام ليس هو الذى سيقتله ، بل مرض (السيكلاميا) وهو داء عضال فى الدم لا شفاء له . لم يكن ثمة امل . ان الطفل لن يعيش مدة تكفى لكى يصير مجذوما ، ولم يكن هناك اى معنى لابلاغ الام هذا . وقد لمس الطبيب الصدر المجوف الصغير باصبعه ، فاجفل الصبى منه . فاخذ الطبيب يشتم المراة بلغتها ، فراحت تجادله بغير اقتناع وهى تتشبث بالصبى الى فخذها . وبعد ان ذهبت المراة قال الدكتور كولين :
ـ انها وعدت الا يحدث هذا مرة ثانية لكن كيف لنا ان نتأكد ؟

ـ ما الذى يحدث ؟

ـ ألم تر أثر الجرح الصغير على الصدر ؟ أنهم قطعوا جيبا فى جلده لكى يضعوا دواءهم المحلى فى الصدر ، وقد قالت المرأة ان جدته هى التى فعلت هذا . يا للصبى المسكين!.. انهم لايريدون أن يتركوه يموت . لقد قلت لها اذا حدث هذا مرة ثانية فسوف اتوقف عن علاج ما بها من جذام ، لكن بوسعى ان اقول انهم لن يدعونى ارى الصبى مرة أخرى فى هذه المنطقة التى يمكن اخفاؤه فيها بسهولة.

ـ الا يمكنك أن تضعه فى المستشفى ؟

ـ لقد رايت أى نوع من المستشفيات هذا . هل تقبل أن تترك ولدا لك يموت فيه ؟ المريض التالى ! التالى !

رددها الطبيب مغضبا ، وكان المريض التالى صبيا ايضا ، فى السادسة من عمره ، وكان أبوه يرافقه ، وقد وضع يده المبتورة الاصابع على كتف الصبى لكى يسرى عنه . فادار الطبيب الصبى واجرى يده فوق بشرته الفضة وقال :

ـ حسنا . لابد انك الآن اصبحت قادرا على الملاحظة . مارايك فى هذه (الحالة) ؟

ـ ان أحد اصابع قدميه قد ذهب حتى الآن .

ـ ليس لهذا اهمية ، انه مصاب بمرض (البرغوث) وهو مرض يكثر فى الغابة ، وقد اهملوا حالته . لا ـ هذه اول بقعة . ان الجذام قد بدأ فعلا .

ـ الا من سبيل لوقاية الأطفال ؟

ـ فى البرازيل يبعدونهم بعد الولادة ، ويموت من هذا الداء ثلاثون فى المائة من المواليد . انني أفضل مجذوما على طفل محكوم عليه بالموت . اننا سنشفى هذا الصبى فى خلال عامين .

وتطلع بنظرة خاطفة الى كيرى ثم أشاح عنه قائلا :

ـ فى يوم من الايام ـ فى المستشفى الجديد ـ سوف يكون هناك عنبر خاص ومستوصف للأطفال . وسوف اسبق البقعة المرضية قبل ظهورها . ساعيش لكى ارى الجذام وهو يتقهقر . هل تعرف أن هناك مناطق ، على بعد بضع مئات الأميال من هنا ، تبلغ فيها اصابات الجذام نسبة واحد الى خمسة ؟ اننى احلم بمستشفيات متنقلة سابقة التجهيز . ان الحروب قد تغيرت طبيعتها فى الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ كان القادة يديرون المعارك من بيوت فى الريف ، ولكن فى الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٤ خاض

روملّ ومونتجومرى المارك من عربات (الكرافان) المتنقلة . كيف أستطيع أن أنقل الأفكار التى فى ذهنى الى الأب جوزيف ؟ ليس فى قدرتى أن أرسم واضع تصميمات معمارية . بل ليس فى قدرتى أن اصمم غرفة واحدة بها كافة المزايا . لن أستطيع سوى أن أبين له الاخطاء بعد أن يتم بناء المستشفى . انه ليس حتى من البنائين . انه ماهر فى البناء بالآجر فقط . انه يضع حجرا فوق حجر لوجه الله كما تعودوا أن يبنوا الاديرة . وهكذا ترى اننى فى حاجة اليك .

(٢)

كتب كيرى فى مفكرة يومياته هذه الكلمات :

« لم تبق عندى مشاعر كافية لكى افعل شيئا لبنى الانسان من قبيل الشفقة » .

لقد تذكر تماما اثر ذلك الجرح الذى رآه فى صدر الصبى الغض وكذلك أصابع القدم الاربع الباقية فى قدم الصبى الآخر ، لكنه لم يشعر بالتأثر ولم يحركه شىء من هذا . ان تزايد الوخز لا يمكن ان يتصاعد الى حد الاحساس بالألم .

كانت هناك عاصفة فى طريقها الى الهبوب ، فراحت أسراب النمال الطائرة تتوافد الى داخل الغرفة وهى تلاطم النور حتى اضطر ان يغلق النافذة ولم تلبث أن سقطت على أرض الأسمنت وفقدت اجنحتها وراحت تجرى هنا وهناك وكأنما دب اليها الارتباك اذ الفت انفسها هكذا فجأة مخلوقات أرضية لا من مخلوقات الهواء . وباغلاق النافذة تضاعفت الحرارة المرطوبة حتى اضطر ان يضع ورقة (نشاف) تحت معصم يده لكى تتلقى العرق .

وعاد الى الكتابة فى محاولة لتوضيح دوافعه لدى الدكتور كولين :

« ان الانبعاث الى العمل النافع هو بادرة تدل على الحب : وهو ليس من قبيل العمل المهنى الذى يحترفه الانسان . وعندما تموت الرغبة والاشتهاء فلا يستطيع الانسان ان يحب . وانا قد وصلت الى نهاية الرغبة ونهاية الانبعاث الى النفع . فلا تحاول ان تفرض على ارتباطا لا يقوم على الحب ولا ان تحملنى على محاكاة مااعتدت أن أمارسه بشغف . ثم لاتكلمنى مثل واعظ عن واجبى . ان قطعة النقد القديمة ــ كما علمونا أطفالا ــ ينبغى الا تدفن طالما لها قوة شرائية ، ولكنه عندما تتغير العملة وتلغى الصورة المسكوكة ولا يبقى فى قطعة النقد من قيمة سوى وزن رقاقة من الفضة ، فللانسان كل الحق فى

اخفائها . ان العملات الميتة المهجورة ، مثل القمح ، كانت توجد دائما فى القبور » .

كانت الكلمات جافية ومبتورة ، فلم تكن لديه موهبة تنظيم افكاره فى كلمات . وقد اختتم بهذه العبارة :

« ان ماكنت اشيده كنت اشيده دائما لنفسى ، لا ابتغاء مثوبة ولا ارضاء لمتعة مشترى . لا تكلمنى عن بنى الانسان . ان بنى الانسان هؤلاء لا يمتون الى بسبب . ثم الم أتطوع على اى حال بفسل اربطتهم وضماداتهم ؟ » .

انتزع كيرى الصفحات التى كتبها وارسلها مع ديوجراتياس الى الدكتور كولين . وكان قد اختتمها بعبارة أخيرة قال فيها :

« سوف اؤدى لك أى شىء يكون معقولا ، لكن لاتسالنى ان أحاول العودة الى الحياة ... »

وقد جاء الدكتور كولين الى غرفة كيرى فيما بعد وطوح بالرسالة التى كورها الى مافوق مكتبه ، وقال متبرما :

ـ وساوس . مجرد وساوس .

ـ حاولت أن افسر ...

ـ ومن يريد اى تفسير ؟

وانصرف عنه دون أن يعقب .

فى هذه الليلة تراءت لكيرى احلام ثقيلة اقضت مضجعه . وما أن طلع النهار أخيرا حتى ذهب الى النجار فى مستعمرة الجذام وشرح له كيف يصنع له لوحة رسم ومقعدا طبقا لما يريده . ولم يسع الى لقاء الدكتور كولين الا بعد ان تم هذا لكى يبلغه قراره . فقال الطبيب :

ـ انا مسرور من أجلك .

ـ ولماذا من اجلى ؟

فأجاب الدكتور كولين :

ـ أنا لا اعرف شيئا عنك . لكننا جميعا على هذه الشاكلة ، لقد كنت تحاول تجربة مستحيلة . لكن الانسان لايمكنه ان يحيا وليس لديه شاغل سوى نفسه .

ـ بل يمكنه هذا .

ـ اذن سوف يقتل نفسه عاجلا أو آجلا .

فعقب كيرى قائلا :

ـ ان كان يهتم بأى شىء !

الفصل الرابع

(١)

بعد شهرين نما قدر من الثقة الطبيعية بين كيري وديوجراتياس . وكان اساسها اول الأمر ماعليه الرجل من عجز بدني . ان كيري لم يكن يغضب منه اذا أراق ماء ، وقد كبح غضبه عندما تلطخ احد رسومه الهندسية بالمداد من زجاجة انكسرت والواقع ان تعلم حتى أبسط الواجبات يستغرق وقتا طويلا بغير اصابع اليدين والقدمين ؛ وعلى أي حال فان انسانا لايعبأ باى شيء يجد أن من الصعب ـ او من السخف ـ أن يستسلم للغضب . وقد حدث في مناسبة أن صليبا تركه الآباء معلقا على الحائط في غرفة كيري كسر بسبب بعض القصور من جانب الرجل المشوه ، وقد توقع أن يحدث هذا رد فعل عند كيري كما يمكن أن يحدث رد فعل عنده هو نفسه لو أن رمزا معبودا قد ناله الدمار بعامل الاهمال او القساوة . كان من السهل عنده ان يخلط بين قلة الاكتراث والعطف .

وذات ليلة عندما كان القمر بدرا شعر كيري بغياب الرجل كما يفتقد الانسان شيئا لم يكن يلحظه من رف المدفأة في مسكن مؤقت لقد وجد أن أبريقه لم يملأ بالماء و (الناموسية) الواقية من البعوض لم تسدل فوق الفراش ، ثم وجد فيما بعد وهو في طريقه الى بيت الطبيب للمناقشة معه في امكانية خفض تكاليف بناء المستشفى ـ وجد ديوجراتياس يسير متعثرا بعصاه على امتداد الطريق الرئيسي في مستعمرة الجذام بكل سرعة تهيئها له قدماه المبتورتا الأصابع . وكان وجه الرجل مبتلا بالعرق ، وعندما كلمه كيري راغ مبتعدا عنه الى الساحة الخلفية لأحد البيوت . وحينما عاد كيري بعد نصف ساعة القاه لايزال واقفا مكانه جامدا وكأنه عقب شجرة مقطوعة لم يهتم صاحبها بنقلها من مكانها . وقد أرهف كيري السمع أيضا ، لكنه لم يسمع سوى خشخشة الجداجد والتناغم المتعالي للضفادع وفي الصباح لم يعد ديوجراتياس ، وشعر كيري بشيء من خيبة الأمل اذ لم يقل له التابع كلمة واحدة قبل ذهابه . فأخبر الطبيب أن الشاب ذهب ، قائلا :

ـ اذا لم يعد غدا ، فهلا وجدت لي آخر بدلا منه ؟
فقال الدكتور كولين :
ـ لست أفهم . انني لم أسند اليه هذا العمل الا لكي يمكنه البقاء في مستعمرة الجذام ، فلم تكن لديه رغبة في الذهاب من هنا .
وبعد وقت آخر ذلك اليوم جاء رجل مجذوم يحمل الى كيري عصا الشاب قائلا انه التقطها في الدرب الموصل الى اكثف منطقة في الغابة ، وكان كيري وقتها يعمل في غرفته مستغلا فترة الضوء الأخير آخر النهار ... فقال للرجل :
ـ لكن كيف عرفت أن العصا هي عصاه ؟
فكرر الرجل ببساطة انها عصا ديوجراتياس ـ دون مناقشة ، ودون منطق ، وانما مجرد تقرير لواحد آخر من الأشياء التي يعلمون أنه لايدري من امرها شيئا .
ـ هل تظن انه وقع له حادث ؟
فقال الرجل بلغته الفرنسية الهزيلة أن شيئا قد حدث ، وانطبع في نفس كيري من لهجة الرجل أن (الحادث) هو أقل شيء كان يخشاه الرجل .
قال له كيري :
ـ لماذا لاتذهب وتبحث عنه اذن ؟
فقال الرجل انه لم يبق من ضوء النهار بين الأشجار مايكفي . ولابد لهم من الانتظار حتى الصباح .
ـ لكنه ذهب منذ أربع وعشرين ساعة تقريبا . وان كان قد وقع له حادث فقد انتظرنا وقتا طويلا كافيا . يمكنك أن تأخذ (بطاريتي)
فكرر الرجل قوله أن الصباح أفضل ، وآنس كيري فيه الفزع والذعر .
ـ هل اذا ذهبت معك ، تأتي ؟
فهز الرجل رأسه . وهكذا ذهب كيري وحده .
لم يكن بوسعه أن يلوم هؤلاء الناس لمخاوفهم . فان الانسان يتجرد من كل تفكير اذا لم يكن له أن يخاف من الغابة الضخمة ليلا . فلم يكن في الغابة مايستهوي الخيال . انها خاوية تماما . ولم يسبق قط أن عمرها بشر ، مثل غابات أوربا التي كانت تطرقها الساحرات ومواقد الفحم المشتعلة واكواخ المشعوذين . ولم يسبق أن سار تحت أشجار هذه الغابة أحد يندب الحب الضائع ولا أنصت احد الى السكوت والصمت وتناجي بأحاديث القلب مثل شاعر

البحيرة . ولو بدا لرجل في هذه الغابة أن ينادي ليلا فيسمع صوت نداءه لـكان عليه أن يرفع عقيرته حتى يعلو صوته على الصلصلة المتواصلة للحشرات وكأنه في مصنع هائل تدار فيه الآف من آلات الخياطة بأيدي الألوف المؤلفة من خياطات معوزات يردن أن يسبقن الزمن . أن السكون في هذه الغابة لم يكن يحل سوى ساعة من النهار او نحوها ، وهي وقت القيلولة لهذه الحشرات .

لكن اذا اعتقد هؤلاء بوجود كينونة مقدسة ، أفلا يجوز أنهم يؤمنون بوجود رب في هذا الخواء الكبير كما آمن الناس بوجود اله في اقطار السموات ؟ وكذلك تبقى هذه الغابات المترامية غير مطروقة من مستكشف الى آماد اطول عهدا من استكشاف الكواكب السيارة ان فوهات البراكين على سطح القمر غدت الآن معروفة أكثر مما تعرف هذه الغابات القائمة من كثب اذا فكر احد في ارتيادها يوما على قدميه . والحق أن رائحة الكلوروفيل الحادة الفاسدة المنبعثة من النباتات المتعفنة والمستنقعات اطبقت على وجه كيري كما يطبق قناع طبيب الأسنان .

كانت مهمة عقيمة . فهو ليس بالصياد . وقد شب وترعرع في المدينة . وما كان بوسعه أن يطمع في اكتشاف اثر انسان حتى في ضوء النهار ، وقد سلم بسهولة كبيرة بالدليل الذي قيل له عن العصا . وعندما راح يرسل ضوء بطاريته على هذا الجانب وذاك لم تستبن له سوى ومضات شاردة بين أوراق الأشجار ربمـا كانت انعكاس اعين ناظرة ، ولكنها كانت على الأرجح بقعا صغيرة من مياه المطر حبست بين لفائف الأوراق . ولابد أنه الآن ظل سائرا مـدى نصف ساعة ، وأغلب الظن انه قطع مسافة ميل على امتداد الدرب الضيق . ومرة انزلق اصبعه عن زر (البطارية) ، واذا هو في لحظة ظلام يخرج من جادة الدرب المتعرج نافذا الى صميم الغابة ذاتها ، حتى قال لنفسه : « لست على صواب اذا اعتقدت أن البطـارية سوف تكفيني حتى اعود ادراجي » . واستمر يجتر هذه الفكرة وهو يمضي في طريقه قدما . وتذكر انه قال للدكتور كولين تفسيرا لسبب بقائه عندهم أن السفينة لا تتقدم الى اكثر من ذلك ، ولكن يبقى دائما أن بوسع الانسان أن يوغل قليلا سيرا على قدميه . ونادى اسم ديوجراتياس وكرر النداء بصوت اعلى من ضوضاء الحشرات ، ولكن الأسم التافه لم يكن له أي رجع .

ان وجوده هنا لم يكن له تفسير مثل وجود ديوجراتياس . أن

فكرة وجود تابعه مصابا في الغابة ينتظر اى نداء او وقع خطـوة من اى كائن بشرى ربما كانت فيما مضي من حياته تضايقه طول الليل حتي تضطره الي القيام ببادرة انسانية . اما الآن وهو لا يعبأ بشيء في الدنيا فلعله كان مدفوعا فقط باثارة ضئيلة من فضـول عقلي . فما الذى جاء بديوجراتياس الي هنا بعيدا عن جو الامن والألفة في مستعمرة الجذام ؟ ومن الممكن بالطبع أن يؤدى هـذا الدرب الي مكان ما ـ وربما الي قرية فيها اقرباء لديوجراتياس ـ لكن كيرى عرف الآن مايكفي عن افريقيا لكي يعلم ان الدرب في اغلب الظنون لابد ان يتلاشي ـ كان يكون اثرا مخلفا من درب صنعه رجال جاءوا يبحثون عن يرقات فراش يقلونها في النار طعاما لهم . وربما لا يعدو أن يكون معلما لاقصى حد توغل اليه بشر . ثم مامعنى ذلك العرق الذى رآه يتصبب علي وجه الرجل ؟ لعله وليد خوف أو قلق او حتي أفكار ملحة في وطأة حرارة النهر . ان الاهتمام بدأ يتحرك في دخيلته اليما مثل عصب كان هامدا مجمدا . لقد عاش حليف الجمود عهدا طويلا الي حد انه راح الآن يحلل هـذا (الاهتمام) الطارىء بتجرد هادىء .

قال لنفسه انه لابد ظل سائرا حتى الآن اكثر من ساعة . كيف استطاع ديوجراتياس أن يقطع كل هذه الشقة دون عصـاه وفوق قدمين مبتورتين الأصابع ؟ وشعر كيرى اكثر من اى وقت بالشـك فيما اذا كانت (البطارية) يمكن أن تكفيه حتي يعود من حيث جاء . ورغم ذلك فقد مضي قدما . وقد بدا له انه كان أحمق كل الحماقة اذ لم يخبر الطبيب او اى واحد من الآباء بوجهته احتمالا لوقوع حادث له ، لكن أليس (حادث) يقع هو مالعله علي وجه التحديد كان ينشده ؟ مهما يكن من شيء فانه واصل السـير ، بينما كان البعوض يطن تحفزا للهجوم . ولم يكن ثمة فائدة من أن يذوده عنه . فقد راض نفسه علي الاستسلام .

وماهي الا مسافة خمسين ياردة اخرى . حتي اجفل من صوت حيوانى أجش ـ كالنخير الذى يصدر عن خنزير برى . فتوقف واجال ضوءه (الخابى) في دائرة حواليه . فرأى أن هذا الدرب لابد منذ سنوات طويلة ماضية كان مقصودا منه أن يؤدى بسالكه الي مكان ما ، اذ كانت امامه بقايا قنطرة صنعت من جذوع أشجار دب اليها العطب منذ عهد بعيد . ولو انه تقدم خطوتين اخـريين لسقط في فتحة مستنقع ضحل تكسوه النباتات المتطاولة سـقطة ،

ليست كبيرة بالنسبة اليه ولكنها مستطيرة بالنسبة الى رجل مشوه اليدين والقدمين ، واضاء النور جسد ديوجراتياس ونصفه فى المياه ونصفه خارجها . وكان بوسع كيرى ان يبصر الآثار المتخلفة فى الأرض المبتلة الزلقة ليدين أشبه بقفاز الملاكمة حاولتا التماس ما تمسكان به عبثا . ثم صدر صوت النخير عن الجسد الملقى فى المستنقع مرة اخرى ، فنزل اليه .

لم يكن بوسع كيرى أن يعرف ان كان ديوجراتياس متمالكا وعيه أم لا . وكان جسده ثقيلا جدا الى حد تعذر معه أن يرفعه ، ثم انه لم يبذل اى جهد للتعاون والاستجابة . وكان دافئا ومبتلا مثل ربوة من التراب . وبدا كأنه جزء من القنطرة التى سقطت منذ سنوات طويلة . وبعد كفاح دام عشر دقائق عالج كيرى أن يجر أطرافه الى خارج المياه ــ وكان ذلك أقصى مااستطاع أن يفعله . وكان الشيء الواضح الآن ، اذا تيسر أن تبقى (البطارية) مدة كافية ، هو أن يسعى الى طلب النجدة . وحتى لو رفض أبناء جلدته أن يعودوا معه فمن المؤكد ان اثنين من الآباء يمكن أن يمدا يد المساعدة . وهم كيرى أن يرتقى الى القنطرة ، واذا ديوجراتياس يعوى مثل كلب أو طفل . ثم رفع عقبه يده وعوى مرة أخرى ، فادرك كيرى انه مشلول من الخوف . وقد سقطت اليد المبتورة الأصابع على ذراع كيرى مثل مطرقة واستبقته فى مكانه .

لم يكن ثمة مايفعله سوى الانتظار الى الصباح . فان الرجل قد يموت من الخوف ، ولكن لا احد منهما يمكن أن يموت من الرطوبة أو لدغ البعوض . فاستقر فى اقرب وضع مريح الى جانب الرجل وراح يفحص قدميه المتصلبتين فى البقية الباقية من ضوء (البطارية) . راى بقدر علمه انه أصيب بكسر فى رسغ القدم ، وهذا كل ماناله . وسرعان ماعتم الضوء الى حد أن كيرى رأى خيطه فى الظلام كدودة فوسفورية . ثم انطفأ تماما . فامسك بيد ديوجراتياس لكى يطمئنه ، أو بالاحرى وضع يده هو بجانب يده ، اذ ليس فى الوسع أن تمسك بيد لا أصابع لها . وقد نخر ديوجراتياس مرتين ، ثم تفوه بكلمة واحدة ، بدت فى السمع مثل كلمة (بنكازى) . وفى الظلام شعر بمفاصل العظام مثل صخرة عدت عليها عوامل النحات الجوية على مدى السنين .

وكان الآباء لا يمكن ان يستطيعوا نوع الأغنيات التى كان يريد ان يرددها . ان امه اخذته الى هناك ذات مرة وهو بعد طفل ، وكان بوسعه أن يتذكر كم كان هناك من غناء ورقص والعاب وصلوات .

ـ لكن ديوجراتياس جاء من مكان يبعد عن هنا مئات الأميال .

ـ ربما يوجد أكثر من (بنكازى) فى الدنيا .

ـ ان اناسا كثيرين غادروا مستعمرة الجذام منذ ثلاث ليال . ومعظمهم عاد ثانية . واظن انه كان هناك نوع الطقوس السحرية كانت دائرة على قدم وساق . وقد بدأ ديوجراتياس رحلته متأخرا كثيرا ولم يستطع ان يلحق بهم ويشهد طقوسهم .

ـ مهما يكن فان كلمة (بنكازى) لاتزال تتردد فى خاطرى .

فقال الدكتور كولين :

ـ اننا دائما نقرن (الأمل) بالشباب . وهؤلاء الناس لايكفون حتى فى مراحل العمر المتقدمة عن التعلق بالأمل .

فقال كيرى :

ـ اذن فقد عرفت اين تبحث عنى ، اذا افتقدت يوما وجودى .

واقترنت هذه العبارة بصوت غير متوقع جعل الطبيب يرفع رأسه ويتطلع الى محدثه .

كانت ملامح وجه كيرى قد التوت بشبه ضحكة . فادرك الدكتور كولين ان كيرى قد ابتسر دعابة هى لمثله بمثابة اثم كان يتحرج منه !

القسم الثالث

الفصل الأول

(١)

ركب ... ومدام ريكيه سيارتهما قاصدين الى المدينة لحضور حفلة الكوكتيل عند الحاكم . وقد قال لها ريكيه اثناء الطريق :

ــ عندما تسألك مدام جيل زوجة الحاكم عما تحبين أن تشربيه ، فاطلبي كأسا من (البيرييه) .

ــ لا عصير البرتقال ؟

ــ لا ، اللهم الا اذا رأيت ابريقا منه على المائدة الجانبية . يجب علينا الا نسبب لها مضايقة .

وعت ماري ريكيه هذه النصيحة تماما ، ثم حوّلت نظرها عن زوجها وجعلت تحدق بعيدا الى الغابة القائمة كحائط منيع ، ولكنه قال لها :

ــ هل سمعت ماقلته لك ياحبيبتي ؟

ــ نعم . سوف اتذكر .

ــ وصنف (الكنابيه) ، الخبز بالكافيار . لاتأكلي كثيرا منه كما فعلت في المرة الماضية . اننا لانذهب الى قصر الحاكم لكي نأكل وجبة كاملة . ان هذا يخلق انطباعا سيئا .

ــ لن أمس أى شيء .

ــ وهذا أيضا شيء سييء . قد يبدو معناه انك لاحظت انه غير طازج ، وهو كذلك عادة .

فقالت الزوجة الصغيرة :

ــ أنا في رعب ، كل شيء يبدو معقدا جدا ، ومدام جيل لاتحبني .

فتولى ريكيه التفسير بعطف قائلا :

ــ المسألة ليست هي أنها لاتحبك . كل ماهنالك هو انك في المرة السابقة بدأت تنصرفين قبل زوجة مدير البوليس . وبالطبع لسنا مقيدين بمراعاة هذه المراسم السخيفة المتبعة هنا ، لكننا لانريد أن

نظهر في مظهر المتهجمين ، والمفهوم عموما أننا بوصفنا من التجار البارزين فاننا نلي في الترتيب مدير الأشغال العمومية . ولهذا عليك أن تنتظري حتى ترى مدام كاسان وهي تنصرف .

ـ انا لا اتذكر ابدا اسماءهم .

ـ هي المراة السمينة جدا . لا يمكن ان تخطئي رؤيتها . ولهذه المناسبة اذا حضر كيري الحفلة فلا تخجلي من دعوته لتمضية الليلة عندنا . في مكان كهذا يشتاق الانسان الى الحوار المثقف . ومن اجل كيري فانني مستعد حتى لاحتمال ذلك الملحد الدكتور كولين . بامكاننا أن ندبر له فراشا ثانيا في الشرفة .

لكن لا كيري ولا كولين حضرا الحفلة .

وقد اضطر المدعوون جميعا الى الانتقال من الحديقة الى الداخل ، اذ كان هذا موعد قيام سيارة الـ (د . د . ت) الكبيرة باطلاق السحب المطهرة النفاذة فوق البلدة .

وقالت مدام ريكيه للمضيفة :

ـ (بيريه) من فضلك ، اذا لم يكن في هذا تعب .

فتفضلت مدام جيل وجاءت بيريه بيديها ، وقالت الضيفة :

ـ يظهر انكم الوحيدون الذين قابلتم مسيو كيري . ان الحاكم كان يود أن يوقع باسمه في (السجل الذهبي) ، لكن يبدو انه يمضي كل وقته في ذلك المكان الكئيب هناك : وهكذا ربما يمكنكم استطلاع احواله من أجلنا جميعا .

فقالت ماري ريكيه :

ـ نحن لانعرفه حقيقة . انه امضى ليلة عندنا عندما كان النهر في حالة فيضان ، وهذا كلّ شيء . ولولا ذلك لما بقي عندنا . لست اظن انه يريد مقابلة الناس . وقد وعد زوجي الا يخبر احدا ...

ـ ان زوجك كان محقا جدا في ان (يخبرنا) . كان لابد أن نبدو على درجة كبيرة من الغفلة لوجود كيري العظيم في اقليمنا دون ان ندري . كيف كان تأثيره في نفسك ياعزيزتي ؟

ـ انني لم أتكلم معه تقريبا .

ـ ان شهرته في بعض النواحي المعينة سيئة جدا كما ابلغوني . هل قرات المقال المنشور عنه في مجـــلة (تايم) ؟ آه ، نعم ، ان زوجك اطلعنا على المقال طبعا . وليس معنى هذا انهم يكتبون عن (هذه المسائل) . هو فقط ماتتناقله الألسنة في أوربا عنه . على الانسان أن يتذكر رغم ذلك أن بعض اعاظم القديسين مروا بفترة

معينة من ـ كيف اعبر عن هذا ؟
فقال ريكيه :
ـ هل سمعتك تتكلمين عن القديسين يامدام جيسل ؟ ياله من ويسكي ممتاز هذا الذى تقدمونه !
ـ لم نكن نتكلم عن القديسين بالضبط . كنا نتناقش فى موضوع مسيو كيرى .
فراح ريكيه يقول وقد رفع صوته قليلا مثل مدرس فى فصل به ضوضاء :
ـ فى رايى انه قد يكون اهم شخصية جاءت الى هنا منذ شفايتزر . وقد وجدته شخصية شائقة جدا عندما اقام معنا . هل سمعتم عن الحكاية الاخيرة ؟
وجه ريكيه هذا السؤال الى عموم الموجودين فى القاعة وهو يهز الثلج فى كأسه ، ثم استطرد يقول :
ـ انه ذهب الى الغابة منذ اسبوعين ، لكى يبحث كما قيل عن مجذوم كان قد هرب . وقد امضى الليلة كلها معه فى الغابة ، يجادل ويصلى ، وقد اقنع الرجل بالعودة واتمام علاجه . ان السماء امطرت ليلتها ، واصيب الرجل بالحمى ، وهكذا غطاه كيرى بجسده .
فقالت مدام جيل :
ـ ياله من عمل بعيد عن العرف !
فقال الحاكم وكان رجلا ضئيلا قصير النظر اقرب الى ان يكون دائرا فى فلك زوجته :
ـ ان الدنيا ياعزيزتى فيها قديسون كثيرون مجهولون .
وقال مدير الاشغال العمومية يسأل مدير شركة أوتراكو :
ـ من هو هذا الرجل المدعو كيرى ؟
ـ يقولون انه مهندس معمارى ذو شهرة عالمية . كان يجب ان تعرف هذا ، فهو يدخل فى اختصاصك .
ـ لعله غير موجود هنا بصفة رسمية ؟
ـ انه يساعد فى اقامة المستشفى الجديد فى مستعمرة الجذام .
ـ لكننى اعتمدت الرسوم الخاصة بالمستشفى منذ شهور . انهم لا يحتاجون الى مهندس معمارى . هى مجرد عملية بناء بسيطة .
فقاطعهما ريكيه قائلا لادخالهما فى دائرة من يشملهم بأحاديثه :
ـ ان المستشفى ـ ولكم ان تثقوا بكلامى ـ هوخطوة أولى فقط . انه يعد تصميم كنيسة عصرية هنا . انه المح الى شخصيا بهذا .

هو رجل عظيم الخيـــال . وما يهنيه يبقى ويدوم . اننى ارى المونسينيور آتيا . الآن يمكن أن نسمع رأى الكنيسة فى كيرى .

كان الأسقف طويل القامة انيقا متمق اللحية له عين جوالة كعين شاب من شبان الأرصفة . وكان يتحاشى كرما منه بسط يده للرجال حتى يتفادوا الانحناء امامه . اما النساء فكن يحببن تقبيل خاتمه ، (وهو نوع من الغزل البرىء) ، وكان هو يسمح بهذا عن طيب خاطر .

قالت له مدام جيل :

ــ اذن فبين ظهرانينا قديس يامونسينيور .

ــ انك تكرميننى كثيرا . وكيف حال الحاكم ؟ اننى لا اراه هنا .

ــ انه ذهب لاحضار مزيد من الويســـكى . واقول الحقيقة يامونسينيور اننى لم اكن اشير اليك . اننى اكره أن اراك قديسا ــ فى هذه المناسبة على الأقل ، فتولى ريكيه البيان قائلا :

ــ كنا فى الواقع نتحدث عن كيرى ، كيرى العظيم ، رجل بهـذه المكانة يدفن نفسه فى مستعمرة جذام ، ويمضى ليلة يصلى مع مجذوم فى الغابة ــ لابد أن توافق يامونسينيور على أن التضحية بالذات من اجل الغير على هذه الصورة شىء نادر : مارأيك ؟

ــ ترى هل هو يلعب (البريدج) ؟

وكما كان تعقيب الحاكم بمثابة موافقة الأدارة على سلوك كيرى ، فكذلك قوبل سؤال الأسقف بما يفهم منه انه بهذا الأسلوب الحكيم التقليدى يتحفظ فى ابداء رأيه .

وتقبل الأسقف كاسا من عصير البرتقال . فنظرت مارى ريكيه الى الكاس مكتئبة . فقد كانت بيديها كأسها من (البيريه) ولم تدر كيف تتصرف . وقال لها الأسقف برقة :

ــ يجب أن تتعلمى (البريدج) يامدام ريكيه . ان اللاعبين الذين يعرفونه هنا أصبحوا قليلين .

ــ اننى أخاف من لعب الورق يامونسينيور .

ــ سوف ابارك مجموعة الورق واعلمك أنا شخصيا .

لم تدر مارى ريكيه ان كان الأسقف يمزح ، وتكلفت ابتسامة يسيرة .

وراح ريكيه يقول :

ــ لا استطيع أن اتصور كيف ان رجلا له منزلة كيرى يمكن ان يعمل مع ذلك الملحد كولين . هذا رجل ، ولكم أن تثقوا بكلامى ،

لا يعرف معنى كلمة الاحسان . هل تتذكرون العام الماضي عندما حاولت تنظيم (يوم المجذومين) ؟ انه رفض ان يساهم فيه بعمل . وقال انه لا يستطيع قبول فكرة الاحسان . لقد جمعنا اربعمائة ثوب وبذلة ، فرفض توزيعها ، لمجرد انها لاتكفى للجميع . وقال انه سيضطر لشراء باقى العدد من جيبه الخاص لتفادى الحسد ـ لماذا يكون المجذوم حسودا ؟ يجدر يامونسينيور أن تكلمه ذات يوم عن طبيعة الاحسان .

لكن المونسينيور كان قد انتقل من مكانه ، ويده تحت ذراع ماري ريكيه . وقال لها :

ـ يظهر أن زوجك مشغوف بذلك الرجل كيرى .

ـ أنه يظن انه ربما يكون شخصية يمكن التحدث معها .

فقال المونسينيور يثيرها برفق :

ـ وهل انت صموتة الى هذا الحد ؟

ـ لا يمكنني أن أتكلم في المسائل التي يتحدث عنها .

ـ اية مسائل ؟

ـ حرية الارادة ، وصلاة المائدة و ـ الحب .

ـ دعي عنك هذا الآن ـ الحب ... انت تعرفينه ، اليس كذلك ؟

فأجابت ماري ريكيه :

ـ ليس الحب بمفهومه عنده .

(٢)

عندما حان الوقت لانصراف ريكيه وزوجته من الحفل ـ وقد اضطرا الى الانتظار طويلا حتى تنصرف مدام كاسان أولا ـ كان ريكيه قد أسرف في شرب الخمر الى حد الخطر ، وانتقل من حالة اللطف المفرط الى حالة الاستياء ، وهو نوع من ذلك الاستياء البعيد المدى الذى ينقلب بعد نبش نقائص الغير الى استعراض نقائصه هو نفسه وكانت ماري ريكيه تعرف أنه لو امكن استدراجه وهو في هذه المرحلة الى اخذ قرص منوم فقد يمضى كل شيء بخير . وربما يصل الى الغيبوبة قبل ان يصل الى موضوع الدين ، الذى ينتقل منه الى موضوع العلاقات الزوجية .

قال لها ريكيه :

ـ هناك أوقات اتمنى فيها لو كان عندنا أسقف اكثر عناية بالمسائل الروحية .

فقالت ماري ريكيه :
ـ انه كان رفيقا معي .
ـ اظن انه تكلم معك عن لعب الورق .
ـ انه عرض أن يعلمني (البريدج) .
ـ أظن انه كان يعرف انني منعتك من لعب الورق .
ـ لايمكن أن يعرف هذا ، لانني لم اخبر به احدا .
ـ لن أسمح لزوجتي ان تصبح مثل باقي الجاليات الاوربية هنا .
ـ اظن انني أصبحت منهم .
واضافت بصوت خافت :
ـ لا أريد أن أكون مختلفة عنهم .
فقال لها بحدة :
ـ يمضون وقتهم كله في أحاديث تافهة ...
ـ ليتني استطيع هذا ، كم أتمنى ان استطيع هذا . لو كان أي انسان يمكنه أن يعلمني هذا ...

على هذا النحو كان الموقف بينهما كل مرة . انها لم تشرب سوى (البيريه) ، ومع ذلك فان الكحول المنبعث من انفاسه كان يجعلها تتكلم وكأن الويسكي الذي شربه قد نفذ الى دمها هي ، وعندما كانت تتكلم في مثل هذه المواقف كان كلامها دائما قرين الحقيقة . لكن الحقيقة كانت تسخط ريكيه دائما ، اذ رد عليها قائلا :

ـ ياله من كلام فارغ ! لا تتكلمي هكذا كأصحاب المظاهر . هناك اوقات تذكرينني فيها بمدام جيل .

كانت الضوضاء المنبعثة من الغابة على جانبي الطريق الذي تسلكه السيارة اعلى من صوت المحرك ، وكان الليل يتغنى من حولهما باصوات كلها نشاز . ولم تتمالك أن خامرها حنين الى تلك الحوانيت المتراصة على الطريق في شارع نامور بمسقط رأسها . وحاولت أن تخترق ببصرها زجاج السيارة المضاء لترى من خلفه واجهة زجاجية مملوءة بالاحذية المعروضة . واذا هي تمد قدمها الى جانب (الفرملة) وتقول همسا :

ـ انا البس مقاس ٦ .
ـ ماذا قلت ؟
ـ لا شيء .
ـ اراك تعتادين عادة سيئة عندما تكلمين نفسك .

لم تقل شيئا . فلم يكن بوسعها أن تكاشفه بما كان يدور في

خاطرها . لم يكن بجوارها احد تتكلم معه عن (محل الحلوى والفطائر عند الناصية) ، ولا عن اليوم الذى اصيبت فيه الأخت تيريز بالتواء فى ساقها ، ولا عن شاطىء البحر فى شهر اغسطس مع والديها .

قال ريكيه وقد انتقل الى المرحلة الثانية من سكرته :

ـ ان الذنب فى الكثير من هذا هو ذنبى ، والغلطة غلطتى . اننى ادرك هذا . لقد فشلت فى تعليمك القيم الصحيحة كما اراها . ماذا يمكن أن تتوقعى من مدير مصنع للزيوت ؟ لم يكن القصد ان تكون هذه حياتى . كنت اظن انه حتى انت يمكن ان تدركى هذا . فعندما كنت شابا اردت ان اكون قسيسا .

لابد انه قال لها هذا ، عقب كل سكرة ، مرة على الأقل كل شهر منذ زواجهما . وفى كل مرة كان يتكلم هكذا ، كانت تتذكر ليلة زواجهما الأولى فى الفندق بمدينة انتويرب ، التى داس فيها على مشاعرها ، حتى اضطرت ان تقول له انه هو الذى سعى الى الزواج منها .

وعاد الآن يقول لها :

ـ ماذا كنت تقولين ؟

ـ لم اقل شيئا .

ـ انك لاتظهرين حتى اقل اهتمام عندما اكلمك عن أعمق مشاعرى .

فقالت بلهجة التعاسة :

ـ ربما كان غلطة .

ـ غلطة ؟

ـ زواجك بى . فاننى كنت صغيرة جدا .

ـ يعنى اننى عجوز لا اصلح لك !

ـ لا ، لا . لا أقصد ...

ـ انت تعرفين نوعا واحدا فقط من الحب ، أليس كذلك ؟ هل تظنين ان هذا هو نوع الحب الذى كان يشعر به القديسون ؟

فقلت يائسة :

ـ انا لا اعرف أى قديسين .

ـ انت لا تعتقدين اننى كفء لك ؟

فقالت همسا :

ـ انا لا افهم ... صدقنى لست أفهم .

ـ ما الذى لا تفهمينه ؟

ـ كنت اظن ان المحبة الزوجية يمكن ان تسعدك .

ـ هل هذا ماعلموك اياه في الدير ؟
ـ نعم .
فلوى سحنته في وجهها وهو يرسل انفاسه ثقيلة حتى امتلأت السيارة الصغيرة برهة برائحة الخمر .
واقتربت بهما السيارة من المنزل ، فقال لها بصوت دبت فيه الرقة فجأة :
ـ هذه فرصة للصلاة .
ـ الصلاة ؟
رددت هذه الكلمة وقد علمت دون ارتياح أنها ايذان بانتهاء (المعركة) . وقال لها :
ـ عندما لا أجد شيئا افكر فيه ، فانني أردد بعض الصلوات ، خصوصا صلوات التندم .
ـ التندم ؟
ـ ... على أنني غضبت بغير حق من طفلة عزيزة أحبها .
وامتدت يده تداعب يدها .
ولاح لهما المنزل عن كثب . وبعد دورة قصيرة ستبدو غرف النوم مضاءة . وكان بودها أن تذهب مباشرة الى غرفتها ـ تلك الغرفة الصغيرة الحارة الكالحة التي كان يسمح لها أن تبقى فيها وحدها احيانا في فترات معينة من حياتهما الزوجية ، ولكنه استوقفها بلمسة من يده ، قائلا :
ـ لست غاضبة مني يا (ماوى) ؟
كان دائما ينطق اسمها بهذه اللثغة الصبيانية في اللحظات التي يكون فيها أبعد عن كل اسلوب صبياني .
فردت عليه قائلة :
ـ لا ... ولكنني اخشى الا تكون هذه المرة مأمونة .
كان املها الوحيد في الافلات هو خوفه من انجاب طفل . ولكنه قال لها :
ـ اطمئني ... انني تابعت التواريخ بدقة .
ـ ان احوالي لم تكن منتظمة في الشهرين الأخيرين .
فطوق خصرها بذراعه ودفعها برفق الى الوجهة التي يريدها .
فقالت مستعطفة :
ـ دعني اذهب الى غرفتي لحظة . انني تركت فيها بعض اشيائي

كانت في الواقع تكره ان تتجدد امام عينيه المحدقتين ،واضافت قائلة :

ـ لن اغيب طويلا . اعدك الا اغيب طويلا .

فقال لها :

ـ سوف أكون في انتظارك .

غيرت ملابسها مبطئة بقدر ماتجرات . ولم يكن في الغرفة سوى سرير حديدي صغير ومقعد وخزانة ملابس ودولاب بادراج تعلوه صورة فوتوغرافية لأبويها ـ شخصان مسنان سعيدان تزوجا متأخرين وأنجبا ابنة واحدة . وكان هناك بطاقة مصورة لمدينة بروج ارسلها اليها ابن عم لها ، ونسخة قديمة من مجلة (تايم) . وكانت تخبىء مفتاحا تحت الدولاب مالبثت ان اخرجته وفتحت الدرج السفلي . كان بداخله متحفها السرى : نسخة بادية الجدة والرواء من كتاب القداس منحت لها في أول عشاء رباني شهدته ، وصدفة من أصداف البحر ، وبرنامج حفل موسيقى في مدينة بروكسل ، وكتاب أندريه لوجين المعروف باسم (تاريخ أوروبا الكاثوليكى) في جزء واحد لطلبة المدارس ، وكراسة مدرسية تضم موضوعا كانت قد كتبته اثناء سنتها الدراسية الأخيرة (حصلت عنه على النهاية الكبرى في الدرجات) عن « الحروب الدينية » . والآن لم تلبث ان اضافت الى هذه المجموعة نسخة مجلة (التايم) القديمة ، فحجب وجه كيرى المرسوم على الغلاف تاريخ لوجين . وكان غير متناسق بين مخلفات عهد الطفولة ، لقد تذكرت نص كلمات مدام جيل التى قالتها بالحرف الواحد : « ان شهرته في بعض النواحي المعينة سيئة جدا » . ولم تلبث أن أوصدت الدرج وأخفت المفتاح ـ فلم يكن مأمونا ان تتأخر اكثر من هذا القدر . ثم سارت في الشرفة الى غرفتهما،حيث كان ريكيه ممددا متجردا في جوف (الناموسية) في الفراش المزدوج . كان مشهده أقرب الى رجل غريق أخرجوه من المياه في شبكة ، وبدا شعره المنتشر فوق بطنه . وساقيه كأعشاب بحرية . ولكن ما أن دخلت عليه حتى دبت فيه الحياة فجأة ، ورفع جانب الخيمة قائلا :

ـ تعالى يا (ماوى) !

الفصل الثانى

اطفأ رئيس الرهبان سيجاره بأدبه التقليدى ، ولكن ما ان جلست مدام ريكيه حتى اشعل وهو شارد الذهن سيجارا آخـر . وكان مكتبه مغطى بأوراق مبعثرة ، من (كتالوجات) الأوانى المختلفة ، وقصاصـات الورق التى ازدحمت بعمليـات حسـابية معقدة كانت نتائجها مختلفة دائما ، اذ كان محاسبا قاصرا ــ كان الضرب عنده عمليـات جمع معقدة وسلسلة من عمليات الطرح تحل كلها محل القسمة المطولة . وكانت صحيفة احد (الكتالوجات) مفتوحة على صورة « بيديه » اخطأ رئيس الرهبان فحسبه نوعا جديدا من حمام القدم . وعندما دخلت مدام ريكيه كان يحاول أن يحسب ان كان فى قدرته المالية شراء ثلاث مجموعات منها لمستعمرة الجذام : فقد بدت له هى عين المطلوب لغسل الأقدام المجذومة .

قال للقادمة :

ــ أهلا يامدام ريكيه . انت زائرة لم نكن نتوقعها . هل زوجك ..

ــ لا .

ــ انها مسافة طويلة تأتين فيها وحدك .

ــ كان معى اناس فى الطريق حتى مستوطنة اسرة بيران ، حيث أمضيت الليلة عندهم . وقد طلب منى زوجى ان أحضر اليك برميلين من الزيت .

ــ ياله من رجل كريم .

ــ أخشى أن يكون ما تؤديه لمستعمرة الجذام شيئا قليلا .

بدا لرئيس الرهبان انه ربما يستطيع أن يطلب من أسرة ريكيه تزويد المستعمرة بعدد محدود من حمام القدم الجديد ، لكنه لم يكن على يقين من القدر الذى يمكنهما المساهمة به . اى انسان ذو مال يبدو غنيا فى نظر من لايملك شيئا ــ فهل يطلب حماما واحدا او يطلب الكمية اللازمة كلها ؟ بدأ فى تحويل صور (الكتالوج) فى اتجاه مارى ريكيه ، بحذر ، لكى يبدو الأمر وكأنه يقلب أوراقه لا أكثر . ولسوف تكون مهمة الكلام أيسر كثيرا لو انها هتفت قائلة : « ياله من حمام قدم جديد جميل ! » ، وبهذا يمكنه أن يعقب قائلا :

وبدلا من ذلك فقد اربكته بتغيير الموضوع قائلة :

ـ كيف تسير خطط بناء الكنيســة الجديدة يا ابى ؟

ـ كنيسة جديدة ؟

ـ قال لى زوجى انكم تبنون كنيسة جديدة رائعـــة تبلغ فى ضخامتها حجم الكاتدرائية ، على الطراز الافريقى .

ـ يالها من فكرة خارقة . لو كان عندى المال اللازم لهذا الغرض

ـ وماكان ليستطيع بكل قصاصات ورقة ان يحسب تكاليف بنـاء كنيسة (فى حجم الكاتدرائية) ـ اذن لبنينا مائة بيت ، وكل بيت مزود بحمام قدم .

وادار الكتالوج مسافة اخرى الى ناحيتها قائلا :

ـ ان الدكتور كولين ماكان ليغفر لى قط بعشرة المال من اجل ذلك .

ـ ترى لماذا قال زوجى ..؟

تساءل رئيس الرهبان فى نفسه : ايجوز ان هذا تلميح لاستعداد اسرة ريكيه لتمويل ... كان من الصعب ان يعتقد ان مدير مصنع زيوت تسنى له ان يكون غنيا بالقدر الكافى ، لكن يجوز ان مدام ريكيه بالطبع نالت ميراثا . ان ميراثا كهذا يمكن قطعا ان يكون مدار الحديث فى (لوك) ، لكنه لم يكن يقوم بالرحلة الى هذه البلدة الا مرة واحدة فى العام . وهكذا قال :

ـ ان الكنيسة القديمة ، كما تعرفين ، سوف تكفينا مدة طويلة . ان نصف الناس هنا فقط من الكاثوليك . وعلى اى حال فمن غ المجدى ان تكون لنا كنيسة ضخمة اذا كان الناس لا يزالون يعيشو فى اكواخ من الطين . والآن قد امكن صديقنا كيرى ايجاد طريقـ لخفض تكلفة بناء كوخ بمقدار الربع . اننا كنا مجرد هواة هنا الى ا قدم عندنا .

ـ ان زوجى قال لكل انسان ان كيرى قائم ببناء كنيسة .

ـ آه ، لا ، اننا نستطيع الانتفاع به بطريقة أفضل . ان المستشف الجديد ايضا لايزال امامه وقت طويل قبل ان يتم . وكل مال يمكن ان نستجديه او نسطو عليه لابد ان ينفق فى تاثيث المستشفى انني كنت الآن افحص هذه الكتالوجات ...

ـ اين مسيو كيرى الآن ؟

ـ آه . اعتقد انه يعمل فى غرفته ، اللهم الا اذا كان مع الدكتو كولين .

ـ الجميع كانوا يتحدثون عنه فى بيت الحاكم منذ اسبوعين .
ـ مسكين مسيو كيرى .
فقالت مدام ريكيه :
ـ كانوا كلهم يثنون عليه . هل صحيح ماقيل ـ عن حكاية غياب تابعه ؟
ـ حدث شيء من هذا القبيل . لست أعرف ماذا قالوا عن هذا .
ـ قالوا انه أقام طول الليل وصلى ...
ـ ان مسيو كيرى لا يكاد يصلى .
ـ ان زوجى ينظر اليه نظرة كبيرة . هناك اناس قليلون جدا يمكن زوجى أن يتحدث معهم . وقد طلب منى أن احضر الى هنا وادعو ..
ـ نحن ممتنون جدا عن برميلى الزيت . ان ماوفرتموه لنا من ثمن الزيت ، يمكننا أن ننفقه فى ...
وحرك صورة (البيديه) مسافة اخرى من مدام ريكيه . ولكنها قالت :
ـ هل تظن انه يمكننى ان اكلمه ؟
ـ المشكلة يامدام ريكيه هى ان هذه هى ساعة عمله .
فقلت متوسلة :
ـ اريد فقط أن يكون بوسعى ابلاغ زوجى أننى دعوته ...
لكن نبرات صوتها المحدودة لم تعبر عن التوسل كما ينبغى ، وكان رئيس الرهبان منشغلا بالنظر الى جانب من صورة حمام القــدم لم يستطع فهمها تماما ، فقال :
ـ مارأيك فى هذا ؟
ـ ماذا ؟
ـ حمام القدم هذا . اريد شراء ثلاث مجموعات للمستشفى .
وتطلع اليها بعد صمتها عن الجواب ، وأدهشه أن يرى وجهها وقد تورد . لقد بدا له انها طفلة وافرة الملاحة . وقال لها :
ـ هل تظنين ...؟
انتابها الارتباك ، وتذكرت مداعبات رفيقاتها المجترئات فى الدير ، تلك المداعبات الغامضة ، وقالت :
ـ ليس هذا فى الحقيقة حمام قدم يا أبى .
ـ لأى غرض هو اذن ؟
فاجابت بقدر يسير من التفكه :
ـ الأفضل ان تسأل الطبيب ـ أو مسيو كيرى .

وتحركت قليلا فى مقعدها ، ففهم رئيس الرهبان هذا على انه علامة الرحيل ، وقال لها :

ـ ان المسافة طويلة ياعزيزتى فى عودتك الى أسرة بيران ، هل يمكن أن أقدم لك فنجان قهوة أو كوب بيرة ؟

ـ لا ، لا . شكرا لك .

ـ أو قليل من الويسكى ؟

ـ ورغم السنين الطوال لعزوفه عن الشراب فانه لم يتعلم قط أن الويسكى قوى جدا فى شمس الظهيرة .

ـ لا ، شكرا لك يا أبى . أنا اعرف انك مشغول ، ولا اريد ان اسبب لك اية مضايقة . لكن اذا أمكن فقط أن اقابل مسيو كيرى واطلب منه ...

ـ سابلغه رسالتك ياعزيزتى . اعدك اننى لن انسى هذا . انظرى، هاقد كتبت مذكرة : كيرى ـ ريكيه .

كان مستحيلا أن نخبرها أنه كان قد وعد كيرى أن يدعه دون شىء يقلق راحته ، « خصوصا من جانب ذلك المخبول مدعى التدين ريكيه » .

لكنها قالت له :

ـ لن ينفع هذا يا أبى ، لن ينفع . اننى وعدت زوجى أن أقابله شخصيا . ولن يصدق اننى حاولت هذا .

وامسكت عن اتمام كلامها . فقال رئيس الرهبان :

ـ انا غير متأكد حقيقة اين هو الآن .

ـ لو امكن فقط ان ابحث عنه بنفسى .

ـ لا يمكننا أن نتركك تتجولين فى حرارة الشمس . ماذا يقول زوجك لو فعلنا هذا ؟

ـ هذا هو عين ما اخشاه . انه لن يصدق ابدا اننى بذلت كل جهدى .

وبدا واضحا ان الدموع تكاد تنبثق فى عينيها ، مما زاد مظهرها صغرا وطفولة . فقال رئيس الرهبان :

ـ أقول لك ماذا سافعل . سأطلب منه ان يتصل تليفونيا ـ عندما ينتظم الخط .

فقالت بصراحة محزنة :

ـ انا اعرف أنه لا يحب زوجى .

فقال وقد غلب على أمره :

ـ يا طفلتي العزيزة ، هذه كلها تخيلات . ان كيري شخص غريب . لا احد منا يعرفه حقيقة . وربما كان هو نفسه لايحب احدا منا .

ـ انه يقيم معكم ، انه لا يتجنبكم .

شعر رئيس الرهبان بوخزة غضب ضد كيري . ان هؤلاء الناس قد أرسلوا اليه برميلين من الزيت ، فهم بالتأكيد يستحقون بالمقابل شيئا من المجاملة ، فقال لها :

ـ ابقى هنا . سأرى ان كان كيري في غرفته ... لا يمكننا ان نجعلك تبحثين عنه في مستعمرة الجذام كلها .

وغادر غرفة مكتبه ودار حول ركن الشرفة واتجه الى غرفة كيري . ومر بغرفتي كل من الأب توماس والأب بول ، ولم تكن احداهما مختلفة عن الأخرى بطابع ذاتي أكثر من نوع الصليب الذي اختاره كل منهما ، وتفاوت درجة ترتيب الغرفة . ومر بعدهما بالكنيسة الصغيرة ، واخيرا غرفة كيري . كانت الغرفة الوحيدة العارية من كل رموز ، بل كانت في الواقع مجردة من كل شيء تقريبا ، فلا صور فوتوغرافية لأي مكان ينتمي اليه الانسان ، أو صورة لأحد الأبوين . والواقع أن الغرفة تركت في نفس رئيس الرهبان انطباعا بالبرودة والجفوة رغم حرارة النهار ، وكأنها قبر موحش . وكان كيري جالسا الى منضدته . وامامه رسالة عندما دخل رئيس الرهبان ، لكنه لم يرفع راسه . فقال له :

ـ أنا آسف لازعاجك .

ـ اجلس يا ابي . لحظة واحدة حتى أنتهي من هذا .

ثم قلب الصفحة وقال :

ـ كيف تختم رسائلك يا ابي ؟

ـ المسألة تختلف . (أخوك في الدين) ، ربما ؟

ـ اتذكر انني اعتدت أن أكتب عبارة : « كلي لك » . ما أكذب مابدو هذه العبارة في سمعي الآن .

ـ عندي زائر لك . انني حافظت علي وعدي ودافعت عنك الى آخر رمق . ولم يعد بوسعي ان افعل أكثر من هذا . ولولا ذلك لما عملت على اقلاقك .

ـ انا مسرور بمجيئك . انني لا استسيغ وجودي وحيدا مع هذه الرسالة . المسألة هكذا ـ ان البريد قد لاحقني . كيف عرف اي انسان انني هنا ؟ هل تلك الجريدة المحلية اللعينة التي تصدر في (لوك) يصل توزيعها الى أوربا ؟

ـ ان مدام ريكيه هنا ، تسال عنك .
ـ آه ، حسنا . على الأقل ليس هو زوجها .
وتناول غلاف الرسالة قائلا :
ـ هل رأيت ؟ انها عرفت حتى رقم صندوق البريد . ياله من صبر ! لابد أنها كتبت للرئاسة عندكم .
ـ من هى ؟
ـ كانت يوما خليلتى . وقد تركتها منذ ثلاثة اشهر . يالها من مسكينة ، وان كان هذا نفاقا منى ، فاننى لا اشعر حيالها باى رثاء . انا آسف يا ابى ، فلم يكن قصدى ان اعرضك للجرح .
ـ لم تحرجنى . وانما مدام ريكيه هى التى أحرجتنى . انهـا احضرت لنا برميلين من الزيت وتريد ان تكلمك .
ـ هل انا أستحق كل هذا ؟
ـ ان زوجها هو الذى ارسلها .
ـ هل هذه هى العادة هنا ؟ قل لها اننى غير مهتم .
ـ ان المسكينة لم تفعل اكثر من ان جاءتك بدعوة . الا يمـكنك ان تقابلها وتشكرها وتعتذر ؟ انها نصف خائفة من أن ترجع الا اذا استطاعت أن تقول انها تكلمت معك . لعلك خائف منها ؟
ـ ربما . بكيفية ما .
ـ سامحنى يامسيو كيرى اذا قلت هذا ، لكنك لاتثير فى نفسى الاحساس بانك الرجل الذى يخاف من النساء .
ـ الم تصادف قط يا ابى مجذوما يخاف من ضرب اصابعه وهو يعرف انها لم تعد تؤلمه ؟
ـ لقد عرفت رجالا يطربون لعودة الاحساس اليهم ـ حتى بالألم لكن لابد لك أن تهيىء الفرصة الى الالم لكى يعود .
ـ ان عودة الالم كالسراب . سل المشوهين المبتورى الأصابع . لا باس يا ابى ، دعها تدخل . ان هذا أفضل كثيرا من رؤية زوجهـا المنكود على اى حال .
فتح رئيس الرهبان الباب ، واذا الفتاة واقفة فى المدخل ، فى وقدة الشمس ، وقد فوجئت فاغرة الفم كشخص فاجأته عدسـة الكاميرا فى ملهى ليلى وهو يتطلع فى الوميض متقلص السحنة بالم مسخ صورته . ولم تلبث ان دارت على عقبيها بعنف وابتعدت الى حيث كانت سيارتها مرابطة ، وسمعا صوت محاولاتها المتعثرة وهى تدير المحرك . فتبعها رئيس الرهبان ، ولكن مسيرة من النسـاء

العائدات من السوق اعترضت طريقه واخرته ... فهرول قليلا فى اثر السيارة والسيجار فى فمه وقبعته الشمسية مائلة الى جانب ، ولكنها ابتعدت بالسيارة تحت المدخل المقوس الذى يحمل اسم مستعمرة الجذام ، وخادمها الصغير يراقب حركاته الغريبة من نافذة السيارة الجانبية . فعاد أدراجه يعرج لأنه تعثر فى اصبع قدمه ، وقال :

ــ طفلة حمقاء ! لماذا لم تبق فى غرفتى ؟ كان من الممكن أن تمضى الليلة مع الراهبات . كل ما ارجو هو أن يكون خادمها شخصا يمكن الاعتماد عليه .

ــ هل تظن انها سمعت كلامى ؟

ــ سمعت بالطبع . انك لم تخفض صوتك عندما تكلمت عن ريكيه اذا كنت تحب رجلا فليس مما يسر أن تسمع الى اى حد هو محل النفور ...

ــ وأسوأ من هذا يا ابى ان كنت لا تحبه بتاتا .

ــ انها تحبه بالطبع ، فهو زوجها .

ــ ان الحب يا ابى ليس احدى الخصائص العامة الملازمة للزواج .

فقال رئيس الرهبان باصرار :

ــ انها زوجة شابة صالحة جدا .

ــ نعم يا ابى . ويالها من صحراء تلك التى تعيش فيها هنا نائية وحيدة مع ذلك الرجل .

ونظر الى الرسالة الملقاة على مكتبه والى تلك العبارة الختامية : « كلى لك » التى يخفى بها بعض الناس مشاعرهم الحقيقية فى الوقت الذى يضحون فيه بغيرهم ــ وبدا له أن الانسان قد يستطيع رغم ذلك أن يستشعر انعكاس الم الغير حتى لو توقف هو عن الإحساس بالمه الذاتى . ومالبث أن وضع الرسالة فى جيبه ، فمن الانصاف على الأقل أن يستشعر احتكاك الورق ، ان لم يستشعر شيئا آخر ، وقال معقبا :

ــ انهم انتزعوها مسافة طويلة من مكان عزيز عليها ــ من (بنكازى)

ــ وماهو (بنكازى) هذا ؟

ــ لا اعرف ــ ربما كان رمزا لحفلة راقصة فى بيت صديق ، او شابا وسيما طيب القلب ، او الذهاب الى القداس يوم الأحد مع العائلة ، او النوم الهانىء فى فراش مفرد .

ــ ان الناس لابد أن يكبروا . اننا مطالبون بتكاليف أكثر تشابكا

واكبر مسئولية من مجرد هذه البسائط .
ـ أحق أن علينا هذا ؟
ـ « عندما تكون أطفالا فاننا نفكر كالأطفال » .
ـ لن أستطيع أن اجاريك فيما تقتبس من أحكام يا أبي . لكن من المؤكد أن هناك حكمة في ان نبقى اطفالا اذا أريد أن ... اننا نكبر بصورة أقرب الى الالتواء . أن تعقيدات وجودنا قد أضحت أشد تعقيدا .
ـ ان معظمنا يخلق هذه التعقيدات لنفسه يامسيو كيري . ثم لماذا هذه المرارة ؟ أظن انك قلت أنه لم يعد لك أهتمام باى شيء ؟
ـ ليس لى فعلا . انني وصلت الى حالة العدم . ولهذا لا أحب ان انظر الى الماضي .
قال هذا وقد شعر بحفيف الرسالة في جيبه عندما تململ فى مكانه .
ـ ان الندم نوع من الراحة والتسرية .
ـ أراك تحاول أن تنسب كل الفضائل الى دائرتك يا أبي . انني أعتقد أن انسان الكهف كانت تبكيه دموع غيره . بغض النظر عن كل اعتبار ، سوف يبقى هناك دائما انسان ساذج يغطى جسد غيره بجسده لكى يمده بالحرارة ساعة أخرى من عمره .
ـ هل تؤمن بهذا ؟ لكننى أتذكر انك قلت مرة انك عصي على الحب .
ـ انا هكذا فعلا ، والمؤلم فى الموضوع أن جسدى هو الذى سوف يغطيه جسد آخر . امرأة على وجه التأكيد . انهن شغوفات بكل ماهو ميت ذاهب . انهن حريصات على الاعتزاز بالتذكارات .
أطفأ رئيس الرهبان عقب سيجارة ثم أشعل سيجارا آخر وهو يتحرك شطر الباب . فناداه كيرى قائلا :
ـ انني تماديت فى الكلام ، أليس كذلك ؟
ثم أردف وهو يلطم المنضدة بيده اهتياجا :
ـ ابعد عنى تلك الفتاة هي ودموعها اللعينة !
وبعد انصراف رئيس الرهبان نادى كيرى تابعه ديوجراتياس . فجاء الرجل يدب على قدميه المبتورتي الاصابع . ونظر فى اناء غسل اليدين ليرى أن كان يراد تفريغه ، فقال له كيرى :
ـ ليس هذا ما أريد . اجلس . أريد أن أسألك عن شيء .
فوضع الرجل عصاه وجلس القرفصاء على الأرض . ان عملية

الجلوس ذاتها كانت مسيرة لمن هو بغير أصابع يديه وقدميه . فاشعل كيري سيجارة ودسها في فم الشاب ، وقال له :

ـ في المرة الآتية اذا حاولت الابتعاد من هنا ، هلا أخذتني معك ؟

لم يحر الرجل جوابا . فقال كيري :

ـ لا . لا لزوم للرد. بالطبع لن تفعل هذا. قل لي يادبوجراتياس كيف كانت طبيعة المياه في الغابة ؟ مثل مياه النهر العظيم هناك ؟

هز الرجل راسه . فقال كيري :

ـ مثل مياه البحيرة في بيكورو ؟

ـ لا .

ـ كيف كانت طبيعة الماء يادبوجراتياس ؟

ـ انه ماء سقط من السماء .

ـ شلال ؟

لكن هذا المدلول لم يكن له معنى عند ديوجراتياس في هذا الاقليم المسطح الذي يجري فيه النهر سويا بين الغابات المتكاثفة .

عاد كيري يقول :

ـ لقد كنت طفلا في تلك الأيام محمولا على ظهر امك . هل كان هناك اطفال كثيرون غيرك ؟

فهز الشاب راسه . فقال كيري :

ـ قل لي ماذا كان يحدث حولكم ؟

فلم يزد ديوجراتياس عن قوله :

ـ كنا سعداء .

القسم الرابع

الفصل الأول

(١)

جلس كيرى ودكتور كولين على درجات سلالم المستشفى فى بكرة الصباح الرطيب . كان كل عمود يلقى ظلا ، وفى كل ظـل جلس القرفصاء مريض . وفيما وراء الطريق وقف رئيس الرهبان لدى المذبح يرتل القداس ، اذ كان الوقت صباح يوم الأحـــد . وكان للكنيسة جوانب مفتوحة ، فيما عدا قواطع شبكية من الآجر لكسر اشعة الشمس ، وهكذا كان بوسع كيرى وكولين مراقبة جمهـور المصلين وقد جلست الراهبات على مقاعد في الصف الأمامي وجلس خلفهن المجذومون على دكك مستطيلة مرفوعة عن الأرض بقدر قدم ، مبنية من الأحجار التى يمكن تطهيرها بأتم واسرع من الخشب .

وعن كثب من الطبيب على درجة السلالم العليا جلس رجل كهل مصاب بالدوالى المتضخمة ، فعلق كيرى على حالته قائلا :

ــ هل صحيح انه يستحيل اجراء عملية جراحية له ؟

ــ انها مخاطرة شديدة . ان قلبه لايتحمل التخدير .

ــ هل قضى عليه اذن أن يحمل هذه الدوالى معه طول حياته حتى الموت ؟

ــ نعم . انها ليست ثقيلة بالقدر الذى تتصوره . لكن يبدو انه ليس من العدل ان يقاسى هذا المرض والجذام ايضا .

وصمت الطبيب برهة ثم اردف قائلا :

ــ فى يوم من الأيام سوف أنتزع بعض المال من بعض النـــاس واشترى بعض مقاعد ذات عجلات تصنع خصيصا للحالات المرضية المستعصية . ان هذا العجوز سيحتاج بالطبع الى مقعد متحرك له مواصفات خاصة . فهل يتفضل مهندس معمارى مشهور متخصص فى بناء الكنائس بعمل تصميم لمقعد من هذا النوع ؟

فأجاب كيري :
ـ سوف ازودك بالتصميم المطلوب .
ووصل الى سمعهما عبر الطريق صوت رئيس الرهبان وهو يلقي موعظته بخليط من الفرنسية واللغة المحلية . فقال الدكتور كولين :
ـ لقد مضى زمان طويل منذ أن استمعت الى موعظته . انها تذكرني بعهد الطفولة . هيا بنا ياكيري قبل أن نتأثر بهذا الكلام الطيب . ليتهم يستطيعون بالمثل تخفيض ثمن الكورتيزون للمرضى هنا ..
فنهضا وسارا شطر المستوصف . وقال الدكتور كولين :
ـ ان حياتي هنا ابسط من كل هذا . ان حياتي (روتين) يملأ فراغ نهاري . واعرف أن المريض قد شفي بعد اختبارات الجلد السلبية . وليس هناك حاجة الى اختبارات جلد لما هو صالح بطبيعته . ومادمنا نتكلم عن دوافع الخير ياكيري ، ماهي الدوافع التي حفزتك الى متابعة خادمك الى قلب الغابة ؟
ـ الفضول . الكبرياء . لكن لا اثر فيها لمواعظ الغير .
فقال كولين :
ـ على اي حال فانك تتكلم دائما كما لو كنت فقدت شيئا عزيزا كنت تحبه . اما انا فليس هذا شاني . انني كنت دائما اكن المودة لاخواني من بني الانسان . ان المودة اسلم كثيرا من الحب . انها لا تتطلب ضحايا . من ضحيتك ياكيري ؟
ـ لا ضحايا لي الآن . انا في أمان .
ثم اضاف قائلا بلهجة لاتشف عن تمام اليقين :
ـ انني شفيته ياكولين .

(٢)

تناول الأب بول نصيبه من طبق الجبن المخفوق بالبيض وصب لنفسه كوبا من الماء لمعاونته على ازدراده ، ثم قال :
ـ ان كيري سيتناول غداءه اليوم مع الطبيب خروجا على عادته . الا يمكن اقناع الاخوات بتنويع (طبق اليوم) ؟ ان يوم الأحد على كل حال هو يوم عيد .
فرد رئيس الرهبان قائلا :
ـ ان قصدهن هو تقديم صنف ممتاز لنا ، لاعتقادهن اننا نتطلع اليه طول الاسبوع. ولا احب ان اخدش احساس الاخوات الطيبات.
كانت عمليات طهي طعام الرهبان تتولاها الراهبات ، وكان الطعام

ينقل الى مقرهم مسافة ربع ميل فى الشمس . ولم يتبادر الى اذهان الراهبات قط ان هذه العملية ذاتها كفيلة بافساد (الجبن المخفوق بالبيض) ، و « العجة » وكذلك القهوة التى تقدم بعد العشاء .

وقال الأب توماس معقبا :

ـ لا اظن ان مسيو كيرى يهتم كثيرا بمسالة الطعام ..

كان الأب توماس هو الراهب الوحيد فى مستعمرة الجذام الذى يثير قلق رئيس الرهبان ، لما كان يبدو من تعلقه بشبابه وحياته قبل الرهبنة . وقد رد عليه بعبارة أراد بها ابعاد الحديث عن المسار الذى يريد الأب توماس متابعته ، قائلا :

ـ نعم . ان مسيو كيرى ضيف طيب مريح .

فقال الأب توماس وهو يجاهد لاستعادة المسار الذى يريده :

ـ هو رجل ممتاز .

وقال رئيس الرهبان موجها حديثه اليهم عموما :

ـ ان عندنا الآن اعتمادات مالية تسمح بشراء مروحة كهربائية لعنبر الولادة .

فقال الأب جان :

ـ وسوف نحتاج ايضا الى اجهزة تكييف فى حجراتنا ، ومحل خردوات وبقالة به قسم لاحدث مجلات السينما بما فى ذلك صور بريجيت باردو .

كان الأب جان طويل القامة شاحب الوجه له لحية تتعثر لتثبيت وجودها . وكان من قبل استاذ لاهوت لامعا قبل انخراطه فى سلك (الأخوية الرهبانية)، وكان يحرص على ابداء شخصية عشاق السينما .

فرد الأب بول قائلا :

ـ اننى افضل بيضة مسلوقة ليوم الأحد .

ولكن الأب جان عاجله قائلا :

ـ لا اظنك تحب البيض غير الطازج مسلوقا .

فقال الأب جوزيف :

ـ ان البيض لن يكون غير طازج لو عرفوا كيف يعنون بالدجاج كما يجب . اننى على استعداد لامدادهم بمساعدى من عمال البناء لاقامة بيوت تفريخ ، ومن السهل تزويدها بالكهرباء من بيت الأخوات .

ولأول مرة تكلم الأخ فيليب . كان يكره ان يتدخل فى الحديث الذى يعده من الأمور الدنيوية ، وقال :

ـ مراوح كهربائية . بيوت تفريخ . احترس يا أبى ، والا حملت

المولدات الكهربائية اكثر من طاقتها .
كان رئيس الرهبان متنبها ، الى ان الأب توماس يتميز غضبا بجان ، فقال له بلباقة :
ـ وحجرة الدراسة الجديدة يا ابى ؟ هل بها كل مايلزم ؟
ـ بها كل شيء سوى المعلم الصالح الذى يعرف مبادىء العقيدة .
ـ لاباس بها مادام يمكننا تعليم الحروف الأبجدية .
ـ كنت أعتقد ان التلقين الدينى الصحيح أهم من تعليم الحروف الابجدية .
وعندئذ خف الأب جان الى نجدة رئيس الرهبان قائلا :
ـ ان ريكيه تكلم بالتليفون هذا الصباح .
ـ وماذا كان يريد ؟
ـ كان يطلب كيرى بالطبع . قال ان عنده رسالة يريد تبليغها ـ شيء ما بخصوص رجل انجليزى ، لكنه رفض ابلاغ الرسالة . لقد هدد بانه سيحضر الى هنا قريبا ، حالما تصبح المعديات صالحة من جديد . وقد سألته ان كان يمكنه ان يجيء لى ببعض مجلات السينما لكنه قال انه لايقرأها . كما انه يريد استعارة مؤلف الأب (كاريجو ـ لاجرانى) عن مذهب القضاء والقدر .
فقال رئيس الرهبان بلهجة مخففة :
ـ هناك لحظات أكاد أندم فيها على مجيء مسيو كيرى الينا .
فرد عليه الأب توماس قائلا :
ـ بل يجب ان نغتبط حقيقة بأية مضايقات يسيرة قد يسببها لنا . اننا لا نحيا هنا حياة متعبة جدا .
ان قطعة الجبن المخفوق بالبيض التى أخذها ظلت كما هى فى صحفته لم يذقها . وقد كور لقمة من الخبز وشفعها فى فمه بالماء كأنها قرص ، وقال :
ـ لا يمكن أن نتوقع من الناس أن يتركونا وشأننا مادام كيرى هنا . المسألة ليست فقط انه رجل مشهور ، بل هو أيضا رجل عميق الوجدان والايمان . .
فقال الأب بول :
ـ انني لم الاحظ هذا . انه لم يحضر القداس هذا الصباح .
اشعل رئيس الرهبان سيجارا آخر ، بينما رد الأب توماس قائلا :
ـ بل انه حضر . بوسعى أن أقول ان عينيه لم تفارقا المذبح . لقد اتخذ مجلسه وراء الطريق بين المرضى . هذا أسلوب طيب فى

حضور القداس مثل الجلوس فى الصف الأمامى وظهر الانسان الى المجذومين ، اليس كذلك ؟

فتح الأب بول فمه للرد ، ولكن رئيس الرهبان استوقفه بغمزة من عينه ، ووضع السيجار على حافة طبقه ثم نهض لترديد صلاة الشكر ، وبعد أن فرغ تناول السيجار مرة اخرى قائلا :

ــ يا اب توماس . ايمكن أن آخذ دقيقة من وقتك ؟

وتقدم الأب توماس الى غرفته واجلسه فى المقعد الوثير الوحيد المخصص للزائرين قرب خزانة الملفات . وكان الاب توماس يراقبه متوترا وقد جلس فى مكانه مستقيما متصلبا مثل افعى كوبرا تراقب نمرا .

قال له رئيس الرهبان :

ــ هل لك فى سيجار يا ابى ؟

ــ انت تعرف اننى لا ادخن .

ــ طبعا . انا آسف . كنت افكر فى شخص آخر . هل مقعدك هذا مريح ؟ أخشى ان تكون زنبركاته قد تخلخلت . من السخف ان تكون لنا مقاعد بزنبركات فى مثل هذه المناطق الاستوائية ، لكن المقعد قدم لنا هدية مع كثير من (الخردة) .

ــ هو مريح جدا . شكرا لك .

ــ انا آسف اذا كنت لا تجد طريقة التلقين الدينى مرضية . ليس من السهل أن نجد المدرس المطلوب بعد أن أصبح عندنا ثلاثة فصول لتعليم الأولاد . يبدو أن الراهبات يعالجن هذه المشكلة افضل منا .

ــ هذا فقط اذا اعتبرت مارى اكيمبو مدرسة صالحة .

ــ انها تعمل بجد كبير كما علمت من الأم اجنيس .

ــ بالتأكيد ، اذا اعتبرت ان انجابها كل سنة طفلا من زوج جديد هو من العمل بجد . لا أظن انه من الصواب ان يسمح لها بالتدريس وطفلها فى مهده بالفصل . انها حامل مرة اخرى . أى نوع من القدوة هذا ؟

ــ آه . انت تعرف ان لكل بلد عاداته . نحن هنا يا ابى للمساعدة لا للادانة ، ولا اظن انه يمكن تعليم الاخوات أصول العمل . ولابد ان تتذكر ان الأطفال هنا ينتمون الى الأم ، وربما كانوا لهذا السبب يفضلوننا عن البروتستانت .

وتمهل رئيس الرهبان برهة لاختيار كلماته ، ثم اضاف :

ـ دعنى افكر يا ابى . لقد مضى عليك معنا اكثر من سنتين ؟
ـ سنتان فى الشهر القادم .
ـ انت لا تأكل بما فيه الكفاية . ان ذلك الجبن المخفوق بالبيض لم يكن سائغا تماما ...
ـ لا اعتراض لى على الجبن المخفوق بالبيض . لقد تصادف اننى صائم لقصد خاص .
ـ بالطبع بموافقة الكاهن الذى يتلقى اعترافك .
ـ لم يكن هذا لازما من اجل صيام يوم واحد يا ابى .
ـ كان يوم الجبن المخفوق بالبيض اذن يوما مناسبا تختاره لهذا الغرض ، لكنك تعرف ان الطقس هنا صعب جدا على الاوربيين ، خصوصا فى البداية . وفى الوقت الذى تنتهى فيه مدة بقائنا هنا لست سنوات ، نصبح وقد تعودناه ، اننى احيانا اجزع من العودة الى بلادنا . وفى السنوات الاولى ، لا لزوم لكى يتحامل الانسان على نفسه :
ـ لا اشعر اننى اتحامل على نفسى بغير موجب يا ابى .
ـ ان واجبنا الاول ، كما تعرف ، هو ان نستمر فى البقاء ، حتى لو كان معنى هذا ان نأخذ الامور ببساطة اكثر . عندك يا ابى قدر كبير من روح التضحية بالذات . انها صفة رائعة ، لكنها ليست دائما هى مايلزم فى ميدان المعركة . ان الجندى الصالح لا يسعى الى الموت .
ـ اننى لا اعهد فى نفسى ان ...
ـ اننا كلنا لدينا احيانا شعور بالاحباط . فى حالة مارى اكيمبو المسكينة ، لا مفر لنا ان نتقبل ماهو متاح لنا على علاته . ولست واثقا اننى سأجد اناسا من معدن افضل من هذا فى بعض ابرشيات ليبج فى بلادنا ، وان خطر لى احيانا انك قد تكون هناك اسعد منك هنا . ان ارساليتنا هذه ليست لكل انسان . واذا شعر اى انسان انه غير منسجم مع وجوده هنا ، فلا يعتبر هزيمة له ان يطلب نقله . هل تنام جيدا يا ابى ؟
ـ اننى انام بما فيه الكفاية .
ـ قد يحسن ان تعرض نفسك على الدكتور كولين لاجراء فحص عام . احيانا يكون لقرص الدواء مفعوله العجيب اذا اخذ فى الوقت المناسب .
ـ يا ابى ، لماذا انت متحامل على مسيو كيرى الى هذا الحد ؟

ـ ارجو الا اكون كذلك . أنا لا أعرف أنني كما تقول .
ـ اى رجل آخر فى مكانته ـ وهو رجل له شهرة عالمية يا ابى ، حتى وان كان الأب بول لم يسمع عنه ـ يمكن أن يدفن نفسه هنا للمساعدة فى اقامة المستشفى ؟
ـ اننى لا افتش عن الدوافع يا اب توماس . واننى اتقبل مايفعله بالامتنان .
ـ أما انا فافتش عن الدوافع . اننى تكلمت مع ديوجراتياس . ياليتنى كنت استطيع ان افعل مافعله كيرى ، اذ خرج الى صميم الغابة ليلا بحثا عن خادم ، لكننى اشك ..
ـ هل تخاف الظلام ؟
ـ لا يخجلنى ان اقول هذا .
ـ اذن فان المسألة كانت تتطلب شجاعة اكثر فى حالتك . لايزال على ان ابحث عما يفزع مسيو كيرى .
ـ حسنا . اليس مافعله عملا بطوليا ؟
ـ آه ، لا . اننى يقلقنى الرجل الذى لايخاف كما يقلقنى الرجل الذى لا قلب له . ان الخوف ينقذنا من اشياء كثيرة وليس معنى هذا بالطبع أن مسيو كيرى ...
ـ هل يبدو الانسان يعوزه القلب اذا قام بجانب تابعه طول الليل ، مصليا من اجله ؟
ـ اعرف أنهم يقولون هذه القصة فى المدينة ، لكن هل صلى فعلا ؟ ليس هذا هو ما ذكره مسيو كيرى للطبيب .
ـ اننى سألت ديوجراتياس فى هذا ، فاجاب بالايجاب .
ـ ربما كان الرد بالايجاب من قبيل المجاملة والتأدب لا اكثر ، كما هى العادة عند الكثيرين . مهما يكن فاننى استطيع ان افهم لماذا انت متعلق بكيرى . كلاكما انسان متطرف . لكن من الأفضل فى مجرى حياتنا هذه الا يكون بيننا ابطال ـ ابطال احياء وهو ما اعنيه . علينا ان نكتفى بالقديسين فى نطاق حياتنا .
ـ لعلك لا تقصد انه لا يوجد قديسون احياء ؟
ـ طبعا لا . لكن دعنا لا نعترف بهم قبل ان يعترف بهم مذاهبنا . بهذه الكيفية سوف نقى نفوسنا كثيرا من خيبة الأمل .

(٣)

وقف الأب توماس قرب باب غرفته المشبك يحدق من خلال الشبكة السلكية الى طريق مستعمرة الجذام المشجر القليل الاضاءة . ومن

خلفه كان لهيب الشمعة التي أعدها فوق الخوان يرسل ضوءا مصفرا أسفل المصباح الكهربائي العاري ، فبعد خمس دقائق سوف تطفأ كافة الانوار . وكانت هذه هي اللحظة التي يخشاها . ان الصلوات لم تكد تنجح في ابراء ظلماته . وقد أيقظت كلمات رئيس الرهبان في نفسه من جديد حنينه الى أوربا . ان (لييج) قد تكون مدينة كريهة وقاسية ، لكن لم تكن تمضي ساعة من ليلها ، دون أن يبصر الانسان اذا رفع ستار نافذته ضوءا يبرق في جانب الشارع المواجه ، أو ربما عابر سبيل عائدا الى بنيته متأخرا . أما هنا ، في الساعة العاشرة ، عندما توقف المولدات الكهربائية عن العمل ، فان ذلك يقتضي الانسان ذخيرة من الايمان لكي يطمئن الى أن الغابة لم تزحف على الانسان حتى عتبة غرفته . وأحيانا كان يخيل اليه انه يسمع حفيف الأوراق ترتطم بشبكة الوقاية من البعوض . ثم نظر الى ساعته ــ بقيت أربع دقائق .

لقد اعترف لرئيس الرهبان انه يخاف الظلام . لكن رئيس الرهبان نحى خوفه وكأنه لا وزن له . وشعر بحنين غلاب لكي يكاشف بما يعتمل في نفسه ، لكن كان مستحيلا أن يكاشف أحدا من أبناء طائفته . استحالة مكاشفة الجندي لجندي مثله والاعتراف بجبنه . لم يكن بوسعه أن يقول لرئيس الرهبان : « كل ليلة أبتهل لكيلا استدعى الى جانب انسان يقضي نحبه في المستشفى أو في مطبخه ، ولكي لا أضطر الى اضاءة مصباح دراجتي وأسري بها خلال الظلام » . منذ أسابيع قليلة مات رجل كهل على هذه الصورة ، لكن كان الأب جوزيف هو الذي خرج لكي يجد جثة الميت حيث كان جالسا في كرسي المركب البالي وقد استقرت في حجره تعويذة الاله (نزامبي) وحول رقبته ايقونة مقدسة . وقد اضطر الأب الى منحه غفرانا جزئيا في ضوء مصباح الدراجة لعدم العثور على شمعة عن كثب .

كان يعتقد ان رئيس الرهبان ينقم منه ما يبديه من اعجاب بكيري . وبدا له أن رفاقه يمضون حياتهم في شواغل يسيرة يتناقشون فيها في يسر وبساطة ــ مثل أسعار حمامات القدم ، أو عطل يطرأ على المولد الكهربائي ، أو عائق في أتون حرق الآجر ، أما الأشياء التي تقلقه فما كان بوسعه أن يناقشها مع أحد . كان يحسد الرجل المتزوج ، لهانيء الذي يجد بين يديه صفيا يفضي اليه بنجواه في الفراش وفي البيت ، أما الأب توماس فليس له أن يناجي أو يكاشف الا في حدود الاعتراف . وهكذا كان الأب توماس يهتف

لنفسه صامتا كلما انطفأت الأنوار وتوقف عمل المولدات الكهربائية :
« اريد ان اتكلم . اريد ان اتكلم » .
وفيما هو كذلك اذ سمع صوت قادم في الشرفة في الظلام . وقد مرت الخطوات بحجرة الأب بول ، وكان يمكن ان تمضي مارة بحجرته لولا ان نادى قائلا :
ــ أهذا انت يامسيو كيرى ؟
ــ نعم .
ــ الا تدخل عندي لحظة ؟
فتح كيرى الباب ودخل الى نطاق اشعاع الشمعة اليسير ، وقال :
ــ انني كنت أشرح لرئيس الرهبان الفرق بين (البيديه) وحمام القدم .
ــ هلا تفضلت بالجلوس ؟ لايمكنني النوم قط مبكرا هكذا ، ونظرى لا يقوى على القراءة في ضوء الشمعة .
على هذا النحو وفي عبارة واحدة افضى الى كيرى باكثر مما تهيأ له أن يفضي به الى رئيس الرهبان ، اذ كان يعلم أن الرئيس كان يبادر حتما الى اعطائه (بطارية) واذنا بالقراءة الى أطول مدى يحب بعد انطفاء الأنوار ، بيد ان مثل هذا الاذن كان حقيقا بأن يسترعي الأنظار.
والتمس كيرى مقعدا ، فلم يكن ثمة أكثر من مقعد واحد ، واخذ الأب توماس يزيح (الناموسية) عن الفراش لكي يجلس .
فقال كيرى :
ــ لماذا لا تأتي الى غرفتي ؟ عندي بعض الويسكى هناك .
فقال الاب توماس :
ــ انا اليوم صائم . ارجو ان تجلس في المقعد . سأجلس هنا . ارجو ان تكون سعيدا بيننا .
ــ كل انسان كان رقيقا جدا معي .
ــ أنت اول زائر اقام هنا منذ مجيئي .
ــ أهكذا ؟
فقال الأب توماس وهو يضحك ضحكة عصبية .
ــ الانسان بحاجة الى وقت لكي يستقر في مكان كهذا . لست متأكدا انني شخصيا وصلت الى درجة الاستقرار .
ــ بوسعي أن أفهم هذا .
قال كيرى هذا الكلام بلهجة آلية لعجزه عن أن يقول كلاما افضل ،

ولكن هذه العبارة المسكنة قد ازدردها الأب توماس كخمر ، وقال :
ـ نعم . انت واسع الفهم . أحيانا اظن أن الرجل العلماني اقدر على الفهم من غيره .
واضاف قائلا :
ـ وأحيانا أوفر ايمانا .
فقال كيري :
ـ مؤكد أن هذا غير صحيح في حالتي .
فقال الأب توماس وكأنما يمن على كيري بشيء ثمين سيطوقه بدين الى الأبد :
ـ انني لم اقل هذا لاحد غيرك . انني عندما انهيت دراستي في معهد اللاهوت كنت اظن أحيانا انه بالاستشهاد وحده أستطيع بلوغ درجة الخلاص ـ لو امكن ان اموت قبلما أفقد كل شيء .
فقال كيري :
ـ الانسان لايموت هكذا .
ـ انني كنت أريد ان أذهب الى الشرق الأقصى، لكنهم لم يقبلوني.
فقال كيري وهو يرسل ردوده على نحو سريع وآلي وكأنما يوزع اوراق لعب :
ـ ان عملك هنا لابد أن يكون قيما بالمثل .
ـ في تعليم الحروف الأبجدية ؟
قال الأب توماس هذا متململا في مكانه ، فسقطت كلة (الناموسية) على وجهه كخمار عروس او شبكة نحال . ولما نحاها عنه سقطت مرة ثانية وكأنه حتى الجماد له من الوعي ما يعرف به اللحظة الملائمة لتعذيبه .
فقال كيري :
ـ لا باس . حان الوقت للنوم .
ـ انا آسف . اعرف أنني أؤخرك ، واتعبك .
فقال كيري :
ـ العفو . وفضلا عن هذا فنومي مضطرب .
ـ أهذا حالك ؟ هو الحر . انا شخصيا لايمكنني أن انام اكثر من ساعات قليلة .
ـ بامكاني أن اعطيك بعض الأقراص .
ـ آه ، لا ، لا . أشكرك . لابد أن اكيف نفسي بطريقة ما . هذا هو المكان الذي جئت اليه بمشيئة الله .

ـ انك تطوعت بالتأكيد ؟
ـ بالطبع ، لكن لو لم تكن مشيئته ...
ـ ربما كانت مشيئته ان تأخذ منوما. دعنيابحث لك عن قرص.
ـ انما يجدينى اكثر من هذا كثيرا ان اتحدث اليك قليلا . انت تعرف ان الانسان هنا لا يتحدث ـ فى أى شأن له اهميته . ارجو الا اكون معطلا لك عن عملك ؟
ـ لا يمكننى العمل فى ضوء الشمعة .
ـ سأخلى سبيلك حالا .

قال الأب توماس هذا وهو يبتسم ابتسامة وانية ، ثم اخلد الى الصمت مرة اخرى ، ان الغابة قد تكون بسبيلها الى ان تحدق وتطبق عليه ، لكنه ظفر ولو مرة برفيق . اما كيرى فقد جلس ينتظر وقد شبك يديه بين ركبتيه . وطنت بعوضة قرب لهب الشمعة ، وشعر الأب توماس برغبة خطرة للافضاء والمكاشفة تشتد فى عقله وتضغط كضغط شهوة جامحة ، فقال :

ـ لا يمكن ان تفهم الى اى حد يحتاج الانسان الى مايدعم ايمانه بالتحدث الى انسان يؤمن . فقال كيرى :
ـ عندك الآباء . فقال الأب توماس :
ـ انهم يتكلمون فقط عن المولد الكهربائى والمدارس . واحيانا افكر اننى لو بقيت هنا فسأفقد ايمانى تماما . ايمكنك أن تفهم هذا ؟
ـ آه ، نعم ، بامكانى ان افهم هذا . لكن اظن ان الأولى لك ان تتحدث فى هذا مع من يتلقى اعترافك ، لا معى .
ـ ان ديوجراتياس تحدث معك ، أليس كذلك ؟
ـ هو ذاك . قليلا .
ـ انك تحمل الناس على الكلام . ان ريكيه ...

فقال كيرى وهو يتململ فى مقعده الصلب :
ـ معاذ الله . ثم ان ماقد اقوله لك لايمكن أن يساعدك على الاطلاق . يجب أن تصدقنى . انا لست من أهل الايمان .

فقال الأب توماس :
ـ أنت من أهل التواضع . لقد لاحظنا جميعا هذا .
ـ لو عرفت مدى كبريائى ...
ـ الكبرياء التى تبنىالكنائس والمستشفيات ليستكبرياء منكرة.
ـ يجب الا تستعين بى يا أبى لتدعم ايمانك . سأكون فيه بمثابة الموضع الضعيف . لا اريد ان اقول شيئا يمكن أن يثير فيك قلقا

اكثر ـ لكن لاشيء عندي لك ـ لا شيء . بل لا يمكنني ان اقول حتى انني كاثوليكي الا اذا كنت في الجيش او في السجن .

فقال الأب توماس :

ـ كل منا له شكوكه . وربما كنت اكثر منك .

ـ انني توقفت منذ زمن طويل عن التشكك . ان كان لابد ان اتكلم بوضوح يا ابي ، قلت لك انني لا اؤمن بشيء . هذا اسلوب استخلصته لنفسي . ولا رغبة لي في ان احول الآخرين الى مذهبي ، ولا حتى ان اثير قلقهم . انني فقط اريد ان ابقي فمي مطبقا .

فقال الأب توماس بانفعال :

ـ لا يمكنك أن تتصور كم اجدى حديثك في نفسي . لا يوجد أحد هنا . يمكنني ان اتحدث اليه كما نتحدث الآن . احيانا يحتاج الانسان حاجة ماسة الى رجل لابس مثل الضعف الذي لابسته .

ـ لكنك أسأت فهمي يا أبي .

ـ الا ترى انك أوتيت خصيصة لم يؤتها غيرك ؟ بل ربما كنت الآن تسلك مسالك قديس .

فقال كيري مومئا بيديه ايماءة تشف عن الحيرة او الاستنكار :

ـ انت أبعد ماتكون بقولك هذا عن الحقيقة .

فقال الأب توماس :

ـ انني راقبتك وأنت هنا . بوسعي أن احكم على أفعال الانسان .

ومال الى الأمام نحو كيري حتى استطاع ان يشم رائحة المستحضر الذي يستعمله الأب توماس ضد لدغ البعوض ، وأردف قائلا :

ـ لأول مرة منذ ان جئت الى هذا المكان ، اشعر ان بامكاني ان اكون ذا نفع . اذا شعرت يوما بحاجة الى الاعتراف ، فتذكر دائما انني هنا . فقال كيري :

ـ ان الاعتراف الوحيد الذي يحتمل ان ادلي به ، سوف يكون امام قاضي التحقيق .

ـ ها ها .

وعقل الأب توماس ضحكته في الهواء كما لو كانت شيئا محظورا ، وقال :

ـ عن تلك الشكوك التي تساورك . بوسعي أن أؤكد لك انني اعرفها كذلك . لكن الا يمكننا ان نتداول معا في الجوانب الفلسفية ... لكي يعين احدنا الآخر ؟

ـ لن ، يعينني هذا يا أبي . ان اي طالب مبتدىء يمكنه دحضها ،

وعلى اى حال فانا في غير حاجة الى أى عون . لا أريد ان اكون فظا معك يا ابى ، لكننى شفيت من كل هذا .

ـ اذن لماذا استمد منك احساسا بالايمان أكثر مما استمده من اى احد هنا ؟

ـ لأن الايمان ماثل في خاطرك يا ابى . انك تبحث عن الايمان ، واظنك واحدة . لكننى لا ابحث عن شيء . لا اريد اى شيء من الأشياء التي عرفتها واضعتها . ليس في نيتى ان اقول شيئا يؤذى شعورك يا ابى . وماكنت اتردد في مساعدتك لو كان هذا فى طاقتى ومادمت تستشعر الالم لأنك ترتاب ، فواضح انك تستشعر الم الايمان ، وانني ارجو لك التوفيق .

ـ انت تفهمنى حق الفهم ، أليس كذلك ؟

قال الأب توماس عبارته تلك ولم يستطع كيرى أن يقالب ابداء اليأس المكدود الذى انتابه ، بينما استطرد الأب توماس قائلا :

ـ لا تسخط منى . ربما كنت اعرفك أفضل مما تعرف نفسك . اننى لم اجد هنا مثل هذا القدر من الفهم . وربما استطعنا فى ليلة اخرى أن نتحدث مرة أخرى فى مشكلاتنا .

ـ ربما ، لكن ...

ـ وتصلى من اجلى يامسيو كيرى . اننى ساقدر صلواتك .

ـ من قال اننى أصلى ؟

ـ سمعت هذا على لسان ديوجراتياس .

وابتسم الأب توماس ابتسامة متكلفة قائلا :

ـ هناك صلوات داخلية ، صلوات صامتة . بل هناك صلوات لا شعورية اذا صدقت الطوايا . ان خاطرا يتوارد فى نفسك قد يكون كصلاة فى عين الاله . فكر فى بين حين وحين يامسيو كيرى .

ـ بالطبع .

ـ بودى أن أكون معينا لك كما كنت معينا لى .

وتوقف كما لو كان ينتظر رجاء حارا ، ولكن كيرى لم يعد أن رفع يده الى وجهه وازاح عنه الخيوط اللزجة التى تركتها عنكبوت مدلاة بينه وبين الباب . فقال الأب توماس بلهجة كانت كالوعيد :

ـ سوف استسلم للنوم هذه الليلة .

الفصل الثانى

(١)

كان من المقرر أن تصل سفينة الأسقف نحو مرتين فى الشهر وبها اكثر المؤن اللازمة لمستعمرة الجذام ، ولكن كانت تمضى احيانا أسابيع كثيرة دون ان تصل . وكانوا ينتظرونها بصبر كاره ، فلعل ربان سفينة شركة اوتراكو التى تحمل اليهم البريد يزودهم أيضا باخبار منافستها الصغيرة — فربما أصابهــا عطب ، أو جنحت لدى طين الشاطىء ، أو اصطدمت دفتها بجذع شجرة ساقط فى النهــر فالتوت ، أو اصيب ربانها بالحمى ، أو نقل بقرار من الاسقف استاذا للغة اليونانية لعدم ايجاد راهن يحل محله .

ثم كان الوقت غسقا عندما سمع سكان مستعمرة الجذام جرس السفينة التى طال تأخيرها عن موعدها المقرر . وقد بلغ الصوت مسامع كولين وكيرى وهما جالسان يحتســيان الشراب مساء فى شرفة الطبيب ، فقال كولين وهو يفرغ بقية كاسه :

— اخيرا . ليتهم يكونون جاءوا بجهاز اشعة اكس الجديد .

كانت الزهور البيضاء قد تفتحت مع الشفق على طول الطــريق المشجر ، وبدأ اشعال النيران لطهى طعام العشاء ، واخذ الظــلام الرحيم يحل اخيرا ليوارى قبح المشوهين . وقال كيرى مخاطبا كولين :

— هل تعرف أننى سعيد هنا ؟

واطبق فمه اثر هذه العبارة ولكنه بعد ان سبق السيف العزل . لقد افلتت منه فى ثنايا هواء الليل البليل كاعتراف لا سبيل الى نقضه .

(٢)

قال كولين لصاحبه وهو يحاوره :

— اننى اتذكر اليوم الذى جئتنا فيه . كنت تسير فى هذا الطريق

وقد سألتك الى متى تنوى الاقامة هنا . فقلت — هل تتذكر ؟ —
لكن كيرى لزم الصمت ، ورأى كولين انه قد ندم اذا تكلم اطلاقا
وأخذت السفينة البيضاء تتهادى حول منعرج النهر ، وتأهب أحد بحارتها لالقاء حبل على الشاطىء .. وتجمع الآباء بأرديتهم الكهنوتية البيضاء فوق الشرفة كأنهم فراش ، وعندما نظر كولين خلفه رأى وهج سيجار رئيس الرهبان وهو يتبعهم فى الطريق الى مرسى السفينة .

وتوقف كولين وكيرى عند أعلى الشاطىء المنحدر ريثما شد حول السفينة الى اليابسة ومدت اليها (سقالة) ، فقال كولين :

— هذا هو العالم الخارجى الكبير يصل الينا .

— ماذا تعنى ؟

ولوح الربان بيده من نافذة « الصالون » . وشوهد باب قمرة السفينة فوق السطح الضيق مغلقا ، ولكن كان ضوء يسير ينبعث من خلال « الناموسية » . وقال كولين مرة اخرى :

— انت لا تعرف قط ماذا قد تأتينا به السفينة ؟ وعلى اى حال فانها اتت بك انت .

فقال كيرى :

— يبدو أن فيها أحد المسافرين .

ولوح لهما الربان بيده من النافذة يدعوهما للصعود الى سطح السفينة ، وفى هذه اللحظة انضم اليها رئيس الرهبان وصاح بأعلى صوته :

— لقد تأخرت ياكابتن !

فوضع الربان اصبعه على شفتيه حتى قال رئيس الرهبان :

— ياالهى ! هل اقل الأسقف فى سفينته ؟

وتقدمهما الى « السقالة »،فقال كولين لصاحبه وقد آنس تردده :

— انت أولا . سوف تتناول كأسا من الجعة ، كما هى العادة .

ولما لم يتحرك كيرى اضاف رئيس الرهبان قائلا وهو يضع يده تحت ذراع كيرى لمساعدته :

— ان الربان سوف يسر برؤيتك مرة ثانية .

فقال كيرى وهما يتقدمان الى السلم الحديدى المجاور لآلات السفينة :

— ما الذى قلته عن العالم الخارجى ؟ لعلك لا تظن فعلا أن ..؟ ،
وأمسك عن اتمام عبارته وعيناه متجهتان الى « القمرة » التى

مقلها من قبل ، حيث كان لهب الشمعة يتراقص فيها فى تيار هواء النهر . فقال كولين :

ـ كنت أمزح . اننى أسالك ـ هل يبدو فى هذا شىء من مظاهر العالم الخارجى بمعناه المعهود ؟

وعندما وصلا الى قمة السلم حياهما الربان مرحبا ، قائلا :

ـ انت لا تزال هنا باكيرى . يسرنى ان أراك مرة ثانية .

كان يتكلم بصوت خافت وكأنما يفضى بشىء خاص . وكان الشراب معدا فى (الصالون) ، فأغلق الربان بابه ورفع صوته لأول مرة قائلا:

ـ اشرب بسرعة يا دكتور كولين . عندى مريض لك .

ـ احد البحارة ؟

ـ لا . مسافر حقيقى . لم يكن معى أكثر من مسافرين اثنين فى مدى سنتين ، كان أولهما مسيو كيرى ، والآن هـذا الرجل . هو مسافر بالأجر ، لا من عند الآباء .

ـ من هو ؟

فقال الربان مرددا عبارة كولين :

ـ انه قادم من العالم الخارجى الـكبير . كانت مهمتى صعبة ، فهو يتكلم الفلمنكية ، مع قليل من الفرنسية ، وقد زاد هذا من صعوبة المهمة عندنا اصيب بالحمى . كم انا مسرور بوصولى الى هنا اخيرا .

فقال رئيس الرهبان :

ـ لـماذا جاء ؟

ـ وكيف أعرف ؟

ـ هل هو طبيب ؟

ـ مؤكد انه ليس طبيبا ، والا ما أفزعته حمى بسيطة .

فقال كولين :

ـ ربما كان الأفضل أن أراه حالا . أى لغة يتكلم ؟

ـ الانجليزية . اننى جربت معه اللغة اللاتينية . بل اننى حاولت حتى اليونانية ، لـكن دون جدوى .

فقال كيرى مكرها :

ـ امكانى أن اتـكلم الانجليزية .

فقال كولين :

ـ وكيف حال الحمى ؟

ـ هذا اسوأ يوم فيها . وغدا سوف تنتهى .

ــ ومن ابن اركبته ؟

ــ في (لوك) . انه حمل معه خطاب تعريف الى الأسقف ــ من ريكيه كما اظن . انه لم يستطع اللحاق بسفينة اوتراكو .

هبط كولين وكيري الي (قمرة) السفينة . وعندما فتح كولين الباب ابصرا في الفراش المشعث جسدا عاريا لرجل سمين جدا ، وقد امتلأت طيات عنقه الغليظ بالعرق الذي كان يسيل حول استدارة راسه الى الوسادة .

قال كولين :

ــ اظن انه لابد لنا من نقله الى الشاطىء ، اذا وجدت حجرة مستغنى عنها في مساكن الآباء .

ولاح لهما فوق المنضدة كاميرا من نوع (روليفليكس) وآلة كاتبة من نوع (رمنجتون) كانت بها ورقة استهل الرجل الكتابة عليها. وعندما ادنى كيري الشمعة قرا عبارة واحدة بالانجليزية هذا نصها : « تمتد الغابة الأبدية على الضفتين ساكنة لم تتغير منذ ان جاء ستانلي وبعثته الصغيرة » .

ورفع كولين معصم الرجل وجس نبضه قائلا :

ــ الربان على حق . ان الرجل سوف يشفى بعد ايام قليلة . ان هذا النوم علامة نهاية الحمى .

فقال كيري :

ــ اذن لماذا لا يتركونه هنا ؟

ــ هل تعرفه ؟

ــ انني لم اره قط من قبل .

فقال كولين :

ــ بدا لي كأنك خائف . من الصعب ان تعيده في السفينة ، اذا كان قد دفع اجر السفر الى هنا .

واستيقظ الرجل عندما ترك كولين معصمه وقال بالانجليزية :

ــ هل انت الطبيب ؟

ــ نعم . اسمي الدكتور كولين .

ــ انا باركنسون . هل سأموت ؟

فتولى كيري الترجمة قائلا :

ــ يسأل ان كان سيموت ؟

فرد كولين قائلا :

ــ سوف تكون بخير في خلال ايام قليلة .

ـ الحر هنا شنيع .
ثم التفت الى كيرى قائلا :
ـ الحمد لله انه يوجد هنا اخيرا من يتكلم الانجليزية .
وادار نظره الى ناحية الآلة الكاتبة واردف :
ـ هنا مقبرة الجنس الابيض .
فقال له كيرى مصححا بلهجة الجفاء والنفور :
ـ معلوماتك الجغرافية خاطئة . ليست هذه افريقيا الغربية .
ثم ان ستانلى لم يصل الى هنا قط فى رحلته الاستكشافية .
ـ بل وصل . هذا النهر هو نهر الكونغو .
ـ لا . انك تركت نهر الكونغو منذ اسبوع بعد (لوك) .
فقال الرجل بلهجة غامضة :
ـ ان اصحابنا هنـــاك لن يعرفوا الفرق . آه . ان راسى يكاد ينشق !
فقال كيرى للطبيب :
ـ انه يشكو من راسه .
ـ قل له اننا سنعطيه دواء بعد ان ننقله الى الشاطىء . سله ان كان يمكنه ان يمشى حتى مساكن الآباء ؟ ان نقله محمولا شىء رهيب .
فهتف باركنسون :
ـ امشى ! هل تريد أن تقتلنى ؟ سوف تكون هذه قصـــة مثيرة لكل انسان ، الا انا . باركنسون دفن حيث كان ستانلى . . .
فقال كيرى :
ـ قلت لك ان ستانلى لم يصل حتى هنا قط .
ـ لايهمنى وصل او لم يصل . لماذا تتمسك بهذا ؟ يا للحرارة الفظيعة . كان يجب ان تكون هنا مروحة . اذا كان صـــاحبنا هذا طبيبا ، فلماذا لا يذهب بى الى مستشفى مناسب ؟
فقال كيرى :
ـ اشـــك فى انك تحب المستشفى الذى عندنا . هو مخصص للمجذومين .
ـ اذن فـــابقى حيث انا .
ـ ان السفينة ستعود الى (لوك) غدا .
فقال باركنسون :
ـ لايمكننى أن افهم ما يقوله الطبيب . هل هو طبيب ماهر ؟

هل يمكن ان اطمئن اليه ؟

ـ نعم . هو طبيب ماهر .

ـ لكنهم لا يقولون للمرضى ابـــدا مابهم . ان ابى مات وهو يظن انه لم يكن عنده سوى قرحة فى الاثنى عشر .

ـ انك لست فى حالة موت . كل ما عندك هو اصــابة خفيفة بالملاريا . وقد مررت باسوأ مرحلة . وسيكون أيسر لنا جميعــا اذا مشيت معنا الى الشاطىء ، اللهم الا اذا أردت العودة الى (لوك).

فقال باركنسون بلهجة مبهمة :

ـ عندما ابدا مهمة فلابد أن اتمها .

وجفف عرق رقبته باصابعه قائلا :

ـ ان رجلى مثل الزبدة . لابد انني فقدت كثيرا من وزني . ان ما اخشاه هو تأثير هذا الاجهاد على القلب .

قال كيرى مخاطبا كولين :

ـ لا فائدة . لابد لنا من نقله .

ـ سأرى ما يمكن عمله .

وتركهما . وعندما صارا وحدهما قال باركنسون :

ـ هل يمكنك استعمال الكاميرا ؟

ـ بالطبـــع .

ـ مع ضـــــوء (الفلاش) ؟

ـ نعم .

ـ هل تسدى الى معروفا وتلتقط لى بعض الصور وهم يحملوننى الى الشاطىء ؟ اجعل للصورة خلفية شاملة بكل ما يمكنك ـ انت تعرف ما اقصد : صور ابناء المنطقة مجتمعين حولى وعليهم مظاهر القلق والعطف .

ـ ولمــاذا يقلقون ؟

ـ بامكانك تدبير هذا بسهولة . سوف يكون قلقهم اشـــــد اذا أوقعوني على الأرض !

ـ ولأى غرض تريد هذه الصورة ؟

ـ هى النوع الذى يحبونه . والنــاس تعتقد ان الصورة شيء لايشك أحد فى صدقه . هل تعرف انه منذ دخولك الى هنا وكلامى معك ، قد شعرت بتحسن ؟ لعنة الله على هذه الملاريا .

ـ لمــاذا جئت الى هنا ؟

فقال باركنسون :

ـ هل تعرف رجلا يدعى كيرى ؟

بذل الرجل جهدا جهيدا للتحرك الى جانبه . فبدا وجهه الغارق فى العرق فى انعكاس ضوء الشمعة كطريق داسته أقدام كثيرة بعد المطر . وكان كيرى واثقا انه لم يشهد هذا الرجل قط من قبل ، ومع ذلك فقد تذكر قول الدكتور كولين : « ان العالم الكبير الخارجى قد وصل الينا »

سأله : لماذا تريد كيرى ؟

فأجاب باركنسون : ان عملى يتطلب ان اريده . ليست هذه رحلة للنزهة .

فقال كيرى : من أنت ؟

فأدار الرجل وجهه عنه بغير اكتراث ممزوج بالاستياء واطبق عينيه ، وسرعان ما استسلم للنوم من جديد .

وكان الرجل لايزال نائما عندما حمله من السفينة ستة رجال ملفوفا فى قماش مشمع مثل جثمان ميت يوشكون ان يلقوا به الى الاعماق . وقد تعثروا وهم ينقلونه حتى كاد يسقط من ايديهم لولا ان خف كيرى فى اللحظة الأخيرة وحال دون سقوطه باشتراكه فى حمله الى أن جاء رجل آخر وحل محله ، فسار كيرى خلفهم بجانب الأب توماس الذى قال له :

ـ ما كان يجب أن تفعل هذا . عمل كهذا تهور فى مثل سنك . من يكون هذا الرجل ؟

ـ لا أعرف . شخص غريب .

ولحق بهما رئيس الرهبان قائلا :

ـ لا أعرف أين نؤويه . فلا توجد حجرة خالية .

فقال الأب توماس :

ـ دعه يشاركنى حجرتى . بها مكان يسعنا نحن الاثنين .

قال هذا وهو يضغط على ذراع كيرى الذى كان يتأبطه ، وكأنما أراد أن يقول له : « أنا على الأقل قد وعيت درسك فى محبة الغير ومساعدة الناس »

الفصل الثالث

(١)

كان اليوم شديد الحر والرطوبة ، وقد تأثر المرضى أيضا بهذه الحالة حتى كان عدد المترددين على المستوصف قليـلا ، وعندما انصرف الدكتور كولين من المستوصف كان يخامره شيء من التأثم كالذي يخامر جنديا هاربا من ميدان المعركة .

وفي مروره بغرفة كيرى رآه منكبا على لوحـة الرسم . فتابع مسيره ووصل الى غرفة الأب توماس . وكان الأب قد فعل المثل وانكفأ عائدا لقلة الاقبال على الدراسة بسبب شدة الحر . وكان باركنسون جالسا على المقعد الوحيـد في الحجرة مرتديا بنطلون البيجاما فقط ، وكان الأب توماس يتكلم بانفعال عند دخول الدكتور كولين بلغة انجليزية سقيمة ، وسمع اسم (كيرى) يتردد في الحديث ، فقال كولين وهو لايكاد يجد مكانا للوقوف فيما بين السريرين :

ـ هل رأيت يامسيو باركنسون ؟ انك لم تمت . الانسـان لايموت بسبب حمى خفيفة .

فقال باركنسون متجها بالسؤال الى الأب توماس :

ـ ماذا يقول ؟ انني تعبت من عدم الفهم . ما فائدة (الغزو النورماندي) اذا كنا لا نتكلم الآن لغة واحدة ؟

ـ لماذا جاء الى هنا يا أب توماس ؟ هل اكتشفت هذا ؟

ـ انه يسألني أسئلة كثيرة لا حصر لها عن كيرى .

ـ لماذا ؟ ما شأنه به ؟

ـ قال لي انه جاء الى هنا خصيصا للتحدث معه .

ـ اذن فقد كان يحسن صنعا لو انه عاد بنفس البـاخرة لان كيرى لن يتكلم .

فقال باركنسون : كيرى ، نعم كيرى . من الغباوة أن يتظـاهر بالاختفاء . لا يوجد فعلا من يريد الاختفاء من مونتاجو باركنسون .

ـ وماذا قلت له يا أبي ؟
فقال الأب توماس بلهجة المدافع عن نفسه :
ـ لم افعل أكثر من تأكيد ما اضره به ريكيه .
ـ ريكيه ! اذن فقد كان يستمع الى مجموعة اكاذيب .
ـ هل حكاية ديوجراتياس كذب ؟ هل المستشفى الجديد اكذوبة ؟ كل ما ارجو هو أن اكون قد وضعت القصة في وضعها الصحيح .

كانت الآلة الكاتبة موضوعة فوق منضدة الأب توماس ، والكاميرا معلقة على الحائط ، مثل لصين متجاورين . ونظر الدكتور كولين الي الورقة المكتوبة الماثلة في الآلة . كان بوسعه أن يقرأ الانجليزية بأسهل مما يتكلمها ، فقرأ هذا العنوان : « ناسك النهر العظيم » ، فلم يتمالك أن صوب الى الأب توماس نظرة اتهام قائلا :
ـ هل تعرف عن أى شيء هذه الكتابة ؟
فأجاب الأب توماس : هى قصة كيرى .
ـ هذا كلام فارغ !
نظر كولين مرة أخرى الى الصفحة المكتوبة ، وقرأ هذه العبارة : « هذا هو الاسم الذى اطلقه الناس هنا على قادم غريب جاء الى قلب افريقيا » .
التفت كولين الي باركنسون وقال له بالفرنسية :
ـ من أنت ؟
ـ باركنسون . قلت لك هذا قبل الآن .
ثم أضاف مخيب الرجاء :
ـ الا يعنى الاسم شيئا عندك بتاتا ؟
وتابع كولين قراءة الصفحة ، فقرأ ما يلى :
« ثلاثة اسابيع أمضيتها بالسفينة للوصول الى هذا المكان المنعزل، وبعد سبعة أيام صرعتنى لدغات ذباب تسي‌تسي والبعوض. ثم حملوني الى شاطىء فاقد الوعى . وفى حيث شق ستانلى وبعثته الاستكشافية طريقهم مكافحين مناضلين ، تدور معركة كفاح ونضال أخرى ، ضد انتشار مرض الجذام المميت ... وما ان أفقت من الحمى حتى وجدتنى مريضا فى مستشفى للجذام ... » .
قال كولين للأب توماس :
ـ لكن هذه أكاذيب .
فقال باركنسون : مم يشكو ؟

ـ يقول ان ما كتبته هنا .. ليس له حقيقيا .

فقال باركنسون : قل له انه اكثر من حقيقي . هذه صفحة من التاريخ الحديث . ان مقالاتي لابد ان يتذكرها الناس مثل التاريخ. على الاقل من يوم الأحد الى الأحـــد التالي . ان مقال الاحـــد القادم في سلسلة المقالات سيكون بعنوان : «القديس ذو الماضي» .

فقال كولين : هل تفهم كلمة من كل هذا يا أبي ؟

فاعترف الأب توماس قائلا : لست أفهم كثيرا .

ـ هل جاء الى هنا لـكي يثير المتاعب ؟

ـ لا ، لا . لا شيء مثل هذا . الظاهر ان جريدته أوفدته الى القارة لموافاتها بأنباء بعض الأحداث السياسية ، فوصل متأخرا ، وهكذا جاء الى هنا ، خصوصا بعد ان ترامت اليه شـــائعات عن كيري . وقد قال انه لابد له من العودة من رحلته (بشيء) . وعندما وصل الى(لوك) تصادف أن التقيعند الحاكم بمسيو ريكيه .

ـ ما الذي يعرفه عن ماضي كيري ؟ حتى نحن ...

كان باركنسون يتابع المناقشة عن كثب ، وعيناه تتنقلان من وجه الى الوجه الآخر . ولابد أن كلمة من هنا وكلمة من هنـــاك كانت تعطيه معني خاصا ، مماجعله يستخلص لنفسه نتائج سريعةخاطئة.

وقال الأب توماس ردا على السؤال :

ـ الظاهر ان جريدته الانجليزية عنـــدها ما يسمونه (مجموعة مراجع) . ولم يكن عليه سوى الابراق الى الجريدة ، فتبعث اليه بملخص شامل لـكل ما نشر عن كيري .

ـ هذا اشبه بالتعقب البوليسي .

ـ آه . انا مقتنع بانهم لن يجدوا شيئا ماسا به .

وقال باركنسون محزونا :

ـ الم يسمع أحدكما اسمي : مونتاجو باركنسون ؟ من المؤكد انه اسم بارز بدرجة كافية .

كان من المستحيل أن يتبين أحد ان كان يضحك من نفســـه بهذا القول .

وقال كولين للأب توماس :

ـ هل يعرف كيري كل هـــذا ؟

ـ ليس بعد .

ـ لقد بدأ يصبح سعيدا هنا .

فقال الأب توماس : يجب الا تتعجل . هناك جانب آخر لـــكل

هذا . ان مستعمرة الجذام هنا قد تصبح شهيرة ، مثل مستشفى شفايتزر ، وقد تنهال علينا التبرعات .

ولعل اسم شفايتزر مكن باركنسون أن يتعلق بالمعنى الذى يقصده الأب توماس ، اذ سارع يقول :

ــ ان مقالاتى تنشر باتفاقات خاصة فى الولايات المتحدة وفرنسا وألمانيا واليابان وامريكا الجنوبية . لا احد بين الصحفيين الأحياء ..

فقال كولين :

ــ اننا دبرنا أمورنا حتى الآن بغير نشر يا أبى .

ــ ان النشر ليس الا مرادفا للدعاية . وهناك كلية لذلك فى روما . وانا شخصيا مقتنع بأن كيرى ...

ــ اننى لم أستطب قط رياضة القنص يا ابى ، وعلى الأخص القنص البشرى .

ــ انت تبالغ يا دكتور . ان خيرا كثيرا قد يأتى من هذا كله . وأنت تعرف كم كانت تعوزك الأموال دائما . ولا تستطيع الارسالية ان توفرها لك . ان مرضاك يستحقون ان يكون لهم اعتبار فى هذا .

فقال كولين : ربما كان كيرى ذاته مريضا .

ــ هذا هراء . اننى كنت افكر فى المجذومين ــ انك كنت تحلم دائما بمدرسة للتأهيل ، اذا توافرت لك الاعتمادات المالية . من اجل مرضاك المساكين الذين شفوا بعد ان التهم المرض أطرافهم .

فقال الدكتور كولين : ان كيرى قد يكون مثل هؤلاء .

ونظر الرجل البدين القابع فى المقعد ، واردف قائلا :

ــ اين يمكنه الآن ان يجد علاجه لمداواة جراحه النفسانية ؟ ان تسليط الأضواء ليس امرا محمودا للمشوهين .

كانت شدة الحر وحدة المناقشة قد انستهما ماحولهما ، وكان باركنسون هو الذى رأى وحده الرجل موضوع النقاش واقفا لدى مدخل الحجرة ، فقال باركنسون :

ــ كيف حالك ياكيرى ؟ اننى لم اعرفك عندما قابلتك فى السفينة .

فقال كيرى : ولا عرفتك انا .

فقال باركنسون : الحمد لله انك لم تنته كما انتهت الأحداث السياسية التى جئت من اجلها .. اننى لحقت بقصة ممتعة على أى حال . لابد لنا من حديث ، انت وانا .

(٢)

راح باركنسون يقول : هذا اذن هو المستشفى الجديد . طبعا انا لا أعرف هذه الأشياء ، لـكن يبدو لى انه خلو من أى ابتكار .

وانحنى فوق الرسوم الهندسية وأضاف قائلا بنية استفزاز ظاهرة:

ـ انه يذكرني بما نراه فى بلدان الأقاليم عندنا .

فقال كيرى : ليس هذا فنا معماريا . هذه عملية بناء رخيص، لا اكثر . كلما رخصت كانت افضل ، طالمـــا كانت تقـــاوم الحر والأمطار والرطوبة .

ـ هل يحتاجون الى رجل مثلك لهذا الغرض ؟

ـ نعم . ليس عندهم بناء هنا .

ـ هل تنوى البقاء حتى يتم ؟

ـ سأبقى اكثر من هذا .

ـ اذن فان ما قاله ريكيه لى لابد وأن يكون صحيحا الى حد ما.

ـ اننى أشك فى أن يكون أى شىء يقوله هذا الرجل صحيحا .

ـ لابد أن تكون مثلى قديس حتى تدفن نفسك هنا .

ـ لا . لست هذا .

ـ اذن فما أنت ؟ ما هى دوافعك ؟ اننى توصلت الى معرفة الـكثير عنك حتى الآن . لقد تزودت بملخصات وافية عنك . انك لست بالضبط الرجل الذى يحب الناس ، باستثناء النساء طبعا .

لم يكن ثمة شك فى ان باركنسون رجل فاســـد الطبع . ان الفضيلة قد ماتت منذ أمد بعيد فى هذا الجبل من الشحم واللحم. ومن كانت له نحيزته يرحب بالنقائص الانسانية ويهفو اليها . وما من شىء يمكنه ان يضير باركنسون سوى الفشل ، وما كان لشىء أن يخيب امله سوى قيمة شيك مالى .

قال له كيرى :

لقد سمعت ما قاله الطبيب عنى ـ قال اننى احدى الحالات المرضية (المحترقة) . هى حالات المجذومين الذين يفقـــدون كل شىء يمكن أن (يأكله) المرض قبل شفائهم .

فقال باركنسون وهو يتطلع الى الأصابع التى كانت مستقرة فوق لوحة الرسم :

ـ انت رجل كامل الأطراف كما يستطيع كل انسان أن يرى .

ـ اننى وصلت الى النهاية . ان هذا المـكان هو النهاية . كل من النهر والطريق ينتهى الى هنا . وانت ايضا قد وصلت الى

خاتمة المطاف .

ـ آه ، كلا ، انني جئت الى هنا لغرض معين .

ـ انني كنت خائفا منك في السفينة ، لكنني لم اعد اخافك .

ـ لست افهم ما يخيفك . انا رجل مثل سائر الرجال .

فقال كيري : لا . انت رجل مثلي . والرجال الذين لديهم انبعاث لخدمة المجتمع يختلفون عن سواد الآخرين . اذا خسروا فانهم يخسرون الكثير . اعترف بأنه كان لك في الماضي هذا الانبعاث ، حتى ولو كان مجرد الكتابة ..

ـ ليس لهذا اهمية . معظم الصحفيين يبدأون هكذا .

ـ وينتهون نهايتك ؟

ـ ما الذي ترمي اليه ؟ هل تحاول اهانتي ؟ انا ابعد عن الاهانة يا مستر كيري .

ـ وما الذي يدعوني الى اهانتك ؟ كلانا من طينة متماثلة . انني بدات كمهندس معماري ، واراني انتهى كبناء . ليس ثمة ما يبهج . فهل تجد ما يبهج في مرحلتك النهائية يا باركنسون ؟

ونظر الى الورقة المكتوبة بالآلة الكاتبة التي كان قد اخذها من حجرة الأب توماس وجاء بها معه . فقال باركنسون :

ـ هذا عملي .

ـ بالطبع .

فقال باركنسون : وهو يبقيني حيا .

ـ نعم .

ـ فلا فائدة من قولك انني مثلك . انا على الأقل استمتع بالحياة .

ـ آه ، نعم . بالملذات الحسية . كالطعام يا باركنسون ؟

ـ انني اتناوله بقدر ، لزيادة وزني .

ـ النساء يا باركنسون ؟

ـ لا اعرف لماذا توجه الى هذه الأسئلة . انني جئت لكي اسألك انت اسئلة صحفية . نعم انني اعبث قليلا بين وقت وآخر ، لكن هناك وقت يأتي في حياة كل انسان ...

ـ انت اصغر مني سنا .

ـ ان قلبي ليس في اوج القوة .

ـ اذن فقد وصلت الى النهاية مثلي ، أليس كذلك يا باركنسون؟ وهكذا نجد نفسينا متماثلين . حالتان مرضيتان (محترقتان) . لابد ان في الدنيا حالات كثيرة مثلنا ، بل اكثر . يجدر أن تكون

لنا شارة اخوية نتعرف بها بعضنا على بعض .
— انني لست حالة (محترقة) . ان لي عمـــلي . ان اعظم المؤسسات الصحفية ...
بدا انه مصمم على اثبات انه لا يماثل كيري ، فقال له :
— كان هناك حنين في حياتك ماكنت لتكتب فيه ماكتبت عن ستانلي .
— هذا خطأ جغرافي يسير ، لا أكثر . لابد للانسان من اضفاء الطابع الدرامي . هـذا أول شيء يعلمونه للمخبر الصحفي في مجلة (بوست) — عليه أن يجعل كل قصة تقف على ساقين . وعلى أي حال فلن يفطن احد الى هذا .
— هل يمكن أن تـكتب الحقيقة الصادقة مني ؟
— هناك قوانين لجرائم النشر .
— ما كان لي أن أقاضيك أبدا . هذا وعد مني لك .
وقرأ من الصفحة بصـــــوت عال : « ماضي قديس . ياله من قديس ! »
— كيف تجزم بأن ريكيه لم يكن على حق فيما يتعلق بك ؟ لا احد منا يعرف نفسه على حقيقتها فعلا .
— لا مفر لنا أن نعرف نفوسنا على حقيقتها اذا أردنا الشفاء . عندما نصل الى درجة الخطورة ، فلا يمكن الخطأ في تشخيص ذلك . بعد أن تذهب أصابع اليدين ثم القدمين ويثبت من اختبـــارات الجلد أنها سلبية ، فعندئذ لا تكون محل اذى . هل يمكن أن تكتب الحقيقة يا باركنسون حتى لو اخبرتك بها ؟ أنا أعرف انك لن تفعل هـــذا . انت لست حالة (محترقة) رغم كل شيء . انت لازلت موبوءا ناقلا للعدوى .
تطلع باركنسون الى كيري بنظرات مضعضعة . لم يجد امامه بدا من الاعتراف بأنه وصل الى الحضيض ، فقال :
— اذا حاولت فسوف يستغنون عني . من السهل أن يجازف الانسان لو كان شابا في أول الطريق .
— ما هو المـاضي الذي خلعته علي ؟
— حسنا . هناك مسألة آن موريل ، أليس كذلك ؟ ان حكايتها وصلت حتى الى الصحف الانجليزية . وعلى أي حال فقد كانت لك أم انجليزية . وكنت وقتهـــا قد فرغت من اتمام تلك الكنيسة العصرية في (بروج) .
— لم تكن (بروج) . ما هي القصة التي ذكروها عن ذلك ؟

ــ قالوا انها قتلت نفسها بسبب حبها لك . كانت فى الثانية عشرة . من أجل رجل فى الأربعين .

ــ كان ذلك منذ أكثر من خمسة عشر عاما . هل للصحفى تلك الذاكرة القوية ؟

ــ لا . ولكن مجموعة المراجع التى يسمونها (المشرحة) تخدمنا بدلا من الذاكرة . اننى سأشرح فى أبلغ اسلوب صحفى فى طبعة الأحد كيف جئت الى هنا للتكفير عن الماضى ...

ــ ان صحفا مثل صحيفتك تصدر عنها دائما أخطاء صغيرة . ان اسم المرأة كان مارى ، لا آن . وكانت فى الخامسة والعشرين ، لا الثانية عشرة . كما أنها لم تقتل نفسها بسبب حبها لى . انها ارادت أن تهرب منى . هذا كل ما كان هناك . وهكذا ترى اننى لا أكفر عن شىء كما قلت .

ــ هل ارادت أن تهرب من الرجل الذى احبته ؟

ــ تماما . اننى لم أفرط فى حبها . وقد حاولت أن تتركنى مرارا ، وفى كل مرة كنت احملها على العودة . فقد كان يجرح غرورى أن تتركنى امرأة .

ــ وكيف كنت تستعيدها اليك ؟

ــ اننا معشر الذين يمارسون فنا واحدا يبرعون عامة فى فن آخر . فالرسام قد يكتب . والشاعر قد يصوغ لحنا . وقد حدث فى تلك الايام اننى كنت ممثلا بارعا كهاو . فمرة كنت استخدم الدموع . ومرة كنت اتحبب الى امرأة أخرى لكى أبين لها ما سوف تخسره ان هى تركتنى . بل اننى اقنعتها فى مناسبة أخرى أننى لا أستطيع أن امارس عملى بدونها .

ــ رغم ذلك فلابد من وجود سبب ما لمجيئك بين المجذومين .

ــ ليس السبب من أجل التكفير عن شىء يا مستر باركنسون . كان هناك نساء كثيرات بعد مارى موريل كما كان هناك نساء قبلها . ولعلى امضيت عشر سنوات وأنا أحاول اقناع نفسى بأننى احب فعلا . وكان عنصر الوقت فقط هو الذى جعلنى أدرك اننى لم أكن احب اطلاقا بالمعنى الحقيقى . كنت فقط اقبل الحب . وفى النهاية انتابنى اسوأ الوان الملل . ذلك لأننى لو تركت نفسى انخدع بحب النساء ، فقد خدعتهن فى مجال فنى أيضا .

ــ لم يجادل أحد فى شهرتك ابدا .

ــ المستقبل هو الذى سوف يتصدى لهذا . قد يكون هناك

الآن في أحـــد الشوارع الخلفية في بروكسل فتى جالس الى لوحة الرسم سوف يتفوق على ويفضحني ، وليت العمر يمتد بي حتى ارى الكنيسة التي سوف يشيدها .

ـ اذا كان الملل قد انتابك الى هـــذا الحد ، فلم لا تقضيه بين الراحة والنعيم ؟ في مسكن وثير في بروكسل ، او فيللا في كابري مثلا ؟ على اي حال انت رجل غني يا كيري .

ـ ان الملل في النعيم أسوأ . لقد خطر لي انني اذا ابتعـــدت الى هنا فقـــد أجـــد الألم الكافي والخوف الكافي بما يلهيني ويصرفني عن ...

وتطلع الى باركنسون واردف :

ـ من المؤكد انك تستطيع ان تفهمني اذا كان الانسان ان يفهمني .

ـ لا أستطيع ان أفهم كلمة واحدة مما تقول .

ـ هل انا مسخ خلقي الى حد انك حتى انت ... ؟

ـ وماذا عن فنك وعملك يا كيري ؟ مهما كان لك أن تقول ، فلا يمكن أن ينتابك الملل في عملك . انك كنت عنوانا طنانا للنجاح .

ـ تقصد المـال ؟ لم اقل لك ان العمـــل لم يكن تاما سـويا ؟ ما قيمة اية كنيســة مما شيدت بالمقارنة الى كاتدرائية (شارتر) ؟ كلها حملت اسمي بالطبع ـ وما كان لأحـــد ان يخطىء فن كيري واسلوبه ، لكن من منا يعرف المهندس المعماري الذي شيد كنيسة (شارتر) ؟ انه لم يحفل بتخليد اسمه . انه عمل مدفوعا بالحب ، لا بالزهو والغرور ـ وبالايمان أيضا فيما اظن . وعندما اكتشفت انني مجرد من هذه النوازع ، قبلت تكليفا بتشـــييد دار كبرى للاجتماعات والمناسبات الرسمية ، لكن وجدتني لا أؤمن بالسياسة أيضا . من حسن الحظ انك لم تشهد صرحا سخيفا من الخرسانة والزجاج كالذي اقمته في ميدان تلك المدينة المسكينة . كنت كجســد بلا روح ولا ايمان . كنت كمن رای خيطا مدلى من سترته ، فجذبه ، فبدأت السترة كلها تنحل خيوطها ...

ـ لماذا تقول لي كل هذا يا مستر كيري ـ حتى ولو كان صحيحا ؟

ـ لأنك على الأقل شخص لا يجد باسا من معرفة الحقيقة ، وان كنت أشك فيما اذا كنت ستكتبها قط . وربما أســتطيع اقناعك بنبـــذ ذلك اللغو السخيف الذي يقوله ريكيه عني وعن صـــلاحي وقداستي . انا لست شفايتزر آخر . يا الهي ! انه يكاد يغريني بالتطلع الى زوجته . هذا وحده كفيل بأن يغير لهجته عني .

فقال باركنسون : يالك من شخصية غريبة الأطوار !
ـ لماذا لا تكتب مثل هذا عنى ، بدلا من ذلك اللغو المنمق ؟
ـ لايمكن . ان جريدتى مقروءة بين الأسر ، وان كانت كلمة (الماضى) بالطبع سوف يكون لها معنى خاص . لكن سيكون معناها النزوات والحماقات الماضية ، لا الفضائل المضيعة . سوف نلمس حكاية الآنسة موريل لمسا خفيفا . ثم كانت هناك امراة اخرى ... زوجة جريسون ؟
لم يجب كيرى ، فقال باركنسون :
ـ لا فائدة الآن من الانكار . ان قصة جريسون وزوجته (محنطة) فى (مشرحة) المجلة أيضا .
ـ لن أقول اكثر من هذا . ثق اننى اكرهك كما أكره نفسى . ولم أقل لك ما قلت الا لكى احول دون طول بقائك هنا . ان المقابلة الصحفية بيننا قد انتهت ، ولن تفوز بأحسن منها .
فراح باركنسون يقول :
ـ « فى ركنه العارى من كل شىء فى صميم افريقيا ، كشف واحد من اعاظم المهندسين المعماريين المحدثين واحد مشاهير الكاثوليك عن مكنون ضميره لمراسل مجلة « بوست » ، مونتاجو باركنسون ، الذى كان فى ميدان القتال فى كوريا الجنوبية فى الشهر الماضى ، والذى يعود اليوم ليشهد ميدانا آخر ومسرحا مختلفا . سوف يميط اللثام فى سلسلة مقالاته التالية ليبين ان التقدم بسبب الماضى هو القوة الدافعة لكيرى . ان كيرى مثل كثير من ذوى القداسة يكفر عن شبابه اللاهى المستهتر بخدمة الغير .
وأسرع باركنسون الى الخروج غير عابىء بحرارة الشمس المشتدة لكنه شعر أنه لم يقل كل شىء ، فعاد والصق وجهه فى (الناموسية) وراح يصب كلماته حامية من خلال الشبكة .
ـ « فى مقال الأحد القادم : فتاة تموت بسبب الحب » .. اعرف اننى لا احبك مثلما انك لا تحبنى يا كيرى ، لكننى سوف ارفعك الى أعلى عليين حتى أنهم سيقيمون لك تمثالا بجانب النهر أسوأ تمثال يمكن أن يهديهم اليه ذوقهم . ولن يكون بوسعك أن تتفادى هذا ، لأنك ستكون فى عداد الموتى ، موسلا تحت الثرى ، محوطا بمجذوميك البشعين . سأريك آنه ليس لك أن تستغلنى للتخفيف عن ضميرك المثقل . ولن يدهشنى الا أجد زائرا واحدا يحج الى ضريحك بعد عشرين سنة ، حين يهدأ الغبار ويدون

التاريخ على حقيقته .

وما ان انسحب باركنسون حتى اخرج كيرى من جيبه تلك الرسالة التى كانت بين يديه عندما زاره الدكتور كولين . انها لم ترده من اية امراة ممن ذكرهن باركنسون . ان (مشرحة) مجلة « بوست » لم تكن من السعة بحيث تضم كافة (جثث) الضحايا. وراح يقراها مرارا على ضوء كلمات باركنسون ، خصوصا تلك الكلمات التى قلت فيها : « هل تتذكر ؟ » . كانت واحدة من اللواتى لا يعترفن قط بأنه عندما تموت العاطفة ، تموت معها ذكرى المناسبة أيضا . لم يكن له الا أن يصدقها بغير حاجة الى برهان ، اذ كانت امراة صادقة الطوية منطوية على الوفاء .

وتقدم الى فراشه وتمدد فوقه . شعر بالحرارة تشتد تحت راسه فوق الوسادة ، لكنه لم يقو اليوم على مواجهة مجاملات الآباء والفداء معهم . قال فى نفسه : «كان هناك شيء واحد افعله» وهذا سبب كاف لوجودي هنا . اعدك يا مارى ، سواء بتأثير الملل أو الغرور ، الا اورط انسانة اخرى فى حب زائف ، افتقارا منى الى الحب الحقيقى » .

لقد ظل سنوات طوالا وهو لا يفكر فى مارى موريل . ولم يتمالك أن تذكر الآن المرة الأولى التى سمع فيها اسمها . سمعه من طالب هندسة معمارية شاب كان يساعده فى دراساته . وكانا قد عادا من يوم عمل فى (بروج) متجهين الى محطة بروكسل حيث مرا بالفتاة وهى تنتظر خارج المحطة الوهاجة الضياء . لقد شعر وقتها فى قرارة نفسه بالحسد عندما رأى ابتسامة الفتاة المتهللة للشاب المغمور المتبلد الملامح .

ولكن لم يمض وقت طويل حتى ذهب عنه الحسد بعد أن عرف كيف يغير مسار حاجة امراة الى الحب . انها لم تكن حتى فى سن ذلك الشاب الدارس الذى لعله الآن لايزال على قيد الحياة يبنى تلك المساكن المالوفة التى يقطنها سواد الناس . وفى غمرات الذكريات لم يتمالك كيرى وهو ممدد فى فراشه أن همس مناجيا الشاب : « كم أنا آسف . لم يكن قصدى فى الحقيقة أن أسيء اليك . كنت أظن فى تلك الأيام أننى أتصرف بوحى الحب ، لا بدافع الغريزة » .

القسم الخامس

الفصل الأول

لم تمض أيام قلائل حتى ارتحل باركنسون فجاة كما جاء ، حاملا آلة تصويره وآلته الكاتبة ، متجها الى موقع آخر .

وتعاقبت الأسابيع دون ان يجد جديد ، وبدأ كيرى ينسى باركنسون . فقد فعل (العالم الخارجي الكبير) أسوأ مايستطيعه وذهب ، وساد لون من السكينة لم يحدث خلالها سوى وفيات قليلة بين المرضى ، وارتفاع مبنى المستشفى بضعة اقدام اخرى . كما بقى ريكيه بعيداً ملازما مصنعه ، ولم ترد من اوربا البعيدة اية صحف بها مقالات تعكر صفو كيرى وتنال من هدوئه . وحتى الأب توماس غادر مستعمرة الجذام لفترة قاصدا الى معهد لاهوت بين الغابات لاستقدام مدرس يتولى التعليم فى أحد الفصول الجديدة.

وظل الدكتور كولين فى نظر كيرى شخصيته الغامضة التى لم يستطع سبر أغوارها . وقد حدث ذات مرة ان ابدى كيرى تعليقا على طبيعة الحياة التى يحياها الطبيب وسط هذه الظروف القاسية ، فما كان من الدكتور كولين الا ان رفع راسه ونظر اليه تلك النظرة الرصينة التى يرمق بها مرضاه ، قائلا :

ــ ربما لو اننى اختبرت جلدك الآن لوجدت تفاعلا سلبيا مرة ثانية .

ــ ماذا تعنى ؟

ــ اراك تبدى الفضول مرة أخرى بصدد حالة انسان آخر .

فقال كيرى : ومن كان الأول ؟

ــ ديوجراتياس . لعلك تعرف اننى كنت أسعد منك حظا فى مهنتى هنا .

ــ اسعد حظا ؟

ـ لابد أن يكون الانسان على قدر عظيم من القوة لـكى يجتاز بنجاح عملية تحليل الدوافع والمشاعر . ولا اظن انك كنت قويا بما فيه الـكفاية ، مع علمى باننى ما كنت استطيع ان اكون مكانك.

فقال كيرى : ولماذا يختار الانسان رسالة كرسالتك ؟

ـ هى المصادفات التى تختاره لذلك .

ـ وما هى المصادفة التى اختارتك أنت يادكتور كولين ؟

ـ لا اكثر من الاستعداد والطبـــع الخاص . وارجو الا تخطىء فهم كلامى ، فلا اقصد اننى كقديس يطلب الاستشـــهاد ويسعى الى الموت طائعا . اننا الآن وقد اصبحنا قادرين على شفاء الجذام اقل تعرضا للهلاك مما كانت مهنتنا من قبل .

وخرج الطبيب معه الى الطريق الموصل الى غرفة كيرى وقال :

ـ لقد كانت نسبة المنتحرين بين أطباء واخصائيى الجذام عالية من قبل ، ولعلهم لم يكونوا قادرين على انتظار نتيجة التحليـــل الايجابية التى كانوا يتوقعونها فى أشخاصهم . كان اسلوب الانتحار غريبا مثل مهنتهم الغريبة . هنــــاك رجل اعرفه حقن نفسه بجرعة من سم الأفاعى ، وآخر سكب بترولا على اثاثه وملابسه ثم أشعل النار فى نفسه . هنــــاك ظاهرة مشتركة فى كلتا الحالتين ـ وهى مكابدة الألم والعذاب دون ضرورة . ان هـــذا قد يكون لونا من الانبعاث النفسى أيضا .

ـ لست أفهمك يادكتور .

ـ الا تفضل العذاب على القلق والانزعاج ؟ ان القلق يثير ذواتنا مثل لدغ البعوض . وكلما زاد قلقنا كنا أكثر وعيا بنفوســـنا ، ولـكن العذاب شيء آخر مختلف تماما . وأحيانا أظن ان البحث عن العذاب وتذكر العذاب هما الوسيلتان الوحيـــدتان اللتان نستعين بهما لتوثيق صلتنا الانسانية كلها .

فقال كيرى : اذن فأود لو علمتنى كيف اتعذب . انا لا أعرف من العذاب سوى لدغ البعوض .

فقال الدكتور كولين : ســـوف تستشعر العذاب الـكافى وتبلغ درجة المـكابدة الحقة اذا صمدنا هنا . سأريك اليوم بعض حالات طريفة لمرضى العيون .

وجلس الدكتور كولين الى منضدة الجراحة وجلس كيرى بجانبه. انه لم يشهد فى حيـــاته الا فى حفـــلات الـكرنفال تلك الأقنعة البشعة التى تطل منهـــا أعين محمرة تنضح بالجشع والخوف ،

والتى رآها الآن ماثلة امامه . ولقد مضى الدكتور كولين يقول له :
ــ كل ما تحتاج اليه الآن هو قليل من الصبر . ان العـــذاب لا يصعب وجوده .

فقال كيرى : الا تراك تبالغ حين تتحدث عن العذاب ؟ ان تلك المرأة التى ماتت فى الأســـبوع المـاضى وكانت تجر نفسها جرا ...

ــ لا تسرف فى الحزن على أولئك الذين يموتون بعد شيء من الألم . ان هذا يجعلهم على استعداد للرحيل . فكر فى كيف يكون تأثير حكم بالموت على النفس اذا كانت مليئة بالصحة والحيوية .

وتحول عنه الدكتور كولين لـكى يكلم مريضة عجوزا كان جفناها المشلولان لا يغمضان أبدا لدفع وهج الشمس عن عينيها .

وفى هذه الليلة بعد أن تناول كيرى طعام العشاء مع الآباء ، سار الهوينا الى بيت الطبيب وهو يشعر لأول مرة بالسكينة تسرى الى نفسه . وبعد ان تناول كأسه الثانية قال للطبيب :

ــ اذا كانت نتيجة اختبار الشريحة سلبية فى مريض الجذام ، فهل تظل هكذا دائما ؟

ــ ليس دائما . انه يكون سابقا لأوانه اخلاء سبيل المريض بين الناس الى أن تصبح الاختبارات سلبية لمدة ســـتة أشهر . هناك حالات انتكاس تحدث حتى مع العقاقير الحالية .

ــ وهل يصعب عليهم احيانا ان يخلى سبيلهم ؟

ــ بل كثيرا جدا . فهم يتعلقون بالأكواخ التى يبقون فيها مدة العـــلاج وبرقعة الأرض من حولهم ، ثم ان الحياة خارج نطـــاق المستعمرة لأصحاب الحالات (المحترقة) لاتكون سهلة . فهم يحملون وصمة الجذام البادية فى تشوهاتهم والناس على استعداد لاعتبـــار المجذوم مجذوما على الدوام .

ــ لقد بدأت افهم مهنتك ورسالتك فهما ايسر . ومع ذلك ، فما هى الدوافع التى تحركك وتحفزك الى هذا العمل ؟

فراح الطبيب يقول :

ــ أريد أن اتكلم قليلا عن التغيير والتطور . لو اننى ولـــدت مجرد (اميبا) ذات الخلية الواحدة فمن كان يحلم بعصر (الرئيسات) وهى الثدييات التى تشمل الانسان والقرد كما تعرف ؟ ان التطور قد استقر بصفة نهائية فى عقل الانسان ان النملة والســـمكة ، وحتى القرد ، كلها قد وصلت الى اقصى ما يمكن ان تصل اليه . أما فى عقولنا فان التطور يمضى فى طريقـــه بسرعة مذهلة . ويكاد

الانسان ينسى كم من عديد مئات الملايين من السنين قد تعاقبت فيما بين عصر (الديناصور) وعصر (الحيوانات الرئيسة) ، ولكننا شهدنا فى عصرنا هذا التغير والانتقال من محرك الديزل الى المحرك النفاث ، والى شطر الذرة ، والى علاج الجذام .

ــ هل هذا « التغيير » الى الأصلح ؟

ــ لا نكران لهذا . اننا نمتطى موجة تطورية عظمى ، وربما كانت العقيدة الدينية تفيد من هذا أيضا . افرض ان الحب قدر له ان يتطور فى أذهاننا بمثل السرعة التى تطورت وتتطور بها المهارة الفنية . ان التاثير فى حالات فردية قد يبلغ هــذا المبلغ ، كما فى اصحاب الرسالات الانسانية .

فقال كيرى : أيمكنك ان تجد راحة الفكر فى كل هذا ؟

ــ ان القرن التاسع عشر لم يكن حافلا بالخطأ كما نحب ان نعتقد . ان الشك لم يعتورنا فى قيمة التطور والتقدم الا نتيجة لبعض الأشياء الشنيعة التى رأينا الناس يفعلونها خلال الأربعين سنة الماضية . ومع ذلك فانه من خلال التجربة والخطأ أصبحت (الأميبا) فردا . واظن انه حدثت حتى حينذاك بدايات عمياء وتحولات خاطئة . والتطور اليوم يمكنه ان يفرز لنا أشخاصا كهتلر مثلما يفرز اصحاب الرسالات الانسانية والمصلحين ، اذا وجد التربة الصالحة التى تزكو فيها البذرة . اننى أريد أن أكون عند جانب التقدم الذى يبقى ويدوم . أنا لست من أصدقاء الزواحف المجنحة المنقرضة .

ــ وهل انت انسان سعيد ؟

ــ اظن اننى كذلك . هذا سؤال لم اساله لنفسى قط . هل الانسان السعيد يتجه الى نفسه قط بسؤال كهذا ؟ اننى امضى فى طريقى يوما بعد يوم .

فقال كيرى بلهجة الحاسد :

ــ وفى طريقك هذا ، الا تحتاج قط الى امراة بجانبك ؟

فأجاب الطبيب : ان المرأة الوحيدة التى شعرت بالحاجة اليها فى عداد الأموات .

ــ اذن فهذا هو سبب مجيئك الى هنا .

فقال كولين :

ــ انت مخطىء . فهى مدفونة هنا على مسافة مائة ياردة فقط . انها زوجتى .

الفصل الثانى

سجلت عملية اقامة المستشفى خلال الثلاثة الأشهر الأخيرة تقدما كبيرا . فقد ارتفعت الجدران ، وتحددت فراغات النوافذ فى انتظار وضع شبكات السلك بها ، بل اصبح من الممكن تقدير الوقت الذى يمكن أن يتم فيه وضع السقف. والواقع ان المجذومين أصبحوا يعملون بطاقة اكثر واسرع كلما تراءت النهاية للعيان . واخذ كيرى يتفقد المبنى مع الأب جوزيف ، مرورا بأبواب لم توجد بعد ، الى حجرات لم تقم هى كذلك ، مفضيين الى مسرح العمليات الجراحية المستقبلة ، والى حجرة الأشعة ، والى المستوصف ، ثم الى العنبرين الرئيسيين .

وقال الأب جوزيف :

ــ ما الذى ستفعله عندما يتم هذا المستشفى ؟

ــ وما الذى ستفعله أنت يا أبى ؟

هــذا بالطبع موكول الى رئيس الرهبان والى الطبيب لتقدير ما يجب ، لكننى أود أن ابنى مكانا يمكن فيه تعليم المشوهين أن يعملوا ــ أو التأهيل المهنى كما يقولون . من الممكن تعليمهم أسرع وافضل فى فصول دراسية تسودها روح الزمالة والتبسط .

ــ وبعد ذلك ؟

ــ سوف نحتاج الى مزيد من البناء فى خلال العشرين سنة القادمة ، حتى لو كانت مراحيض .

ــ اذن فسوف يتهيأ دائما مجال لكى اعمل انا ايضا يا أبى .

ــ ان مهندسا معماريا قديرا مثلك نهدر قدره فى نوع العمل الموجود هنا . هذه اعمال بنائين فقط

ــ لقد اصبحت بناء .

ــ الا تريد قط أن ترى أوربا من جديد ؟

فاجاب كيرى :
ـ انني راض هنا .
وكان الوقت قد حان لموعد الغـــداء ، فعاد الاثنان ادراجهما الى مبنى الارسالية . وفى غمرة انشغالهما بتفقد مبنى المستشفى الجديد لم يسمعا رنين جرس سفينة شركة اوتراكو لدى وصولها وعليها الأب توماس عائدا من سفرته . فقد مرا به واقفا فى مدخل حجرته ، وما ان رآهما حتى قال مرحبا بلهجة لم يسترح اليها الأب جوزيف :
ـ هاأنت ذا ترى يا أب جوزيف اننى عدت قبل الأوان .
فقال الأب جوزيف : هذا ما أراه فعلا .
ـ أهلا بك يامسيو كيرى . عندى شىء بالغ الأهميـــة سوف أناقشه معك .
ـ خيرا ؟
ـ كل شىء فى وقته ، فصبرا . لقد جدت اموركثيرة فى فترة غيابى
فقال الأب جوزيف : لا تتركنا اذن على جمر الانتظار .
فرد الأب توماس وهو يدلف الى غرفته :
ـ عند الغداء . عند الغداء .
وبدا رئيس الرهبان صـــامتا مشغول البـــال وهم جلوس حول مائدة الغداء . ولم يتكلم الا بعد ان فرغوا من الطعام ، فقال :
ـ ان الأب توماس قد جاءنى برسالة . ان الأسقف يريدنى فى (لوك) . وربما اغيب أسابيع أو حتى شهورا ، واننى اطلب من الأب توماس ان يعمل مكانى اثناء فترة غيابى . انت الوحيد يا أب توماس الذى لديه وقت للاشراف على الحسابات .
كان هذا الكلام بمثابة اعتذار للأباء الآخرين ، وتأنيبا مستورا لما بدأ الأب توماس يبديه من زهو . وقد رد الأب توماس قائلا :
ـ انت تعرف انه يمكنك أن تثق بى .
ـ اننى اثق بكل واحد هنا . ان عملى هو اقل الاعمال اهمية فى الارسالية . ليس بامكانى ان ابنى مثل الأب جوزيف او أشرف على المولدات الكهربائية مثل الأخ فيليب .
فقال الأب توماس : سوف احاول الا اجعل المدرسة تتأثر بشىء .
ـ انا متأكد انك ستنجح . سوف تجد ان عملى لن يستغرق الا القليل من وقتك .
والتف الآباء حول رئيسهم مكتئبين اذ لم يعتـــادوا مثل هـــذا

الفراق وقدحدثتهم النفس بانه قد لايعود اليهم نقلا الى موقع آخر.
وعنـــدما سمعوا جرس السفينة يرن اتجهوا الى ضفة النهر ، فقال الأب بول :

ــ عودة سالمة يا ابي . سأنادي الدكتور كولين .

ــ لا ، لا . هذه فترة القيلولة عنده . سوف ينوب عني مسيو كيرى فى ابلاغه .

وعندما وصلوا الى (السقالة) حمل رئيس الرهبان حقيبة الظهر التي كانت بها كل امتعته ولمس ذراع الأب توماس قائلا :

ــ اظن انك ستجد الحسابات منتظمة . دع حســـابات الشهر القادم الى آخر وقت ممكن ، فربما اعود ...

وتردد برهة قبل أن يضيف بابتسامة مكتئبة :

ــ خذ بالك لنفسك يا أب توماس ولا تتحمس اكثر من اللازم .

ثم حملته السفينة والنهر بعيدا عنهم .

وعاد الأب جوزيف وكيرى الى البيت معا . وقال كيرى :

ــ لماذا اختارالأب توماس؟ انههنا احدثعهدا من اى واحد بينكم .

ــ المسألة كما قال رئيس الرهبان . كل منا له العمل المختص به . واقولهــــا للحقيقة ان الأب توماس هو اقل النـــــاس دراية بالحسابات .

وتمدد كيرى فوق فراشه ، اذ كان يستحيل العمل فى فترة الحر المشتد هذه ، وقد اخذته سنة من النوم ، فما استيقظ الا والأب توماس جالس قرب الفراش . وقد قال له :

ــ لم يــكن قصدى ايقاظك .

ــ كنت فقط نصف نائم .

فقال الأب توماس : انني جئتك برسائل من صديق لك .

ــ لا اصدقاء لي فى القارة كلها الا من صاحبتهم هنا .

ــ ان لك اصدقاء اكثرمما تعرف. ان رسالتيمن مسيو ريكيه.

ــ ان ريكيه ليس صديقا لي .

ــ انا اعرف انه متهور بعض الشيء ، لــكنه رجل يكن لك اعجابا شديدا . انه يشعر ، من شيء قالته زوجته ، انه ربما كان مخطئا فى التحدث عنك مع الصحفي الانجليزى .

ــ اذن فزوجته أحسن منه ادراكا .

ــ من حسن الحظ ان المسألة كلها انتهت الى خير ، والفضل فى هذا الى مسيو ريكيه .

ـ الى خير !
ـ ان الصحفى قد كتب عنك وعنا جميعا هنا باتم واروع اسلوب.
ـ هكذا فعلا !
ـ انه أبرق بأولى مقالاته من (لوك) . وقد ساعده مسيو ريكيه لدي مكتب البريد والتلغراف . وقد اشترط مسيو ريكيه ان يقرأ المقال اولا ، فانه ما كان يسمح طبعا بنشر أى شيء يسيء الينا . ان الصحفى أورد تقديرا حقيقيا لعملك . وقد تمت ترجمة المقال ونشره أيضا فى مجلة (باري ديمانش) .
ـ تلك المجلة التافهة !
فقال الأب توماس : انها مجلة واسعة الانتشار .
ـ انها مجلة فضائح .
ـ ان نشر المقال فيها ادعى الى التصديق وتقدير رسالتك .
ـ لا أدرى ما الذى تتكلم عنه ـ فليست لى رسالة .
وتحول عن نظرات الأب توماس المحدقة المستخبرة مواجها الحائط . ولم يلبث أن سمع حفيف ورق ـ فقد كان الأب توماس يخرج شيئا من جيب ردائه ، وقال :
ـ دعنى أقرأ لك طرفا من المقال . أؤكد لك انك سوف تغتبط كثيرا . ان المقال معنون بهذه الكلمات : « مهندس الأرواح . ناسك المجاهل » .
ـ ياله من لغو مقزز . أقرر لك يا أبى انه لا شيء يكتبه هذا الرجل يمكن أن يثير اهتمامى .
ـ انت فى الواقع شديد القسوة . ولا يؤسفنى فقط الا اننى لم اجد وقتا لاطلاع رئيس الرهبان على المقال . استمع الى الطريقة التى اختتم بها المقال :
« لقد ظل العالم الكاثوليكى بأسره مشغولا بالاختفاء الغريب للمهندس المعمارى العظيم كيرى ـ كيرى الذى امتد مجال انجازاته الكبرى من أحدث كاتدرائية فى الولايات المتحدة ، ذلك الصرح الشامخ من الزجاج والفولاذ ، الى الكنيسة الصغيرة البيضاء للدومينيكان على شاطيء (كوت دازور) » ...
فقال كيرى : ها هو ذا يخلط بينى وبين ذلك الهاوى ماتيس .
ـ لا تلق بالك الى التفصيلات الصغيرة . اسمع ما كتب :
« ان كيرى لم يشاهده احد منذ فترة طويلة فى المواطن المعتادة

التى كان يرتادها . وقد ذهبت اتعقبه طويلا حتى قلب افريقيا ، الى ان عثرت عليه أخيرا . » .

وهنا رفع الاب توماس نظره وقال :

ـ وهنا أورد باركنسون عنا أشياء كثيرة اشادة بالعمل الذى نقوم به ، منوها بانها أعمال تنم عن روح التضحية والتفانى وانكار الذات .

ثم تابع القراءة قائلا :

« ترى ما الذى انحاز بكيرى العظيم الى هجر حياة كانت تجلب له التكريم والغنى لكى يكرس نفسه لخدمة المنبوذين من العالم ؟ ان الظروف لم تتح لى الفرصة لكى استقصى منه هذا ، فقد وجدتنى فجاة صريع الحمى ، ونقلونى محمولا من سفينته الصغيرة الى الشاطىء الموغل فى قلب القارة . ثم افقت لكى أجد يد كيرى تتحسس نبضى ، ولكى أرى عينى كيرى تحدقان فى عينى . وعندئذ تهيأ لى أن انفذ الى اللغز الكبير » .

لم يتمالك كيرى أن جلس فى فراشه متبرما وقال :

ـ هل يطيب لك حقا هذا اللغو ؟

فأجاب الأب توماس : اننى اقرأ تواريخ حياة مصلحين كانت اسوأ من هذا اسلوبا . ليس الأسلوب كل شىء . ان الرجل مشبع بحسن القصد . اسمع بقية الكلام :

« من شفتى كيرى ذاته أدركت معنى اللغز . وعلى الرغم من أن كيرى تحدث الى كما لعله لم يتحدث قط الى أحد آخر من بنى الانسان ، مبديا أشد التندم على ماض حافل بكل ضروب الفتنة والبهجة ... » .

وقطع الاب توماس القراءة لكى يقول :

ـ ليتنى كنت حاضرا عندما كنت تدلى بهذا الكلام . اننى سأترك الفقرة التالية التى ركز فيها بصفة اساسية على المجذومين . يبدو انه لم يسترع نظره سوى حال المشوهين ـ ومن المؤسف أن يكون هذا لانه يعطى انطباعا قاتما كئيبا عن حياتنا هنا .

وبهذا أعرب الأب توماس عندما اضطلع بالعمل نيابة عن رئيس الرهبان عن نظرة أكثر تعاطفا مع الارسالية مما كان منه منذ شهر مضى . وقد استمر يقرأ قائلا :

« لقد اتيح لى أن أعرف السر من لسان أوثق صديق حميم لكيرى ، وهو اندريه ريكيه ، مدير احدى مزارع ومعاصر الزيوت.

لقد قال لي مسيو ريكيه بلسانه حرفيا : (هل تريد ان تعرف ما الذي يحرك كيرى ؟ أؤكد لك انه الحب ـ حب شامل مجرد من الأنانية ، وبغير حوائل اللون او الطبقة . انني لم اعرف في حياتي رجلا أعمق منه ايمـــانا . لقد اتيح لي أن اجلس الي هذه المنضدة التي نجلس انا وأنت الآن حولها الي وقت متأخر من الليل نتناقش في طبيعة الحب القدسي). وعلى هذا النحو تلاقى النصفان الغريبان في حياة كيرى العظيم ـ الي تحدث كيرى عن النسـاء اللاتى احبهن في عوالم أوربا . والي صديقه المغمور في اقاصي الغابات تحدث عن محبة الله . ان العالم في هذا العصر الذرى لفي حاجة الي اصحاب الرسالات والقداسات » .

لم يتمالك كيرى أن هتف قائلا وقـد ترك الفراش ووقف قرب لوحة الرسم :

ـ يالها من اكاذيب وافتراءات ! انني لن اسمح لهذا الرجل ...

فقال الأب توماس : لا تنس انه صـــحفي ، والمهنة قد تتطلب بعض المبالغة ...

ـ لا اقصد باركنسون ، فهذا عمله . اقصد ريكيه . انني لم اتحدث ابدا الي ريكيه بشيء من هذا .

ـ لقد اخبرني انه جرت مرة مناقشة طريفة بينكما .

ـ ابدا . لم تدر أية مناقشة . اؤكد لك انه كان هو المتكلم وحده طول الوقت .

فنظر الأب توماس الي قصاصة الجريدة وقال :

ـ سوف يتلو هذا مقال ثان . وسيظهر في خلال اسبوع . لقد كتبوا هنا : « الأحد القادم . ماضي قديس . التكفير عن الخطايا بتعذيب النفس . المجذوم الذي تاه في قلب الغابة » . اظن انه يقصد به ديوجراتياس . وفي هذا المقال ايضا صورة للصـــحفي الانجليزى وهو يتحدث مع ريكيه .

ـ اعطني الجريدة .

قال كيرى هذا ومزق القصاصة اربا والقى بها الي الأرض ، ثم اردف :

ـ هل الطريق مفتوح ؟

ـ كان مفتوحا حينما غادرت (لوك) . لماذا ؟

ـ سوف اركب سيارة النقل إذن .

ـ الي اين ؟

ــ ليكون الى كلام مع ريكيه . الا ترى يا ابى انه لابد لى من اسكاته ؟ يجب الا يستمر هذا . اننى ادافع عن حياتى واقاتل عن وجودى .

ــ حياتك ؟

ــ حياتى هنا . هى كل ما املكه .

وجلس فى اعياء فوق الفراش ، ثم قال :

ــ اننى جئت الى هنا من اقصى الأرض . ليس لى مكان آخر اتجه اليه اذا غادرت هذا المكان .

فقال الأب توماس : لكل رجل فاضل مشكلة دائما .

ــ لكننى لست رجلا فاضلا يا ابى . الا يمكن ان تصدقنى ؟ هل لابد أن تحرف كل شيء أنت ايضا مثل ريكيه وذلك الرجل ؟ لم يكن لدى دافع طيب عندما جئت الى هنا . اننى أنظر الى نفسى فقط كما فعلت دائما ، لكن من المؤكد انه حتى الرجل الأنانى له الحق فى شيء من السعادة .

فقال الأب توماس :

ــ ان لك موهبة رائعة حقا فى التواضع .

الفصل الأول

(١)

امسكت ماري ريكيه عن قراءة الـكتاب الديني حالما رات زوجها قد استسلم للنوم ، لـكنها أشفقت أن تتحرك لئلا توقظه . ثم كان هناك أيضا احتمال ان يكون متناوما وان يكون هذا شركا لخداعها .

لقد بدا لها انه ما دام مريضا فلا حاجة بها الى الافضاء اليه بالنبأ الخاص الذي يشغل بالها ، اذ ان الانســـان غير مطالب أن يفضي بمثل هذا النبأ غير السار الى رجل مريض .

ومع ذلك فانها لم تتردد في مسح وجهـــه بمنديل مشرب بماء الـكولونيا رقة منها حتى لو جازفت بايقـــاظه . والواقع انه فتح عينيه قائلا :

ـ كم الساعة الآن ؟ ..

ـ اظن انها حوالى الثالثة .

وغلبه النوم من جديد قبل أن يسمع ردها ، وظلت جالسة بقربه تحاول القراءة ، لـكن الكتاب لم يستغرق اهتمامها ، الى انسمعت الـكلاب تنبح في الفناء ، واستيقظ ريكيه قائلا :

ـ انظري من القادم . ابعديه من هنا .

سمعت صوت سيارة تقف في الخارج ، فخفت الى الفناء حيث شاهدت رجلين جالسين في سيارة نقل صغيرة ، وكان احدهما من الاهالي ، ولـكنها لم تستطع أن تتبين وجـــه الثاني بسبب وهج الشمس المسلطة على الزجاج الامامي ، وان سمعته يقول :

ـ ان مهمتي هنا لن تستغرق الا فترة قصيرة . وسوف نصل الى (لوك) في العاشرة .

ودنت من باب السيارة ، فرات أن الرجل هو كيري . وفي الحال تذكرت المشهد المخزي الذي كان منذ أسابيع حينما جرت هاربة الى

سيارتها والدموع فى عينيها . وبعد ذلك امضت ليلتهـــا فى الطريق مفضلة ان تتعرض للدغ البعوض على ان تواجه رجلا يحتقر زوجها.

قالت الآن لنفسها راضية : « انه جاء من تلقاء نفسه . وما قاله اولا كان مجرد حالة عارضة » .

وارادت أن تدخل وتبلغ زوجهـــا ، لـكنها تذكرت قوله لها : « ابعديه من هنا » .

ولم يلبث كيرى أن نزل من السيارة ، فرات فى رفقته واحدا من المشوهين فى مستعمرة الجذام ، فقالت له :

ــ هل جئت لزيارتنا ؟ ان زوجى سوف يسر كثيرا ...

فقال كيرى : أنا فى طريقى الى (لوك) ، لـكننى اريد ان اقول كلمة لمسيو ريكيه اولا .

كان فى ملامح وجهه شيء ذكرها بزوجها فى لحظات معينة .

فقالت له : انه مريض . ويؤسفنى انك لن تتمكن من رؤيته .

ــ لابد لى من هـــذا . اننى قطعت ثلاثة ايام فى الطريق من مستعمرة الجذام ...

فقالت وهى واقفة قرب باب السيارة : لا مفر ان تخبرنى أنا . الا يمكنك ابلاغى رسالتك ؟

ــ لا يمكننى ان اضرب امرأة .

لقد روعتها اطباقة فمه المفاجئة وهو يقول هـــذه الـكلمات ، ولعله حاول أن يخففها بابتسامة ، ولكنها جعلت وجهه اكثر تكرا .

قالت : اهذه هى رسالتك ؟

فأجاب كيرى : تقريبا .

ــ أذن يحسن أن تدخل الى البيت .

وسارت عنه ببطء دون أن تنظر خلفها . لقد بدا لها اقرب الى رجل عدوانى مسلح لابد لها ان تخفى عنه خوفها ، وستكون فى رحاب البيت اكثر امنا . وعندما اجتـــازت البـــاب خامرها اغراء للهروب الى غرفتها ، تاركة المريض تحت رحمـــة كيرى ، لـكنها تجلدت حين فكرت فيما قد يقوله لها زوجها بعد انصراف القادم ، وهكذا سارت فى المشى ، حيث الأمان قريب دون أن ترسل أكثر من نظرة يسيرة لتعرف انه يتبعها .

وعندما وصلت الى الشرفة قالت بصوت ربة البيت المضيافة :

ــ هل يمكن أن آتيك بشراب ؟

ــ الوقت مبكر لذلك . هل زوجك مريض فعلا ؟

ـ هو مريض طبعا ، كما قلت لك . ان البعوض ضـــار هنا ، فنحن بقرب المياه . انه لم يواظب على اخذ عقار (البلودرين) المضاد للملاريا ، ولااعرف السبب ، لأنه متقلب المزاج كما تعرف.

ـ أظن ان باركنسون أصيب بالحمى هنا ؟

ـ باركنسون ؟

ـ الصحفي الانجليزي .

فاجابت بنفور : ذلك الرجل . هل لايزال فى المنطقة ؟

ـ لا اعرف . انكم كنتم آخر من قابلهم . بعـــد أن ارســـله زوجك فى اثرى .

ـ يؤسفنى انه ضايقك . اننى لم أقبل أن أرد على اية أسئلة منه .

فراح كيرى يقول : اننى أوضحت لزوجك اننى جئت الى هنا طلبا للوحدة . لـكنه فرض نفسه على فى (لوك) . ثم ارسلك فى رحلة الى مستعمرة الجذام فى اثرى . ثم أرسل باركنسون . وأخذ ينشر فى المدينة حكايات خيالية بشعة . والآن هناك مقال الجريدة هذا ، ومقال آخر يتهددنى فى الطريق . اننى جئت لـكى اقول لزوجك ان هذا الاضطهاد لابد أن يتوقف .

ـ اضطهـــــاد ؟

ـ هل عندك تسمية اخرى ؟

ـ انت لا تفهم . ان زوجى قد اهتم كثيرا بمجيئك الى هنا ، وبالعثور عليك . لايوجد هنا أناس كثيرون يمكنه أن يتكلم معهم فيما يهمه ويريحه . انه يشعر بوحدة شديدة .

وكانت تتطلع وهى تقول هذا الى النهر والى المعدية والغابة فى الجانب الآخر ، واضافت قائلة :

ـ انه عندما يتحمس لشيء وينفعـــل به يريد أن يستأثر به . مثل طفل .

ـ لم يكن لى اى اهتمام بالأطفال ابدا . الا يمكن أن تقنعيـــه بالـكف عن الـكلام عنى ؟

ـ لا تأثير لى عليه . انه لا يصغى الى . وعلى اى حال فما الذى يلزمه بهذا ؟

ـ اذا كان يحبك ..

ـ لا اعرف ان كان هـــذا شـــعوره . انه يقول كلاما معناه انه لا يحب سوى الله .

ــ اذن فلابد أن اكلمه شخصيا . ان حمى عارضة لايمكن ان تمنعه من سماع ما جئت اقوله .
ثم أضاف على الأثر : انا غير متأكد من مكان غرفته ، لكن لا توجد غرف كثيرة فى هذا البيت . بامكانى ان اعرفها .
ــ لا . ارجوك . سوف يظن انها غلطتى . وسوف يغضب . ولا أريد اغضابه . عندى خبر أريد أن اقوله له ، ولا يمكننى هذا اذا كان غاضبا . الموقف شنيع بما فيه الكفاية حاليا .
ــ ما هو الشنيع ؟
تطلعت اليه وملامحها تشف عن اليأس . وانبثقت الدموع فى عينيها واخذت تنحدر مختلطة كعرق ، وقالت :
ــ اظن اننى أحمل مولودا فى الطريق .
ــ لكننى كنت أظن ان النساء يسرهن عادة ان ...
ــ انه لايريد ولدا . لكنه لا يدعنى اتخذ احتياطاتى .
ــ هل استشرت احد الأطباء ؟
ــ لا . لم أجد حجة للذهاب الى (لوك) ، وليس عندنا سوى سيارة واحدة . ولا اريد ان يرتاب فى شىء . وهو يريد عادة ان يعرف بين وقت وآخر اذا كان كل شىء على ما يرام .
ــ الم يسألك اخيرا ؟
ــ اظن انه نسى انه كان بيننا اى شىء منذ المرة قبل السابقة .
تأثر كيرى برغمه بما بدا له من انكسارها . كانت غضة الشباب وموفورة الملاحة ، ولكن بدا انها لايمكن أن تتصور قط ان الزوج لا يجب أن ينسى هذه الدخائل . وقد قالت وكأن فى هذا تفسير كل شىء :
ــ كان ذلك اثر خطة الحاكم .
ــ هل انت متأكدة ؟
ــ تماما .
فقال لها : اننى انصحك ــ ما اسمك ؟
ــ مارى .
كان اسما عاديا جدا ، لكنه بدا فى سمعه كنذير . بينما قالت له بلهفة :
ــ نعم ؟ تنصحنى بماذا ؟ ..
ــ الا تخبرى زوجك الآن . لابد ان نبحث لك عن حجة لكى

تسافرى الى (لوك) وتستشيرى الطبيب . لكن لا تقلقى نفسك كثيرا . الا تريدين الطفل ؟
ـ وما الفائدة اذا كان هو لا يريد ؟ ..
ـ يمكن‌ان اصحبك معى الآن ـ اذا امكن ان نبحث لك عن‌حجة.
ـ اذا كان لاحد ان يقنعه ، فهو انت . انه معجب بك كثيرا .
ـ مطلوب منى احضار بعض الأدوية للدكتور كولين ، مع بعض الهدايا للآباء أيضا احتفاء باقامة سقف المستشفى . لكن لن‌اتمكن من اعادتك قبل مساء الغد .
فقالت :
ـ آه ، بامكان خادمه ان يعنى به اكثر منى . فهو معه منذ مدة طويلة .
ـ كان قصدى ان اقول انه ربما لا يثق بى ...
ـ ان الأمطار لم تسقط منذ أيام . والطرقات صالحة جدا .
ـ هل اتكلم معه فى هذا اذن ؟ ..
ـ انه لم يكن قصدك من المجىء الى هنا ، اليس كذلك ؟
ـ سأطرق‌الموضوع بكل مايمكننى من رفق . اننى تأثرت بموقفك.
فقالت : سيكون شيئا ممتعا ـ ان اذهب الى (لوك) وحدى. اقصد معك .
وجففت عينيها بظهر يدها ، ولم تكن خجلة من دموعها اكثر مما يخجل طفل . فقال لها :
ـ ربما يقول لك الطبيب انه لا مبرر لخوفك . اين غرفته ؟ ..
ـ من هذا الباب فى نهاية الممشى . الن تكون خشنا معه ؟ ..
ـ لا .
كان ريكيه جالسا فى الفراش عندما دخل عليه ، وكانت تبدو عليه امارات التذمر ، ولكن سرعان ما انحسر عن وجهه هذا القناع واكتست ملامحه بعلائم الحفاوة والترحاب بزائره ، قائلا :
ـ آه ، كيرى ؟ اكنت انت القادم ؟ ..
ـ اننى جئت لرؤيتك فى طريقى الى (لوك) .
ـ جميل منك ان تزورني وانا فى فراش المرض .
فقال كيرى : اردت ان أراك بشأن ذلك المقال السخيف الذى كتبه الرجل الانجليزى .
فقال ريكيه وعيناه تبرقان بتأثير الحمى أو السرور :

ـ انني اعطيته للأب توماس لتسليمه اليك . أؤكد انه لم يحدث أبدا من قبل أن بيع فى (لوك) هـذا العدد من مجلة « بارى ـ ديمانش » . ان المكتبة ارسلت تطلب نسخا اضافية . ويقولون انهم طلبوا حجز مائة نسخة من العدد القادم .

ـ الم يخطر لك قط الى أى حد يكون هذا كريها عندى ؟

ـ أنا أعرف ان تلك المجلة ليست من المجلات الرفيعة ، ولـكن المقال يحمل ثناء عاطرا . هل تعرف انه اعيد نشره فى ايطاليا أيضا ؟ لقد علمت ان الأسقف تلقى استفسارا من روما .

ـ هلا اصـــغيت الى يا ريكيه ؟.. انني أحاول أن أتكلم برفق لأنك مريض ، لـكن لابد أن يتوقف هذا كله. ولايعنيني أن يهتموا بى فى أى مكان .

ابتسم ريكيه ابتسامة العارف ، قائلا :

ـ نعم . ان الأب توماس قد اخبرني الـكثير من هذه الناحية .

ـ انني جئت الى هنا هربا من حماقة النـــاس . فهل تعدني يا ريكيه أن تتركني فى سلام ، أم يجب أن اذهب منجديد الى مكان آخر؟ انني كنت سعيدا قبلما بدأت هذه الحكاية . لقد وجدت انه يمكنني أن اكرس نفسي للعمـــل . لقد بدات أشـــعر بالاهتمام ، والاندماج فى شيء ما ...

ـ انها ضريبة العبقرية أن يكون الانسان منتميا الى العالم .

ـ أنا لست عبقريا يا ريكيه . انا رجل كانت له موهبة معينة ، موهبة ليست كبيرة ، وقد وصلت الى نهايتها . لم يبق هناك شيء جديد يمكن أن اقوم به . لم يكن امامي ســوى أن أكرر نفسي . وهكذا نفضت يدى . المسألة كلها ظاهرة البساطة . تماما مثلما نفضت يدى من النســاء .

ـ لقد اخبرني باركنسون بما خامرك من الندم ...

ـ انني لم أشعر قط بأى ندم . أبدا . انتم جميعا تسبغون على هذا طابعا دراميا . فى قدرتنا أن نكف عن الاحساس بصورة طبيعية مثلما نـكف عن العمل .

ـ اننا وجدنا فى شخصك يا كيرى مثالا نحتذيه ، سواء رضيت او لم ترض .

ـ مثال لاى شيء ؟ ..

فأجاب ريكيه : لانـكار الذات والتواضع .

ــ انني احذرك يا ريكيه ، بأنك ان لم تكف عن نشر هذا الهراء عني ...

لكنه شعر بعجزه . فقد خانتــه الـكلمات . ولو بادر بضربة لـكانت إبسط وافضل ، لـكن الضرب فات أوانه وسبق السيف العذل ..

ومضى ريكيه يقول : ان اصحاب القداسـة يختارهم النـــاس بالاجماع. ونحن قد اخترناك يا كيرى. انك لم تعد بعد ملك نفسك. لقد فقدت نفسك عندما صليت مع ذلك المجذوم فى قلب الغابة .

ــ انني لم أصل . انني فقط ...

وتوقف .. ما الفائدة ؟ شعر انه مغلوب على أمره مع هـــذا الرجل الغريب . ولم يتذكر الا بعد ان صفق الباب خلفه انه لم يقل شيئا عن مارى ريكيه وعن رحلتها الى (لوك) .

وكانت بالطبع تنتظره بلهفة وصبر عند طرف المشى الآخر. وود او انه جاء معه بكيس من الحلوى لـكى يسرى عنها . وقــد قالت له بانفعال :

ــ هل وافق ؟

ــ انني لم اقل له .

ــ لقد وعدتنى .

ــ انني غضبت ، ونسيت . انا فى غاية الأسف .

فقالت : سأذهب معك الى (لوك) رغم ذلك .

ــ يحسن الا تفعلى .

ــ هل كنت غاضبا جدا معه ؟ ..

ــ ليس تماما . انني ابقيت اكثر الغضب لنفسى .

ــ اذن فأنا ذاهبــة معك .

وتركته قبل أن يجد وقتا للاعتراض ، ثم عادت بعد لحظـــات وليس معها اكثر من حقيبة ليلية صغيرة للرحلة .

وعندما وصلا الى مكان سيارة النقل الصغيرة قال لها :

ــ اليس الأفضل أن اعود واكلمه ؟

ــ قد يرفض . فماذا افعل حينئذ ؟

وبعد أن تركا المصنع وراءهما قالت له بأدب :

ــ هل بناء المستشفى يسير على ما يرام ؟

ــ نعم

ــ وكيف حال رئيس الرهبان ؟

ـ انه بعيد فى مهمة .
ـ هل كانت عندكم عاصفة شديدة يوم السبت الماضى ؟ كانت هكذا عندنا .
فقال لها :
ـ لا لزوم لكى تحدثينى .
ـ ان زوجى يقول اننى كثيرة الصمت .
ـ الصمت ليس شيئا سيئا .
ـ هو كذلك عندما تكون تعيسا .
ـ أنا آسف . لقد نسيت ...
ومضت بهم السيارة بضعةكيلومترات دونكلام . وعندئذ سألته:
ـ لماذا جئت الى هنا ولم تذهب الى مكان آخر ؟
ـ لأنه مكان بعيد .
ـ هناك اماكن اخرى بعيدة . هناك القطب الجنوبى .
ـ عندماكنت فى المطار لم اجد طائرة متجهة الى القطبالجنوبى.
اضحكها هذا الكلام . كان من السهل اضحاك الصغار حتى التعساء منهم . واضاف قائلا :
ـ كانت هناك طائرة متجهة الى طوكيو ، ولكن بدا لى ان هذه المنطقة ابعد كثيرا . ثم اننى لم أكن مشتاقا الى فتيات الجيشا !
ـ هل تعنى انك لم تكن تعرف فعلا الى أين .. ؟
ـ من مزايا السفر باشتراك جوى مفتوح هو ان الانسان لايحتاج الى التفكير فى الوجهة التى يذهب اليها الا فى آخر لحظة.
ـ اليست لك اية عائلة تركتها وراءك ؟
ـ لم تكن لى عائلة . كانت هناك واحدة ، ولكن كان خيرا لها ان تستغنى عنى .
ـ مسكينة .
ـ آه ، لا . انها لم تفقد شيئا له قيمة . من الصعب على المرأة ان تعيش مع رجل لا يحبها .
ـ نعم .
ـ هناك دائما لحظات يكف فيها الانسان عن التظاهر بغير شعوره الحقيقى .
ـ نعم .
واخلدا الى الصمت مرة اخرى الى ان بدأ الظلام يحل حتى اضاء انوار السيارة الامامية . وسطعت الانوار على تمثال لمعبود

خشبي من تلك التماثيل التي تتخلل الغابة ، فشهقت فزعا والتصقت بكتفه قائلة :
ــ انني ارتعب من تلك الأشياء التي لا أفهمها .
فلف ذراعه حول كتفيها يطمئنها . وبعد أن هدأت قالت له :
ــ هل ودعتها ؟
ــ لا .
ــ لكن لابد انها رأتك وانت تجمع متاعك .
ــ لا . انني اسافر خفيفا .
ــ وجئت مبتعدا دون اى شيء .
ــ كان معي موسى حلاقة وفرشاة اسنان وخطاب اعتماد من بنك في أمريكا .
ــ هل تعني حقا انك لم تكن تعرف الى اين كنت ذاهبا ؟
ــ لم تكن عندي فكرة . ولهذا لم تكن هناك فائدة من اخذ ملابس . كان الطريق غير معبد ، واضطر ان يمسك عجلة القيادة بكلتا يديه .
قال لها فجأة : كم اود لو انني لم أقابل زوجك قط . فهو السبب في لفت الأنظار الى وجودي هنا .
ــ وأنا اشاركك هذا الاحساس .
ــ من المؤكد ان هذا لم يسبب لك اى ضرر ؟
ــ أقصد ليتني لم اقابله بتاتا .
وسطعت انوار السيارة على تمثال آخر ، فقالت :
ــ انني اكره هذا المكان . اريد ان اعود الى داري .
ــ اننا قطعنا مسافة بعيدة ولا يمكن العودة الآن .
ــ لا اقصد العودة الى منطقة المصنع . وانما اقصد دار اهلي ومسقط راسي .
كان يدرك تماما ما تنتظر منه ان يقول لها تعقيبا ، لكنه ابى ان يتكلم . فقد علمته التجربة ما يمكن أن يعقب بعض كلمات مقاطعة يقولها ، مهما كانت زائفة ورياء . ان التعاسة اشبه بحيوان جائع رابض قرب الطريق في انتظار أية فريسة .
قال لها : هل لك أصدقاء في (لوك) تنزلين عندهم ؟
ــ ليس لنا أصدقاء هناك . سأذهب معك الى الفندق .
ــ هل تركت رسالة لزوجك ؟
٧

ـ كان هذا افضل .
ـ وهل تركت رسالة خلفك قبل ان تركب تلك الطائرة ؟
ـ كان هذا شيئا مختلفا . لم يكن فى نيتي ان اعود .
فقالت : هلا اقرضتنى مبلغا لشراء تذكرة للعودة الى دارى ـ اقصد الى اوربا ؟
ـ لا .
ـ كنت اخشى الا تقبل فعلا .
ونامت على الأثر ، وكان هذا قد وضع حدا للمشكلة ، ولم يبق شيء يمكن عمله .
فدار فى خاطره هاجس متهور بهذه الكلمات : « مسكينة . ان هذه المخلوقة صغيرة السن كثيرا الى حد لايمكن أن تصبح معه مصدرا للخطر . فقط عندما يكبرن وينضجن تكون الشفقة معهن غير مأمونة العواقب » .

(٢)

كانت الساعة تناهز الحادية عشرة ليلا قبلما درجت بهم سيارة النقل الى (لوك) بعد الميناء النهرى الصغير ، حيث كانت سفينة الأسقف راسية فى موقعها .
وكانت غرف الفندق الذى نزلا فيه غير مكيفة الهواء وجدرانها لا تصل الى السقف ، حتى كانت كل حركة تسمع من الغرفة المجاورة ، وسرى الى سمع كيرى كل صوت صدر عن الفتاة وهى تتهيأ للنوم . وقد جلس يفكر فيما ينبغى أن يقوله لها لكى يهون عليها اذا أخبرها الطبيب فى الصباح انها حامل . وتذكر عندئذ سهره طول الليل الى جانب ديوجراتياس . فقد كان الخوف اذن هو الذى راح يدافعه وقتها كذلك .
ولم يلبث أن اخرج زجاجة ويسكى من حقيبته وصب لنفسه كأسا ، ثم بلغ مسمعه صوت غريب من خلال الحائط ـ بدا له كأنما كانت تبكى . فلم يخامره أى رثاء ، بل استياء فقط . فانها فرضت عليه نفسها فرضا وامست الآن تهدد بافساد نومه . ولم يكن قد خلع ملابسه بعد ، فحمل الزجاجة وطرق بابها .
رأى من فوره انه كان مخطئا . فقد كانت جالسة فى الفراش تقرأ كتابا ، ولابد انها وجدت وقتا لكى تدس الكتاب فى حقيبتها الصغيرة ، فقال لها :
ـ انا آسف . خيل الى اننى سمعتك تبكين .

فقالت : آه ، لا . كنت أضحك . انها رواية مسلية جدا . راى انها رواية شعبية تعالج حياة ضابط انجليزى فى باريس . فقال لها :

ـ اننى جئت معى بهذه احتمالا لاحتياجك الى ما يخفف .

ـ ويسكى ؟ اننى لم أشربه فى حياتى .

ـ يمكنك أن تجربى ، وان كان الأغلب انك لن تحبيه .

وبعد أن ذاقت قليلا منه قال لها :

ـ اظنك لم تحبيه ؟

فقالت : اننى أحب الفكرة ذاتها . ويسكى فى منتصف الليل فى غرفة خاصة بى وحدى .

ـ ان منتصف الليل لم يحن بعد .

ـ انت تعرف قصدى . ثم القراءة فى الفراش أيضا . ان زوجى لا يحب ان اقرأ فى الفراش ، خصوصا كتابا مثل هذا .

ـ وما عيب الكتاب ؟

ـ انه ليس جادا . انه لا يعالج الدين . وطبعا عنده سبب وجيه لهذا التفكير . فاننى لم اتعلم تعليما سليما . ان الراهبات بذلن جهدهن ، لكن التعليم لم يثمر معى .

ـ أنا مسرور لانك لا تشغلين بالك بالغد .

ـ ربما تكون هناك اخبار سارة . اننى اشعر بشىء من المغص فى معدتى فى هذه اللحظة ، ولا يمكن أن يكون السبب هو الويسكى ، أليس كذلك ؟ وربما كان هو (البلوى) المنتظرة !..

هكذا تركت السيدة المهذبة أسلوبها الرقيق وعادت الى الفاظ التسيب فى عنبر البنات . كان من السخف اذن اعتبار مخلوقة (خام) كهذه خطرا على أية صورة .

قال لها : هل كنت سعيدة عندما كنت فى المدرسة ؟

فضمت ركبتيها الى اعلا قائلة : كان ذلك هو النعيم . لماذا لا تجلس ؟

ـ هذا هو انسب وقت لنومك .

نغيرت موضوع الحديث قائلة :

ـ ماذا تنوى أن تفعل بعد اتمام المستشفى ؟

كان من المستحيل الا يعاملها كطفلة . وكان يعرف ان امثل أسلوب لمعاملة الصغار هو [illegible]

ـ لابد لك من هذا ـ يوما ما ـ فى اجازة .
ـ ربما غيرى ، وليس انا .
ـ سوف تمرض فى النهاية اذا بقيت .
ـ انا قوى الاحتمال . وعلى اى حال ما الذى يهمنى ؟ اننا جميعا سنصاب عاجلا او آجلا بمرض واحد ، هو الشيخوخة . هل ترين تلك العلامات الرمادية على ظهر يدى ؟ ـ ان امى كانت تقول انها علامات القبر ؟
فقالت بأسلوب ناظر مدرسة :
ـ انت كئيب جدا . اننى لا افهمك حقيقة . انا مضطرة للبقاء هنا . لكن يا الهى ، لو كنت حرة مثلك ...
ـ ساحكى لك حكاية .
وصب لنفسه كأسا اخرى كانت ثلاثة اضعاف الكاس الاولى ، فقالت :
ـ هذه كمية مضاعفة . لعلك لست شاربا كبيرا ؟ أما زوجى فهو كذلك .
ـ أنا رجل معتدل . ان هذه الكمية ستساعدنى فى حكاية القصة . اننى لم أتعود حكاية القصص . كيف تبدأ عادة ؟
واخذ يشرب ببطء ، قائلا :
ـ يحكى انه كان فى سالف العصر والاوان ...
فقالت : اظن اننى وانت اكبر من الحكايات الخرافية ...
ـ نعم . وهذه الحكاية فى بعض نواحيها مثل ذلك كما سترين . يحكى انه كان هناك صبى ولد عاش فى قلب الريف .
ـ هل كنت انت ذلك الصبى ؟
ـ لا . يجب الا تخلطى الامثلة . يقولون دائما ان القصصى يختار من تجاربه العامة فى الحياة ، لا من وقائع معينة .
ـ استمر .
ـ كان هذا الصبى يعيش مع ابويه فى مزرعة ـ لم تكن مزرعة كبيرة جدا ، ولكنها كانت من الكبر بحيث تتسع لهم ، واثنين من الخدم ، وستة عمال ، وكلب ، وقط ، وبقرة ... واظن انه كان يوجد خنزير ايضا .
ـ يظهر ان الحكاية مليئة بالشخصيات الكثيرة جدا . سوف يغلبنى النوم اذا حاولت أن اتذكر الشخصيات كلها .
ـ وهذا هو ما احاول ان افعله . وكان والدا الصبى يقولان

له حكايات عن ملك يعيش فى مدينة تبعد عنهم مائة ميل ــ مثل المسافة التى تبعد عن أبعد نجم فى السماء .

ــ كلام فارغ . ان النجم يبعد بلايين وبلايين من الأميال ...

ــ نعم . ولكن الصبى كان يتصور أن النجم يبعد مائة ميل . فهو لم يكن يعرف شيئا عن السنوات الضوئية . وكانا يقولان له ان هذا الملك وان كان بعيدا الا انه يراقب كل شيء يجرى فى كل مكان . فاذا ولد خنزير عرف الملك ، واذا احترقت فرشة لدى المصباح عرف الملك ، واذا تزوج رجل وامرأة عرف الملك ايضا ، بل انه كان يسر بذلك ، لأنه اذا جاءهما مولود زادت رعيتـــه ، وهكذا كان يكافئهما ، وان كان احد لايدرى المكافاة ، وكثيرا ما كانت المراة تموت وهى تضع ، والطفل يولد احيـــانا وهو اعمى او اصم ، ومع ذلك فان احدا لايرى الهواء ، وان كان موجودا طبقا لراى العارفين . واذا ارتكب انسان مع امراة اثما عاقبه الملك ، وان كان أحد لايرى العقاب . واحيانا يؤجل العقاب الى حين أو يؤجل الى نهاية الحياة ، لـكن ذلك لم يكن يغير من الأمر شيئا ، لأن الملك كان ملك الموتى ايضا ، ولا يمكن أن يتصور احد مايدخره لهم من أهوال فى القبر .

« وشرب الصبى وترعرع . وتزوج زواجا مناسبا وكافاه الملك ، وان كان ابنه الوحيد قد توفى ولم يتقدم هو فى مهنته ــ كان يريد دائما أن ينحت تماثيل ، تبلغ فى كبرها واهميتها تمثال ابى الهول . وبعد وفاة ابنه تشاجر مع زوجته وعاقبه الملك عن ذلك . وبالطبع لم يكن بوسع احد أن يرى العقاب ولا المكافاة كما قلت . وبمضى الوقت اصبح صائغا مشهورا ، فان واحدة من النساء اللاتىأعجبنه اعطته مالا لاتقان تدريبه ، واستطاع ان يصوغ أشياء جميلة كثيرة مرضاة لحبيبته وللملك بالطبع . وبدات المكافآت تنهـــال عليه ، والمال أيضا . ثم ترك زوجته وترك حبيبته ، وترك نساء كثيرات ، بعد أن كانت له معهن وقائع عديدة . كان يسمى هذا حبا وكن يسمينه كذلك هن ايضا ، ولابد انه عوقب عن هذا ، ولـكن ما كان لانسان أن يرى العقاب بالطبع .

« ثم زاد غنى ، وصاغ حليا اجمل وابدع ، وزادت النســـاء افتتانا به ، ولـكن المشكلة انه بدأ يمل ويزيد مللا . فما من أحد كان يابى عليه شيئا أو يقول له لا . وما من أحد جعله يتألم أو يتعذب ــ كان الآخرون هم الذين يتألمون ويتعذبون . وكان يمكن

احيانا لمجرد التفيير ان يستعذب الاحساس بالم العقاب الذي لابد ان الملك كان ينزله به طول الوقت . وكان بوسعه ان يرتحل الى اي مكان شاء ، وبعد فترة كان يبدو له أنه ارتحل الى أبعد من المائة ميل التي تفصله عن الملك ، والى أبعد من النجم الأقصى ، ولكنه أينما ولى وجهه كان يعود دائما الى نفس المكان الذي تحدث فيه نفس الأشياء : مقالات في الصحف تطري براعته في الصياغة ، ونساء يتهافتن عليه من كل طراز ، وحاشية للملك تطنب في مدح مناقبه وتنعته بأنه من المخلصين الأوفياء بين الرعية .

« وبسبب ان الناس لم يكونوا يرون الا المكافأة والتكريم ، ولأن العقاب كان خافيا مستترا ، فقد اشتهر صاحبنا بانه رجل صالح . ومن الناس من كان يحيرهم أحيانا استمتاع مثل هذا الرجل الصالح بكل أولئك النساء — وهي محاذير تنافي الاخلاص للملك الذي استن شرائع اخرى . لكنهم اعتادوا مع الوقت أن يفسروا هذا بانه طاقة كبرى تتسع لهذا الحب الكبير ، وكانوا ينظرون الى الحب دائما على انه أسمى المناقب . ثم كانت الصدمة الكبرى حين اكتشف ذات يوم انه لم يكن يحب على الاطلاق » .

— وكيف اكتشف هذا ؟

— كان ذلك أول عدة اكتشافات هامة تهيأت له في ذلك الوقت. هل قلت لك انه كان رجلا ذكيا جدا ، أذكى كثيرا ممن حوله من الناس ؟ كان حتى وهو صبي قد أكتشف لنفسه كنه الملك . فقد كان أبواه يروون عنه قصصا كثيرة تدور كلها حول محبتهم له ، دون أن يتجاوزوا هذا الى ابعد منه . أما هو فقد أقام البرهان على ان الملك موجود ماثل بحكم الأدلة التاريخية والمنطقية والفلسفية. وكان أبواه يقولان ان هذا مضيعة للوقت ، لأنهم يعرفونه بالفطرة ، وانه ماثل في قلوبهم رغم كل أسانيده وبراهينه .

— انني لا احب الكلام الرمزي ، ولا أحب بطل حكايتك .

— وهو لا يحب نفسه كثيرا ، وهذا هو السبب في انه لم يتكلم قط من قبل — الا بهذه الطريقة .

— ومتى تصل الى ذروة الحكاية ؟ هل لها نهاية سعيدة ؟ انني لا أريد ان اظل مستيقظة الا اذا كانت كذلك . لماذا لا تصف لي بعض أولئك النساء ؟

— انت مثل كثير من النقاد . تريدين مني أن أكتب القصة التي تطابق هواك .

ـ هل قرأت قصة مانون ليسكو ؟
ـ منذ سنوات بعيدة .
ـ كنا في الدير نحبها كلنا . طبعا كانت ممنوعة . وكنا نتبادلها يدا ليد ، وقد الصقت على نسختها غلاف كتاب م . لوجين المعروف باسم (تاريخ الحروب الدينية) . وما زالت عندي حتى الآن .
ـ لابد أن تدعيني أكمل حكايتي .
فقالت مستسلمة وهي تستلقي الى الخلف مستندة الى الوسائد:
ـ آه ، لابأس . ان كان لابد من هذا .
ـ أخبرتك عن الاكتشاف الأول الذي تهيأ لبطل حكايتي. اما الثاني فقد جاء بعد ذلك بكثير عندما أدرك انه لم يولد ليكون فنانا على الاطلاق : وانما مجرد صائغ بارع ، فقد صنع حلية ذهبية على شكل بيضة نعام : كانت كلها من المينا والذهب ، واذا فتحها الانسان وجد داخلها تمثالا صغيرا من الذهب جالسا الى منضدة . وعلى المنضدة بيضة صغيرة من الذهب والمينا ، واذا فتح هذه وجد داخلها تمثالا صغيرا جالسا الى منضدة وبيضة صغيرة من الذهب والمينا ، واذا فتح هذه ... لست بحاجة الى استمرار الوصف . كان كل انسان يقول انه صائغ حاذق ، لكنهم اغدقوا عليه ابدع الثناء بسبب جدية مادته ، اذ كان يضع فوق قمة كل بيضة صليبا من ذهب مرصعا بالأحجار الكريمة تمجيدا للملك . وكانت المشكلة انه أضنى نفسه بتصميمه المبتكر. ثم عندما كان يصنع محتويات البيضة الأخيرة مستعينا بعدسة بصرته ـ وهي ما كانوا يسمونه العدسات المكبرة في قديم الزمان وسالف العصر والأوان الذي حدثت فيه هذه الحكاية ، لأنها بالطبع لا تمت بمشابهة لعصرنا هذا ولا لأي شخصية من الشخصيات المعاصرة ...
واحتسى كيري جرعة أخرى كبيرة من الويسكي . ولم يعد بوسعه أن يتذكر كم طال به الوقت منذ أن انتابه هذا الابتهاج الغريب الذي لابسه الآن . وقال :
ـ ما الذي كنت أقوله؟ اظن انني سكرت شيئا ما . ان الويسكي لايؤثر في عادة بهذه الكيفية .
فأجابه الصوت المشبع بالنوم من تحت الغطاء :
ـ كنت تتكلم عن بيضة .
ـ آه ، نعم . هو الاكتشاف الثاني . فجأة ادرك بطلنا الى اى حد يشعر بالملل ـ اصبح لايريد أن يمد يده من جديد لتركيب

اية حلية جديدة . لقد نفض يده من مهنته ــ وصل الى النهاية . ما كان له ان يصنع شيئا اكثر ابداعا كالذى صنعه حتى الآن ، ولا أكثر عمقا ، ولم يعد يطيق سماع اى اطراء أغلى مما تلقاه من قبل .

ــ وإذن فماذا حدث ؟

ــ ذهب الى منزل رقمه ٤٩ فى شارع يسمى شارع دى رمبار حيث كانت عشيقته تستاجر شقة بعد أن هجرت زوجها . وكان اسمها مارى مثل اسمك . فوجد جمعا من الناس خارج المنزل . ووجد الطبيب والبوليس هناك ايضا لانها قتلت نفسها منذ ساعة.

ــ يا للبشاعة !

ــ لم يكن هذا فى نظره . فمنذ امد طويل كان قد وصل الى نهاية المسرة كما وصل الآن الى نهاية العمل .

هــذه حكاية خرافية كريهة جدا .

بهذه الكلمات جاءه صوتها من تحت الغطاء حيث كانت قد جذبت الغطاء فوقها . لكنه لم يعبأ بانتقادها ومضى يقول :

ــ اقول لك انه ليس من السهل ان يترك الانسان مهنتــه كما لا يسهل أن تترك المرأة زوجا . فى كلتا الحالتين يكلمك الناس كثيرا عن الواجب . فقد جاءه الناس يطلبون أن يصنع لهم بيضا تعلوه صلبان (كان هذا واجبه نحو الملك ونحو اتباع الملك) . وبدا من الضجة التى اقاموها كانه لا يوجد احد غيره يستطيع ان يصنع بيضا او صلبانا . لقد اصبح فى نظر الجميع صائغ الملك . وماكان لشىء أن يغير هذا . وبدأ الكتاب يضعون الكتب عن فنه ، وكانت الكتب كلها تقول نفس الشىء ، وعندما قرأ بطلنا كتابا واحدا منها كان كانه قراها جميعا .

وعندئذ جاءه الصوت من تحت الغطاء يقول :

ــ لماذا تصر على أن تسميه صائغا. انت تعرف تماما انه مهندس معمــــــارى .

ــ انني حذرتك الا تربطى بين الشخصيات الواقعية وبين حكايتى. ستقولين فى المرة التالية انك تعرفت على نفسك فى شخص مارى الأخرى ، وان كنت لست بحمد الله من النوع الذى يقتل نفسه .

فقالت له : قد تدهش اذا عرفت ما يمكن أن أفعله . ان حكايتك ليست بحال مثل قصة مانون ليسكو، ولكنها مثيرة للحزن رغم ذلك .

ــ ان ما لم يعرفه احد من أولئك النـــاس هو أن بطلنا قد

اكتشف في نفسه اكتشافا رهيبا . فقد تبخرت كل معتقداته الماضية وافسدها الغرور والنجاح ، واصبح قلبه يخفق فقط بالغرور كلما اتم مبنى ...

ــ قلت (مبنى) ؟

ــ كلما اتم حلية او انتصر على امراة .

وحانت منه التفاتة الى الويسكى فى الزجاجة ، فراى انه لافائدة من الابقاء على القليل الذى بقى بها ، وهكذا افرغه فى كاسه ولم يكلف نفسه عناء اضافة ماء اليه .

واستطرد يقول :

ــ لقد ادرك انه كان يخدع نفسه كما كان يخدع الآخرين . كان يعتقد مخلصا انه عندما يحب عمله فهو يحب الملك ، وانه عندما كان يحب امراة فانه كان على الاقل يقلد بطريقة خاطئة محبة الملك لرعيته.

فقالت الفتاة : اراك بدات تخلط الأشياء خلطا .

ــ ثم ادرك فى النهاية ان كل ما كان يعمله انما كان يعمله حبا لنفسه فقط . فكيف يكون هناك اى جدوى بعد ذلك فى صنع حلى او التعلق بحب امراة من اجل متعته وحده ؟ ان هذا الخواء المطبق الشامل الذى اصبح يعيش فيه قد يكون عقابه على تحطيم النواميس التى اقدم على تحطيمها عامدا . بل من الجائز ان يكون هذا هو ما يسميه الناس بالألم . ان المشكلة كانت معقدة الى حد السخف، وقد بدا يحسد ابويه على بساطتهما وسلامة فطرتهما.

ــ وماذا بعد ذلك ؟

ــ قلت لك انه من الصعب ان يترك الانسان مهنته كما يصعب ان تترك المرأة زوجا . فاذا تركت زوجك فأمامك الأيام والليالى الطويلة التى تلاحقك ، وهناك المكالمات التليفونية التى يعرب بها الأصدقاء عن مشاعرهم الطيبة والنبذات التى تنشرها الصحف . لكن هذا الجانب من الحكاية ليس فيه تشويق حقيقى.

فقالت : وهكذا اخذ صاحبنا اشتراكا مفتوحا للسفر بالطائرات.

نفد الويسكى عن آخره . وبزغ الفجر فجاة فى الاقليم الاستوائى مثل شىء انشق مرة واحدة فى استدارة السماء . فقال لها :

ــ لقد ابقيتك مستيقظة طوال الليل .

ــ ليتك حكيت لى قصة عاطفية . على كل حال فان حكايتك صرفت ذهنى عن اشياء كثيرة .

وتضاحكت تحت الغطاء ، واردفت تقول :

ـ بامكاني ان أقول له اننا أمضينا الليل معا . هل تظن انه قد يطلقني ؟ لا اظن . ان الـكنيسة لن تسمح بالطلاق .

ـ هل انت تعسة الى هذا الحد فعلا ؟

لم يجبه رد . ان النوم يلم بالصغار فجأة مثل بزوغ الفجر في البلدة الاستوائية . ففتح الباب بهدوء وخرج الى المشى الذى كان لايزال مظلما لايضيئه سوى مصباح ليلى شاحب . وعلى قيد غرف من مكانه سمع صوت باب يقفله نائم متأخر أو مستيقظ مبـكر . فجلس في فراشه والضوء يزداد من حوله .

كانت ساعة الهدوء والصفاء .

ولعله وجد هنا موطنا وحياة .

الفصل الثاني

(١)

خرج كيري مبكرا لانجاز كثير من المهام التي كلفه بها الدكتور كولين قبل أن يشتد الحر . ولم يشاهد اى أثر لماري ريكيه وقت الافطار ، كما لم يسمع اى صوت من خلال الفاصل بين غرفتيهما. وعرج على الكاتدرائية فجمع الرسائل التي كانت تنتظر السفينة التالية ، وقد سر اذ لم يجد بينها رسالة موجهة اليه. ان صاحبة الرسالة الأخيرة قد ابدت برسالتها لفتة أخيرة اليه في مقره المجهول، وكان يرجو في قرارة نفسه ان تكون لفتتها من قبيل الواجب والعرف لا الحب ، وعندئذ لا يؤدى سكوته الى مزيد من جرح شعورها .

وعندما عاد الى الفندق حوالى الظهر وجد في المشرب رجلا كان هو باركنسون . ولما رآه باركنسون رفع كأسه قائلا :

ــ خذ كأسا على حسابي .

ــ كنت اظن انك سافرت .

ــ سافرت حتى مدينة ستانلي فيل فقط لمتابعة الأحداث . وبعد ان ارسلت مقالي اجدني الآن حرا مرة اخرى الى ان يجد جديد .

ــ الى متى ستبقى هنا ؟

ــ الى ان تصلني برقية من ادارة المجلة . ان قصتك لقيت نجاحا . وربما طلبوا مني مقالا ثالثا عنها .

ــ انك لم تستخدم ما زودتك به .

ــ نحن نكتب للعائلات ايضا .

ــ لن تحصل مني على شيء آخر .

فقال باركنسون : قد تدهش لما يفعله الحظ احيانا بالانسان . ان المقال الأول كان نجاحا ساحقا . لقد نشر في بلاد عديدة ، ولقى رواجا بين الأمريكيين خاصة لما اشتمل عليه من مزيج بين الدين

ومناهضة الاستعمار . وهناك فقط شيء واحد اسفت له ــ فانك لم تأخذ لى تلك الصورة الفوتوغرافية وانا محمول الى الشاطيء محموما . وقد استعضت بصورة أخذتها مدام ريكيه . الى أين تذهب ؟

ــ الى غرفتى ...

ــ آه ، نعم . غرفتك رقم ٦ فى نفس المشى الذى انا فيه ، اليس كذلك ؟

ــ رقم ٧ .

ــ آه ، رقم ٧ . لعلك غير مستاء منى ؟ أؤكد لك اننى لم أكن اعنى تلك الكلمات الغاضبة التى صدرت منى فى ذلك اليوم . كان المقصود منها حملك على الكلام .

وفى هذه اللحظة فتح الباب الخارجى حيث الشمس المتقدة ودخلت مارى ريكيه . فقال باركنسون مبتهجا :

ــ انظر من القادم ؟

ــ اننى أركبت مدام ريكيه فى سيارتى من المزرعة .

فقال باركنسون للساقى : كاس أخرى من (الجين) .

فقالت مدام ريكيه بانجليزيتها الملتوية :

ــ لا أشرب (الجين) .

فقال باركنسون : وماذا تشربين ؟ الحقيقة اننى لا اتذكر اننى رايتك مرة وفى يدك كاس . هل تشربين عصير البرتقال يا طفلتى ؟

فقالت مدام ريكيه متفاخرة : أنا مغرمة جدا بالويسكى .

ــ احسنت . اراك كبرت بسرعة !

وانتقل بنفسه الى المقصف لطلب الشراب ، وفى هذه اللحظة سألها كيرى :

ــ هل من جديد ؟ ...

ــ ان الطبيب لايمكنه الجزم بشيء ــ الى بعد غد . وهو يظن ..

ــ نعم .

فقالت باكتئاب : يظن اننى (شبكت) .

وعندئذ عاد اليهما باركنسون بالشراب قائلا :

ــ سمعت ان الرجل العجوز مصاب بالحمى .

ــ نعم .

ــ أنا خبير بها . انه محظوظ أن يجد زوجة شابة تمرضه .

ــ انه لا يحتاج الى كممرضة .

ـ هل ستبقين هنا طويلا ؟
ـ لا اعرف . ربما يومان .
ـ هناك فرصة اذن لاكلة معى ؟
فقالت دون تردد : آه ، لا . لا وقت لذلك .
فابتسم بلا مرح . وبعد ان احتوت كاسها قالت لكيرى :
ـ سنتغدى معا ، انت وانا ، اليس كذلك ؟ امهلنى دقيقة لغسل يدى ، وساحضر مفتاحى .
فتطوع باركنسون باحضار المفتاح قبل ان تجد فرصة للاعتراض، وقد حمله اليها قائلا :
ـ رقم ٦ . نحن الثلاثة فى طابق واحد .
فقال كيرى : ساصعد معك .
وما كادت تدخل غرفتها حتى عادت الى كيرى مسرعة وقالت :
ـ هل يمكن أن ادخل عندك ؟ ان غرفتى فى حالة شنيعة ، فقد استيقظت متأخرة ولم يرتبوا الفراش بعد .
ومسحت وجهها بمنشفة ، ثم نظرت مستاءة الى الآثار التى خلفتها المساحيق فى المنشفة ، قائلة :
ـ انا آسفة . لم اقصد ان اتسبب فى هذه الفوضى .
ـ لا يهم .
ـ النساء مقززات ، اليس كذلك ؟
ـ بعد عمر طويل ، لم اجدهن كذلك .
ـ انظر الى الورطة التى تسببت لك فيها . امامنا اربع وعشرون أخرى فى هذا المأزق .
ـ الا يمكن أن يكتب اليك الطبيب بالنتيجة ؟
ـ لا يمكن ان اعود قبل ان اعرف . ان كانت النتيجة نعم فلابد ان أخبر زوجى فى الحال . وعلى أى حال فان هذا كان هو المبرر لرحلتى .
ـ وان كانت النتيجة (لا) ؟
ـ ساكون سعيدة جدا الى درجة لا يهمنى معها اى شىء . بل ربما لا اعود اليه .
ـ اليست عندك اية رغبة بتاتا فى طفل ؟
ـ ربكيه اصغر ؟ لا .
واخذت المشط من فرشاته ودسته فى شعرها دون ان تنظر فيه ، قائلة :

ـ لعلى لم اضغط عليك لتناول الغداء معك؟ ألم تكن تنوى الغداء مع احد آخر ؟

ـ لا .

ـ الحقيقة هي انني لا اطيق ذلك المدعو باركنسون . لكن كان من المستحيل الابتعاد عنه في (لوك) . فلم يكن في البلدة أكثر من مطعمين ، واختار ثلاثتهم نفس المطعم . وكانوا هم كل رواده. وكان يراقبهما وهو يزدرد طعامه من مائدته المجاورة للبـــاب وقد علق الكاميرا على المقعد المجاور له .

وقالت مارى ريكيه وهي تتناول كمية ثانية من البطاطس :

ـ لا تقل انني أتناول طعام أثنين .

ـ لن اقول .

ـ هذه هي النكتة التي يقولونها هنا عن المريض بالديدان .

ـ كيف حال المغص المعوى ؟

ـ ذهب بكل أســـف . كان من رأى الطبيب انه لا علاقة له بموضوع الحمل .

ـ الا يحسن ان تتصلى بزوجك تليفونيا ؟ من المؤكد انه ســـوف يقلق اذا لم تعودى اليوم .

ـ يحتمل ان تكون الخطوط التليفونية معطلة هي كذلك عادة .

ولـكنها راجعت نفسها بعد تناول الحلوى ، قائلة :

ـ اظنك على حق . سأتـكلم بالتليفون .

وتركته وحده يشرب القهوة .

وناداه باركنسون من مكانه قائلا :

ـ البريد لم يصل بعد . كنت أنتظر نسخة من مقالى الثاني . سأتركها في غرفتك اذا جاءت . اهى رقم ٦ ام ٧ ؟ لا فائدة اذا اخطأت الغرفة .

ـ لا تشغل بالك .

ـ انت مدين لى بصـــورة فوتوغرافيـــة . ربما تتكرم بها مع مدام ريكيه .

ـ لن تحصل على صورة منى يا باركنسون .

ودفع كيرى الحساب وذهب الى مكان التليفون ، فوجده على مكتب امرأة زرقاء الشعر والنظارات ، تدون الحسابات بقلم برتقالى. فقالت له مدام ريكيه :

ـ التليفون يدق . لـكنه لا يرد .

ـ ارجو الا تكون الحمى قد اشتدت .
ـ ربما خرج الى المصنع .
ووضعت سماعة التليفون قائلة :
ـ انني بذلت جهدي ، اليس كذلك ؟
ـ يمكنك ان تحاولي مرة ثانية هذا المساء قبل ان نتناول العشاء .
ـ أنت مقيد بي ، اليس كذلك ؟
ـ لا انت ولا انا كذلك .
ـ اليست عندك حكايات اخرى تقولها ؟
ـ لا . لا اعرف الا حكاية واحدة .
فقالت : الوقت ثقيل حتى الغد . لا اعرف ماذا افعل الى ان اعرف نتيجة الفحص الطبي .
ـ استريحي فترة .
ـ لايمكنني . ما رأيك اذا ذهبت الى الكاتدرائية وصليت ؟
ـ كما تحبين .
ـ هل يغير هذا من النتيجة ؟
ـ لا تنتظري مني ان اتكلم في هذه المسائل .
ـ بامكاني أن ادعو لنفسي بالسعادة .
ـ ممكن
ـ واظن ان هذا الدعاء سوف يشمل كل شيء .

(٢)

وجد كيري ايضا الوقت ثقيلا بطيئا . وبعد جولة في البلدة على غير هدف عاد الى الفندق ليجد باركنسون في المقصف وعيناه على الباب . وما ان رآه حتى تقدم اليه على أطراف اصابعه وقال له وهو يبتسم ابتسامة ماكرة تنبيء في نفس الوقت عن شيء هام ملح :
ـ لابد لي من كلمة هادئة معك قبل ان تصعد الى غرفتك .
ـ عن اى شيء ؟
فأجاب باركنسون : عن الموقف العام . هناك عاصفة في الأفق . هل تعرف من هناك فوق ؟
ـ تبدو عليك اللهفة للكلام . تكلم .
فقال باركنسون بصوت غليظ : الزوج .
ـ اى زوج ؟
ـ ريكيه . انه يبحث عن زوجته .
ـ اظن انه سوف يجدها في الكاتدرائية .

ـ المسالة ليست بهذه البساطة . انه يعرف انك معها .
ـ طبعا يعرف . انني كنت في بيته امس .
ـ ومع ذلك لا اظن انه كان يتوقع أن يجدكما هنـــا في غرفتين متجاورتين .

فقال كيري : تفكيرك مثل تفكير كتاب القيل والقال . ما الفرق اذا تجاورت الغرف ؟ بالامكان التلاقي حتى لو كانت الغرفتـــان في مكانين متباعدين .

ـ لا تستهين بكتاب مقالات القيل والقال . انهم يكتبون للتاريخ.
ـ لا اظن ان التاريخ سوف يعنيه شيء من ريكيه وزوجتـــه .
وتقدم الى المكتب وقال للمرأة :
ـ اريد حسابي من فضلك . ساغادر الفندق الآن .
فقال باركنسون : اتهرب ؟
ـ ولم الهروب ؟ انني كنت باقيا فقط لـكي اعيـدها بسيارتي كما جئت بها . اما الآن فانني اتركها لزوجها ، فهو المسئول عنها .

فقال باركنسون : انت شيطان كبير . لقد بدات اصـدق بعض الأشياء التي قلتها لي .

ـ انشرها بدلا من هرائك الأخلاقي السخيف . ربما يـكون من المشوق ان تقول الحقيقة مرة .
ـ مهما يكن فان ما كتبته عنك حقيقي .
ـ لا .
ـلقد دفنت نفسك هنا ، اليس كذلك ؟ وانت تعمل من اجل المجذومين . وقد دخلت الى قلب الغابة بالليـــل فعلا لانقـــاذ ذلك الرجل ... ان حصيلة هذا كله هي ما يحب النـــاس أن يسموه بالصـــلاح .

ـ انا أدرى الناس بدوافعي .
ـ ان التاريخ قد ياخذ بتأويلاتي مثلما ياخذ بتأويلاتك . سبق ان قلت لك يا كيري انني سوف ارفعك الى عليين . اللهم الا اذا وجدت بالطبع كما يبـــدو الآن محتملا ان القصة ستكون حفـــل بالاثارة اذا هدمتك .

ـ هل تعتقد فعلا ان لك كل هذه القدرة ؟
ـ ان مونتاجو باركنسون له قراء في اكبر صحف العالم .
وعندئذ قالت المرأة ذات الشعر الأزرق :
ـ الحساب يامسيو كيري .

وعندما استدار لكى يدفع قال له باركنسون :
ــ أليس الأفضل أن تطلب منى معروفا ؟
ــ لست افهم .
ــ انني صادفت مصاعب كثيرة فى مهنتي حتى تعرضت مرات للضرب والحبس وكثير من أنواع العدوان . والغريب فى كل هذا أن أحدا ممن كنت أتعامل معهم لم يحاول أن يفهمنى ويعرف ما فى نفسى من طيبة . ان هذا قد يكون أنجع .
فقال كيرى برفق وقد لمس ما فى نبراته من حزن حقيقى :
ــ ربما كنت أفعل ما تقول ، لو كنت اهتم بأى شىء .
فقال باركنسون : لايمكنني ان أطيق تلك اللامبالاة اللعينة البادية منك . هل تعرف ماذا وجد ريكيه فوق ؟ هناك منشفة فى غرفتك . انني أريتها له بنفسى . ومشط به شعر طويل . لقد خاب ظنى فيك يا كيرى . انني بدأت أصدق قصتي عنك .
فقال كيرى : هذا من دواعى الأسف .
وفى هذه اللحظة سمع صوت رجل يتعثر فى استدارة السلالم . كان ريكيه يهبط . وكان بيده كتاب له غلاف قرمزى لين . وكانت أصابعه تهتز فوق حاجز السلالم وهو يهبط من اثر الحمى أو بتأثير الانفعال . وقد توقف قائلا : كيرى .
ــ أهلا يا ريكيه . هل تشعر بتحسن ؟
فقال ريكيه : لا استطيع أن أفهم الحكاية . انت من دون الناس فى الدنيا كلها !.. كنت أظنك صديقى يا كيرى !
فقال كيرى : لا اعرف ما الذى تتكلم عنه يا ريكيه . يحسن أن تأتى معى الى (البار) . سنكون هناك وحدنا أكثر .
وتأهب باركنسون لمتابعتهما ، بيد أن كيرى اعترض طريقه فى المدخل قائلا :
ــ لا . ليست هذه قصة للنشر فى مجلة (بوست) .
فقال ريكيه بالانجليزية : ليس عندى ما أخفيه عن مستر باركنسون .
ــ كما تحب .
كانت شدة الحر قد ابعدت كل انسان حتى الساقى . وقد قال كيرى :
ــ ان زوجتك حاولت أن تتصل بك تليفونيا وقت الغداء ، لكن لم يرد عليها أحد .

ـ وماذا تظن ؟ انني كنت في الطريق منذ الساعة السادسة صباحا .
ـ يسرني انك جئت . يمكنني الآن ان ارحل .
فقال ريكيه : لا فائدة من انكار اى شيء يا كيرى ، اى شيء على الاطلاق . انني كنت في غرفة زوجتي ، رقم ٦ ، فلم أجدها ، وعرفت انها كانت في غرفتك ، رقم ٧ .
ـ لا لزوم للتسرع واستنتاج أشياء سخيفة يا ريكيه . حتى بخصوص المناشف والأمشاط . ماذا اذا كانت غسلت وجهها في غرفتي صباح اليوم ؟ أما عن الغرف فانها كانت الوحيدة الجاهزة عند وصولنا .
ـ لماذا ذهبت معها دون حتى ولو كلمة .. ؟
ـ كنت انوي ان اخبرك ، لكنني تكلمت انا وانت في أشياء اخرى .
وتطلع الى ناحية باركنسون الذي وقف مستندا الى المقصف . فرآه يراقب حركات شفاههما بدقة وكأنه بذلك يستشف مدلول الكلام .
قال ريكيه : انها ذهبت وتركتني مريضا بحمى شديدة ...
ـ كان عندك خادمك . كان لديها أشياء تفعلها في البلدة .
ـ اية أشياء ؟
ـ اظن انها صاحبة الشأن في ان تقول لك يا ريكيه . للمرأة أن تكون لها اسرارها الخاصة .
ـ يبدو انك تشاطرها تماما هذه الاسرار . اليس للزوج حق..؟
ـ انت مغرم كثيرا بالكلام عن الحقوق يا ريكيه . ان لها حقوقها ايضا . لكنني لا انوى أن اقف واجادل ...
ـ الى اين تذهب ؟
ـ للبحث عن تابعي . اريد أن أبدأ رحلة العودة . يمكننا أن نقطع مسافة اربع ساعات تقريبا قبل حلول الظلام .
ـ عندى كلام كثير اقوله لك .
ـ ماذا ؟ عن العقيدة والتدين ؟
فقال ريكيه : لا . عن هذا .
وفتح الكتاب الذى بيده عن صفحة مصدرة بتاريخ . فرأى كيرى أنها كراسة يوميات ذات سطور مخطوطة ، وبها كتابة متأنية دقيقة كالتي تكتبها البنات في المدرسة . وقال ريكيه : اقرأ .
ـ انا لا اقرأ يوميات الغير .

ـ اذن فسأقرأ لك : « امضيت الليل مع ك » .
فابتسم كيري وقال : هذا صحيح ـ الى حد ما ـ اننا جلسنا نشرب الويسكي ، وقد حكيت لها حكاية طويلة .
ـ انا لا اصدق كلمة واحدة مما تقول .
ـ انت لا تستحق خيرا يا ريكيه ، لكنني لم اعتد اغواء صغيرات السن .
ـ أنا اعرف ما ستقوله المحاكم فى هذا .
ـ احترس يا ريكيه . لا تهددني . ربما أغير رأيي .
فقال ريكيه : بامكاني أن اجعلك تدفع غاليا .
ـ اشك فى وجود محكمة فى العالم تأخذ بكلامك ضد كلامها وكلامي . وداعا يا ريكيه .
ـ لايمكن أن تذهب من هنا وكأنه لم يحدث شيء .
ـ كنت أود ان اتركك على نار من ظنونك ، لكن هذا ليس من الانصاف لها . لم يحدث أى شيء يا ريكيه . انني حتى لم أقبل زوجتك . انها لا تستهويني بأى حال .
ـ بأى حق تحتقرنا على هذه الصورة ؟
ـ كن رجلا عاقلا . اعد تلك المفكرة الى مكانها ولا تقل شيئا .
ـ « امضيت الليل مع ك » ـ ثم لا أقول شيئا !
فالتفت كيري الى باركنسون وقال له : قدم شرابا لصاحبك واجعله يعقل . انت مدين له بمقال نشرته .
فقال باركنسون مكتئبا : ان مبارزة يمكن أن تكون منها قصة مثيرة .
فقال ريكيه : من حسن حظها انني لست من اهل العنف ، ان جلدها بالسوط ...
ـ أهذا جزء من تعاليم الزواج الصالح التى تنافق بها ؟ ..
واستحوذ عليه اعياء بالغ . فطالما شب وهو يشهد مثل هذه المواقف . وكذلك مر بين الرجلين دون أن يعبأ بصراخ ريكيه وهو يقول : انني سأطالب بحقي ...
وعندما جلس فى مقصورة سيارة النقل الصغيرة الى جانب ديوجراتياس عادت اليه سكينته من جديد . وقال له :
ـ انك لم تعد مرة اخرى الى قلب الغابة ، وأنا اعرف انك لن تأخذني الى هناك . ومع ذلك كم اتمنى هذا .
فجلس ديوجراتياس مطرقا دون أن يجيب . فقال كيري : لابأس .

وتوقف كيرى بالسيارة خارج الكاتدرائية ونزل. كان من الصواب ان يحذرها. ووجدها جالسة تحت تمثال قديسة شابة ، فقال لها :
ــ ان زوجك فى الفندق .
فقالت بصوت فاتر : احقا ؟ ..
ــ انه قرا مفكرة تركتها فى غرفتك . ما كان يجب أن تكتبى ما كتبت ـ « أمضيت الليل مع ك » .
ــ كان هذا حقيقيا ، اليس كذلك؟ وفضلا عن هذا فانني وضعت علامة تعجب لكى ابين ان الكلام غير جدى ، فقد تعودت وانا اتعلم فى الدير ان هذه علامة المبالغة .
ــ لا اظن ان زوجك يعرف رموز الدير .
فقالت ضاحكة : اذن فهو يعتقد فعلا ...
ــ انني حاولت اقناعه بغير ذلك .
ــ يبدو ان هذا مضيعة للوقت ، ان كان هذا اعتقاده . الى أين تذهب الآن ؟
ــ ساعود الى موقعى .
ــ كنت أود ان اعود معك اذا قبلت . ولكننى اعرف انك لن تقبل .
ثم اضافت بعد برهة : هل يجب أن اخبره عن الطفل ؟ ..
ــ الأفضل ان تخبريه قبل أن يكتشف هذا .
فقالت باكتئاب : لو وجد هذا الطفل فعلا ، فسوف يحزننى أن يكون هو أبوه .
ــ لا لزوم لهذا التفكير القاتم . يجب الا تفكرى ان زواجك فشل نهائيا .
ــ أواه ... هذه هى الحقيقة المرة !

الفصل الثالث

(١)

اقيم احتفال كبير ابتهاجا برفع سقف المستشفى وزعت فيه الحلوى على المجذومين الذين عملوا فى اقامة المستشفى هم وعائلاتهم.

ولم يخل قرار الأب توماس برفع السقف من معارضة . فقد رغب الأب جوزيف الانتظار شهرا على أمل ان يعود رئيس الرهبان ، وقد ايده الأب بول اول الأمر ، ولكن عندما اتفق الدكتوركولين فى الراى مع الأب توماس، سحب الاثنان معارضتهما ، وقد قال الدكتور كولين فى هذا الصدد :

ــ لندع الأب توماس يقيم الاحتفال وصلوات التدشين . اننى اريد المستشفى .

وقد انتحى الدكتور كولين وكيرى جانبا ، وقال الطبيب :

ــ رغم ذلك فاننى كنت أود لو كان رئيس الرهبان معنا فى هذه المناسبة . لو كان ذلك لاستمتع بهذا الانتصار ولكانت خطبته افعل فى القلوب .

وعند حلول الظلام بدات نذر العاصفة ، فأخذ الهواء يهب عابثا بأشجار النخيل . وقد نهض كيرى من القاعة لاغلاق الباب المفتوح ، ولكن بدا له ان يخرج فأغلق الباب خلفه . كانت السماء تومض من ناحية الشمال . وكانت أصوات الطبول التي يدقها المجذومون تختلط بقصف الرعد . ولمح كيرى فى وميض البرق شخصا يتحرك فى الشرفة ، عرف فيه ديوجراتياس . فقال له :

ــ لماذا لا تشترك فى الحفلة ياديوجراتياس ؟

ثم تذكر ان الحفل خصص لغير المشوهين من البنائين والنجارين ومن اليهم ، فاستدرك قائلا :

ــ أنهم قاموا بعملهم خير قيام .

ولما لم يجب الشاب قال له كيرى :

ـ لا اظنك تنوي الهروب مرة ثانية ؟
واشعل سيجارة ودسها بين شفتيه ، فقال ديوجراتياس . لا
وشعر كيرى فى الظلام بوكزة من جانب الشاب ، فقال له :
ـ ما الذى يضايقك يادبوجراتياس ؟
فاجاب : سوف تذهب عنا ، بعد ان تم بناء المستشفى .
ـ آه ، لا . لن اذهب . هنا انوى ان اختم ايامى . لا يمكن ان اعود الى المكان الذى جئت منه يادبوجراتياس . انا لا انتمى الى هناك بعد الآن .
ـ هل قتلت احدا ؟
ـ انني قتلت كل شيء .
واشتد قصف الرعد ، واعقبه المطر ، الذى نزل رذاذا أول الأمر ، ثم استحال الى وابل منهمر ، حتى انقطع صوت الطبول كأنها لهب اطفأه الماء .
واقترب ديوجراتياس من كيرى قائلا :
ـ اريد ان أذهب معك .
ـ قلت لك انني باق هنا . لماذا لا تصدقنى ؟ سأبقى الى نهاية حياتى . وسوف أدفن هنا .
ولعل صوته لم ينفذ الى سمع ديوجراتياس من خلال المطر، اذ ردد قوله : سأذهب معك .
وفى خلال ذلك سمع رنين تليفون ـ ان صوتا آدميا هزيلا كان يلح من خلال التليفون كصرخة طفل خلال المطر .

(٢)

بعد ان خرج كيرى من القاعة قال الأب توماس :
ـ اننا لم نوف الرجل حقه ، وفى رأيى انه يجدر بنا أن نعرب له عن امتنان الارسالية ، رسميا ، عندما يعود .
فقال الدكتور كولين : لن تفعل اكثر من أن تثير ارتباكه . كل ما يريده من اى واحد بيننا هو أن نتركه وشأنه .
واشتد انهمار المطر حتي كان يدق السقف ، فأخذ الأخ فيليب يوقد الشموع فوق المنضدة احتمالا لانقطاع التيار الكهربائى .
قال الأب توماس : كان يوما سعيدا يوم أن جاء الينا . من كان يتصور أن يحدث هذا ؟ كيرى العظيم !
فرد الدكتور كولين قائلا : وهو يوم اسعد بالنسبة اليه . فان شفاء العقل أصعب من شفاء البدن ، ومع ذلك اظن ان الشفاء

يوشك أن يكون تاما .
وفى هذه اللحظة بدأ التليفون يرن . فقال الدكتور كولين :
ــ هو المستشفى على الأرجح . اننى اتوقع حالة وفاة الليلة .
ونهض الى مكان التليفون ورفع السماعة قائلا :
ــ من المتكلم ؟ الأخت كلير ؟
والتفت الى الأب توماس قائلا : هذه واحدة من الأخوات ، فخذ المكالمة . لا يمكنني أن اسمع ما تقول .
وتخلى عن السماعة للأب توماس وعاد الى مكانه قائلا :
ــ أن صوتها يبدو فيه الاهتيــــاج .
وقال الأب توماس : من المتكلم ؟ الأخت هيلين ؟ لايمكنني أن أسمعك . ان العاصفة شديدة . قولى هذا مرة ثانية . انا لا أفهم .
وعندما عقب الأب جوزيف بحديث جانبي التفت اليه الأب توماس وقال حانقا :
ــ اسكت يا ابى . لايمكنني ان اسمع وانت تتكلم . ليس هذا دعابة . يظهر ان شيئا شنيعا قد حدث ...
فقال الطبيب : هل هناك مريض ؟
فقال الأب توماس فى التليفون : قولى للأم اجنيس اننى ساحضر حالا . والأفضل ان ابحث عنه واصحبه معى .
ووضع السماعة ووقف منحنيا فوق التليفون . فقال الطبيب :
ــ ماذا جرى يا ابى ؟ هل يمكن أن اساعد ؟
ــ هل يعرف أحد أين ذهب كيرى ؟
ــ انه خرج منذ دقائق .
ــ كم اتمنى لو كان رئيس الرهبان هنا !
تطلع الجميع الى الأب توماس فى دهشـــــة ، اذ بدا لهم فى حالة كرب بالغ . وقال الأب بول :
ــ الأفضل أن تقول لنا ماذا هناك .
فقال الأب توماس : اننى وثقت أكثر من اللازم بالظواهر .
ــ هل فعل كيرى شيئا ؟
ــ حرام أن ندين رجلا قبل أن نسمع كل الحقائق ...
وفتح الباب ودخل كيرى . وتدفق رشاش المطر فى أعقابه حتى كان عليه أن يجاهد لاغلاق الباب ، وقال :
ــ ان مقياس المطر فى الخارج وصل نصف سنتيمتر حتى الآن .
لم يتكلم أحد . وتقدم الأب قليلا نحوه ، قائلا :

ــ هل صحيح يامسيو كيرى انك عندما ذهبت الى (لوك) ، ذهبت مع مدام ريكيه ؟

ــ اركبتها معى . نعم .

ــ مستخدما سيارتنا ؟

ــ طبعا .

ــ بينما كان زوجها مريضا ؟

ــ نعم .

فقال الأب جوزيف : عن اى شىء هذا كله ؟

فرد الأب توماس : سل مسيو كيرى .

ــ يسألنى عن ماذا ؟

جذب الأب توماس حذاءه الطويل المطاط والمظلة من مكانهما فقال كيري وهو يقلب نظره بين الأب جوزيف والأب بول الذى أومأ بانه لا يفهم شيئا :

ــ ما الذى تظنون اننى فعلته ؟

فقال الدكتور كولين : يحسن أن تقول لنا ما الذى يجرى يا اب توماس .

ــ لابد ان اطلب منك ان تاتي معي يامسيو كيرى . اننا سنناقش فيما يجب عمله بعد ذلك مع الأخوات . كنت ارجو بكل جوارحى ان يكون هناك خطأ . بل اننى أتمنى لو انك حاولت ان تكذب . اذن لـكان هذا اقل وقاحة . اننى لا اريد ان يجدك ريكيه هنا اذا وصل .

فقال الأب جان : وماذا يريد ريكيه من هنا ؟

ــ انه قد يطالب بزوجته . هى الآن مع الأخوات . لقد وصلت منذ نصف ساعة . بعد سفر ثلاثة ايام وحدها فى الطريق . وهى تنتظر طفلا . هو طفلك .

ومرة اخرى دق جرس التليفون .

قال كيرى : كلام فارغ ! لايمكن ان تقول شيئا كهذا لأحد .

ــ مسكينة . أظن ان اعصابها لم تطاوعها لـكى تقول لك هـذا وجها لوجه . وقد جاءت من (لوك) للبحث عنك .

ودق التليفون من جديد . فنهض الأب جوزيف للرد . واستطرد الأب توماس يقول :

ــ الم نستقبلك هنا بالترحاب والحفاوة ؟ اننا لم نسألك سؤالا واحدا . اننا لم نتدسس الى ماضيك . وفى مقابل هذا تقدم الينا ــ

الفضيحة . الم يكفك نساء أوربا ؟ هل كان لابد أن تجعل من مجتمعنا الصغير هذا قاعدة لعملياتك ؟

وفجاة غلبه طبعه المضطرب ، فاخذ يبكي . وفي خلال ذلك كان الاب جوزيف ينادي في التليفون : آلو . آلو . الا يمكن بحق كل القديسين ان ترفع صوتك ، يا من تتكلم ؟

قال كيري : سأذهب واراها معك في الحال .

فقال الأب توماس : هذا حقك ، وان كانت ليست في حالة تسمح لها بالمناقشة . فانها لم تجد ما تأكله طيلة ثلاثة ايام سوى بعض الشكولاتة . بل لم يكن معها خادم عندما وصلت . لو كان رئيس الرهبان فقط ..! مدام ريكيه من دون الناس جميعا !.. كانت دائما مثال الطيبة مع الارسالية كلها . بالله يا اب جوزيف ، ماذا الآن ايضا ؟

فقال الأب جوزيف متنفسا الصعداء : المستشفى فقط . التليفون يادكتور كولين .

فقال الدكتور كولين وهو يتناول السماعة : هي حالة الوفاة التي كنت أتوقعها . أخيرا وجدنا في هذه الليلة الغريبة شيئا يسير في مجراه الطبيعي !

(٣)

عندما وصل كيري مع الأب توماس الى بيت الراهبات الأبيض القريب كانت احدى الأخوات في الانتظار وهي تحمل شمعة نظرا لانطفاء الأنوار الكهربائية فجاة بسبب العاصفة . وقد راحت الأخت تتطلع الى كيري وكأنه الشيطان تجسد فجاة امامها بنظرة تجلى فيها الخوف والنفور والفضول ، وقالت : ان الأم اجنيس جالسة مع مدام ريكيه .

وقادتهما الى حجرة بيضاء الطلاء حيث تمددت ماري ريكيه فوق سرير أبيض في ضوء سراج ليلي . وكانت الأم جالسة قرب الفراش تلمس بيدها خد ماري ريكيه . وبدا مشهدها لكيري كفتاة عادت الى بيتها في سلام بعد طول اغتراب . فقال الأب توماس همسا :

ــ كيف حالها ؟

فاجابت الأم اجنيس : لم تصب بسوء ، اعني بدنيا .

واستدارت ماري ريكيه في الفراش وتطلعت اليهما بلمعان عيني طفل أعد كذبة محبوكة . ثم ابتسمت لكيري وقالت :

ــ انا آسفة . كان لابد ان اعود . كنت في فزع .

وجلبت الأم اجنيس يدها واخـــذت تراقب كيرى بدقة وكأنما كانت تخشى عملا عنيفا يصيب من ترعاها . فقال كيرى برقة :
ــ لا لزوم للفزع . أن هذا بسبب رحلتك الطويلة . والآن بعد أن صرت فى أمان بين أصدقاء فسوف تشرحين الموقف .
فقالت همسا : آه ، نعم . كل شيء .
ــ انهم لم يفهموا ما قلت لهم . عن زيارتنـــا لبـــلدة (لوك) سويا . وعن الطفل . هل سيكون هناك طفل ؟
ــ نعم .
ــ فقط قولى لهم طفل من هو ؟
فقالت : قلت لهم . هو طفلك . وطفلى أيضا بالطبع .
فقال الأب توماس : هل رأيت ؟
ــ لماذا تقولين لهم هذا ؟ انت تعرفين انه غير حقيقى . اننا لم تــكن فى صحبة بعضنا الا فى (لوك) .
فقالت : فى تلك المرة الأولى ، عندما جاء بك زوجى الى المنزل.
كان ايــر له لو شـــعر بالغضب ، لــكن لم يخامره شيء من هذا . ان الكذب ظاهرة طبيعية فى سن معينة ، مثل اللعب بالنار.
قال لها : انت تعرفين ان كل ما تقولينه كلام فارغ . انا واثق انك لا تريدين ان تسببى لى اى ضرر .
فقالت : آه ، لا . ابدا . انا احبك ياحبيبى . كلى لك .
بدا النفور فى وجه الأم اجنيس ، بينما قالت مدام ريكيه :
ــ ولهذا جئت اليك الآن .
فقالت الأم اجنيس : لابد ان تستريح الآن . كل هـــذا يمكن مناقشته فى الصباح .
ــ لابد أن تتركونى اتــكلم معها على انفراد .
فقالت الأم اجنيس : لا قطعا . ليس هـــذا من الصواب . لن تسمح له بذلك يا اب توماس .
ــ ياســـيدتى الفاضلة ، هل تظنين اننى سأضربها ؟ بالامكان ان تسرعوا لنجدتها عند أول صرخة منها .
فقال الأب توماس : من الصـــعب ان نرفض اذا رغبت مدام ريكيه فى هذا .
فقالت : بالطبع ارغب . اننى ماجئت الى هنا الا لذلك .
ووضعت يدها على كم كيرى وهى تبتسم ابتســـامة المــكتئب المخذول حتى كانت أشبه بلوحة برنارد عن مرغريت جوتييه وهى

على فراش الموت .
وما كادا يصيران وحدهما حتى تنهدت سعادة وقالت :
ــ هذا هو المطلوب .
ــ لماذا قلت لهم هذه الأكاذيب ؟
فأجابت : ليست كلها أكاذيب . انني احبك فعلا .
ــ منذ متى ؟
ــ منذ ان امضيت ليلة معك .
ــ انت تعرفين تماما ان هذا لم يكن شيئا بتاتا . اننا شربنا بعض الويسكى . وقلت لك حكاية لمساعدتك على النوم .
ــ نعم . يحكى ذات مرة فى سالف العصر والأوان . كان ذلك عندما وقعت فى حبك . لا . لم يكن هذا . اخشى اننى اكذب من جديد .
ثم اضافت تقول بانكسار غير مقنع : كان ذلك عندما جئت الى بيتنا لأول مرة .
ــ الليلة التى قلت لهم اننا كنا فيها معا ؟
ــ كانت هذه كذبة ايضا . كانت الليلة التى كنا فيها معا حقيقة هى الليلة التى اقام فيها الحاكم حفلته المعروفة .
ــ ما هذا الذى تقولين الآن بالله ؟
ــ اننى لم اكن أريد زوجى عندئذ . كان لابد ان اغمض عينى وافكر فيك . ومن هنا لابد ان الطفل نجم . وهكذا ترى أن ما قلته لهم ليس اكذوبة .
ــ ليس أكذوبة ؟
ــ نصف اكذوبة فقط . لو لم افكر فيك لماكان للطفل ان ينجم . فهو بدرجة طفلك .
راح يتفرس فيها فى عجب . كانت بحاجة الى عالم لاهوت لكى يفهم المنطق الملتوى فى حججها ، ولكى يغربل ما فى عقيدتها من خير وشر معا ، ومنذ عهد قريب فقط كان يحسبها طفلة ساذجة غريرة لا خطر منها عليه . ولم تلبث أن ابتسمت فى وجهه ابتسامة اخاذة وكانما تحاول اغراءه بأن يحكى لها حكاية أخرى تؤجل موعد النوم . واخيرا قال لها :
ــ يحسن أن تخبرينى بالضبط ما الذى حدث عندما قابلت زوجك فى (لوك) ؟
فقالت : كان شيئا مروعا . مروعا حقا . ظننت لحظة انه

سيقتلني . ولم يصدق ما قلته من المفكرة . وقد استمر يبدىء ويعيد طول الليل حتى تعبت وقلت له : « حسنا . ليكن ما تظن . انني كنت معه . هنا وهناك وفى كل مكان » . وعندئذ ضربني . وكان يمكن أن يضربني مرة ومرة لو لم يتدخل مسيو باركنسون .

ـ هل كان باركنسون هناك أيضا ، اذن ؟

ـ انه سمعنى ابكى وخف الينا .

ـ لأخذ بعض الصور الفوتوغرافية كما اظن .

ـ لا اظن انه اخذ اية صور .

ـ وماذا حدث بعد ذلك ؟

ـ انه بالطبع عرف كل شيء عموما . وكان يريد أن نعود الى البيت فى الحال ، لكنني رفضت ، وكان لابد أن ابقى فى (لوك) حتى أعرف النتيجة . فقال لى : « تعرفين ؟ ! » . وبعد ذلك قلت له كل شيء . وفى الصباح ذهبت الى الطبيب ، وبعد ان عرفت اسوا ما هناك تركت البلدة دون ان أعود الى الفندق .

ـ وريكيه يظن ان الطفل هو طفلى ؟

ـ حاولت بكل جهدى اقناعه بأنه طفله ـ لأنه بالطبع طفله بدرجة ما .

وتمددت وتمطت فى الفراش وهى تتنهد وادعة وقالت :

ـ يا الهى ! كم أنا مسرورة بوجودى هنا . كان من المفزع حقا ان أقود السيارة طول الطريق وحدى . انني لم ابحث عن اى طعام او فراش ونمت فى السيارة .

ـ فى سيارته ؟

ـ نعم . لكنني اعتقد ان مسيو باركنسون سوف يقله فى سيارته للعودة .

ـ هل هناك فائدة اذا طلبت منك ان تقولى الحقيقة الأب توماس؟

ـ حسنا .الحقيقة انني قطعت خط الرجعة فى نفسى واحرقت قواربى . الا ترى هذا ؟

فقال كيرى : بل انك احرقت المأوى الوحيد امامى .

فقالت تفسر له بلهجة الاعتذار : كان لابد لى من الهروب .

لأول مرة ووجه بأنانية مطبقة كأنانيته . ان مارى الأخرى قد نالت ثأرها العادل . اما التى كتبت تقول له « كلى لك » فقد جاء دورها الآن فى الضحك .

قال لها : ماذا تنتظرين منى ان افعل ؟ احبك ردا على هذا ؟

ـ كم يكون لطيفا لو فعلت ، لكن اذا لم تستطع ، فلابد لهم من اعادتي الى بلادى . اليس كذلك ؟

ذهب كيرى الى الباب وفتحه . كانت الأم اجنيس متربصة فى نهاية الممشى ، فقال : لقد فعلت كل ما امكنني .

ـ اظن انك حاولت اقناع الفتاة المسكينة بان تحميك .

ـ آه ، انها اعترفت لى بكذبها طبعا ، لكن لم يكن معى شريط تسجيل . من سوء الحظ انكم لاتقرون وضع ميكروفونات مخبأة .

ـ هل لى ان أطلب منك يامسيو كيرى من الآن فصاعدا ان تبتعد عن بيتنا ؟

ـ لا حاجة الى طلب هذا منى . احذروا انتم اصبع الديناميت الصغير الموجود فى الداخل .

ـ انها فتاة صغيرة مسكينة بريئة ...

ـ آه ، بريئة . اظنك على حق . وقانا الله مثل هذه البراءة . ان المذنبين يعرفون على الأقل ما هم بسبيله .

كان العطل الكهربائى لم يصلح بعد ، وقد راح يتلمس الطريق بقدميه حتى وصل الى مبانى الارسالية . وكان المطر قد تحول الى الجنوب ، ولكن البرق كان يومض بين وقت وآخر فوق الغابة ، والنهر . وكان عليه قبل الوصول الى الارسالية أن يمر ببيت الطبيب . فرأى مصباحا زيتيا موقدآ خلف النافذة والطبيب واقفا بجانبه يرسل نظره الى الخارج . فطرق كيرى الباب ، فقال الطبيب :

ـ ماذا تم ؟

ـ انها اصرت على اكاذيبها . انها وسيلتها الوحيدة للهروب .

ـ الهروب .. ؟

ـ من ريكيه ومن هنا .

ـ أن الأب توماس يتكلم الآن مع زملائه . ولما لم يكن ذلك يعنينى فقد عدت الى بيتى .

ـ انهم يريدون أن اذهب عنهم ، فيما اظن ؟

ـ كم أتمنى لو كان رئيس الرهبان هنا . ان الأب توماس ليس بالضبط الرجل المتوازن .

جلس كيرى الى المنضدة وقال :

ـ كنت اظن انى جئت الى مكان بعيد بما فيه الكفاية ، عندما وصلت الى هنا .

ـ قد تخمد المسألة . دعهم يتكلموا . انت وأنا عندنا ما هو أهم

لـكي نعمله . الآن وقد تم المستشفى يمكننا البدء فى عمل الوحدات المتنقلة والمراحيض التى تـكلمت معك عنها .

ــ اننا لا نتعامل مع مرضـاك يادكتور ، فهؤلاء اناس طبيعيون اصحاء النفوس تعرف نواياهم الطيبة وتفاعلاتهم سلفا . ويبـدو اننى لن اقترب من الوصـول الى (بنكاوى) اكثر مما اقترب ديوجراتياس .

ــ ان الاب توماس لا سلطان له على . يمكنك البقـاء فى بيتى منذ الآن اذا لم تمانع فى النوم فى غرفة العمل . .

ــ آه ، لا . لايمكنك أن تجازف بالشجار معهم . ان وجودك هام جدا فى هذا المـكان . لابد لى أن اذهب عنهم .

ــ والى اين تذهب ؟ . .

ــ لا اعرف . من الغريب اننى كنت فى قلق شديد عندما جئت الى هنا ، لاننى ظننت اننى اصبحت بمنجاة من الاحساس بالألم . لـكنك كنت على حق ، اذ اتذكر انك قلت لى : ماعليك الا أن تنتظر.

ــ انا آسف .

ــ اما انا فلا آسف على شىء . قلت لى مرة أنه عندما يتعذب الانسان ، فهذا بداية الاحساس بأنه جزء من الـكيان البشرى . هل تتذكر ؟ لقد كتبت عبارة مثل هذه فى مفكرتى قلت فيهـا : « اننى اتعذب ، واذن فانا موجود » . لست اذكر بالضبط ماذا كتبت ولا اين كتبته ، ولم تـكن الـكلمة « اتعذب » .

فقال الطبيب : عندما يشفى الانسان ، فاننا لا نعرضه للضياع.

ــ يشفى ؟ . .

ــ أن (حالتك) لم تعد تحتاج الى مزيد من اختبارات الجلد .

(٤)

قال الاب جوزيف ساهما :

ــ يجب الا ننسى انه ليس هناك من دليل سوى كلامها فى مقابل كلامه .

فقال الأب توماس : وما الذى يجعلها تخترع قصة مروعة مثل هذه ؟ على اى حال فان حكاية الطفل حقيقية بما فيه الكفاية .

فقال الأب بول : ان كيرى كان ذا نفع كبير لنا هنا . ولنا الحق فى ان نشعر نحوه بالامتنان .

ــ امتنان ؟ أيمكن يا أبى أن تفكر هكذا حقا ، بعد أن جعلنـا اضحوكة ؟ « ناسك الـكونغو » ــ « قديس له ماض » . كل تلك

القصص التى نشرتها الصحف . ما الذى سوف تنشره الآن ؟

فقال الأب جان : انك كنت أكثر سرورا بهذه القصص منه .

ـ بالطبع كنت مسرورا . كنت أؤمن به . كنت اظن ان دوافعه فى المجيء الى هنا طيبة . بل اننى دافعت عنه لدى رئيس الرهبان عندما حذرنى... لكننى لم أدرك وقتها ماذاكانت دوافعه الحقيقية.

فقال الأب جان بصوته الجاف القاطع :

ـ ان كنت تعرف هذه الدوافع فقلها لنا .

ـ لايمكن ان اظن الا انه كان هاربا من مشكلة نسائية فى أوربا .

ـ (مشكلة نسائية) ليست وصفا دقيقـــا تماما ، ثم أليس المظنون اننا كلنا هاربون من هذه المشكلة ؟ ..

وقال الأب جوزيف باصرار :

ـ ان كيرى بناء مقتدر جدا .

ـ ماذا تقترحون اذن : ان يبقى هنا فى الارسالية ، يعيش فى الخطيئة مع مدام ريكيه ؟ ..

فقال الأب جان : لا بالطبع . ان مدام ريكيه لابد أن ترحل غدا. ومما قلته أنت لنا فليست لديه رغبة فى الذهاب معها .

فقال الأب توماس : ان المسألة لن تنتهى عند هـــذا الحد . ان ريكيه سوف يطلب الانفصـــال . بل انه قد يقاضى كيرى طالبـــا الطلاق ، وسوف تنشر الصحف القصة تفصيلا . ان الصحف مهتمة أصلا بشخصية كيرى. هل تظنون ان الحاكم سوف يسر عندما يقرأ على مائدة الافطار الفضيحة المتعلقة بمستعمرة الجذام عندنا ؟

فقال الأب جوزيف : ان سقف المستشفى قد أقيم بسلام ، لـكن لا تزال هناك أعمال كثيرة لابد أن تتم .

فقال الأب بول : ليس هناك ضرر محتمل من مجرد الانتظار . قد تـكون الفتاة كاذبة . وقد لا يتخذ ريكيه أى اجراء . وقـــد لا تنشر الصحف شيئا . بل قد لا تصل القصة الى ســمع الحاكم

ـ أو نظره .

ـ هل تظنون ان الأسقف لن يسمع بها ؟ انها قد تكون منتشرة ، فى كل انحاء (لوك) فى الوقت الحالى . وفى غياب رئيس الرهبان فاننى مسئول ...

وهنا تـكلم الأخ فيليب لأول مرة ، فقال :

ـ هناك رجل فى الخارج . الا يحسن أن أفتح الباب ؟

كان القادم هو باركنســون . جاء غارقا بماء المطر ومنعقد اللسان.

جاء يمشي بكل سرعة . وكان يدير يده فوق قلبـــه وكأنما يحاول تلطيف ضرباته . فقال الأب توماس :
ـ اعطوه مقعدا .
فقال باركنسون : اين كيرى ؟
ـ لا اعرف . ربما في غرفته .
ـ ان ريكيه يبحث عنه . لقد ذهب الى بيت الاخوات ، ولـكن كيرى كان قد انصرف .
ـ وكيف عرفت أين تبحث عنه ؟
ـ انها تركت رســالة لريكيه في بيتها ، وكان يمكن ان نلحق بها ، لولا عطل بسيارتنا .
ـ واين ريكيه الآن ؟
ـ الله يعلم . ان الظلام شديد في الخارج .
ـ وهل رأى زوجته ؟
ـ لا . ان راهبة عجوزا دفعتنا نحن الاثنين الى الخارج واغلقت الباب . واقول لـكم ان هذا ضاعف من جنونه . اننا لم ننم ست ساعات منذ خروجنا من (لوك) ، وكان ذلك منذ ثلاثة أيام .
وراح يتمايل في مقعده أماما وخلفا ، شاكيا من ضعف قلبـــه . وكان الأب توماس يجد صعوبة بانجليزيته المحدودة في فهم مرامي فكر باركنسون ، وراح الباقون يتابعون الموقف عن كثب دون أن يفهموا سوى القليل . وبدا لهم ان الموقف قد خرج عن كل سيطرة بصورة مؤسفة .
ثم انبعث في الخارج صوت يصيح بصورة غير مفهومة .
فقال باركنسون : انه هو . يهدد في كل مكان . انه مهتـــاج كمجنون . لقد قلت له ان المتدينين أمثاله يصتـفحون ، لـكن لا فائدة الآن من الـكلام معه .
وزاد الصوت اقترابا . وسمعوه يصيح :
ـ كيرى . كيرى . انت انت يا كيرى .
فقال باركنسون : أظن انه (يريد) أن يأخذ بأسوأ الظنون . وربما يريد أن يصيح ندا لـكيرى ، عندما يتقاتلان من أجل فتـــاة واحدة . انه لا يطيق أن يبدو غير ذي أهمية .
وفتح الباب مرة ثانية ، ووقف ريكيه في المدخل غارقا في المطر مشعث الشعر . وراح يقلب نظره بين الآباء واحدا واحدا وكأنما يتوقع ان يجد كيرى بينهم ، ربما متنكرا كراهب !

قال الأب توماس : مسيو ريكيه .
ــ اين كيري ؟
ــ أرجوك ان تدخل وتجلس لنتكلم معا ...
فقال ريكيه : كيف يمكن ان اجلس ؟ انا رجل مكروب .
ثم جلس مع ذلك فوق مقعد كان متداعيا ، ومضى يقول :
ــ انني أعاني من صدمة فظيعة يا أبي . انني فتحت قلبي لذلك الرجل ، واطلعته على مكنون أفكاري ، فكان هذا جزائي .
ــ دعنا نتكلم بهدوء وتعقل ...
فجعل ريكيه يقول : انه ضحك مني واحتقرني . اى حق له في ان يحتقرني ؟ كلنا سواسية في نظر الله . حتى مدير مزرعة مسكين وكيري العظيم . كيف يحطم زواجا باركته الكنيسة ؟
كانت تفوح منه رائحة ويسكي قوية ، وقد تابع كلامه قائلا :
ــ انني سأعتزل العمل بعد سنين معدودة . فهل يظن انني سأنفق من معاشي على مولود غير شرعي ؟ ..
ــ انك لبثت في الطريق ثلاثة ايام يا ريكيه ، وانت في حاجة الى نوم ليلة . وبعدها ...
ــ انها كانت تهجر فراشي . وكانت دائما تنتحل شتى الأعذار، ولكن عندما يصل الى هنا لأول مرة ، ولكونه رجلا مشهورا ...
فقال الأب توماس : اننا جميعا نريد تجنب الفضيحة .
فقال ريكيه بحدة : اين الطبيب ؟ انهما كانا متواطئين كاللصوص :
ــ الطبيب في بيته . وليس له أي ضلع في هذا .
اندفع ريكيه الى الباب . ووقف مكانه لحظة وكأنه على خشبة المسرح ونسي الكلمات التي يخرج بها ، ثم قال أخيرا :
ــ لا توجد هيئة محلفين يمكن ان تدينني .
وخرج على الأثر الى الظلام والمطر . ومضت لحظة لم يتكلم فيها احد ، الى ان قال الأب جوزيف :
ــ ما الذي يقصده بهذا الكلام ؟ ..
وقال الأخ فيليب : معذرة ...
فقال الأب توماس : الى أين تذهب يا أخ فيليب ؟ ..
ــ انه قال كلاما عن هيئة محلفين يا أبي ، وقد خطر لي انه ربما كان يحمل مسدسا . اظن انه يحسن ان احذر ...
فقال الأب توماس : هذا كثير جدا .
والتفت الى باركنسون وسأله بالانجليزية :

ـ هل معه مسدس ؟ ..

ـ لا اعرف قطعا . ان الكثيرين يحملون المسدسات هذه الايام . لكن لا اظن ان اعصابه ستطاوعه لاستخدامه ... قلت لكم انه يريد فقط ان يبدو ذا أهمية .

فقال الأخ فيليب : اظن ، اذا سمحت لى يا ابى ، انه يحسن أن اذهب الى بيت الدكتور كولين

فقال الأب بول : احترس يا اخ ..

فرد الأخ فيليب قائلا : آه ، اننى اعرف الكثير عن الأسلحة النــــارية .

(٥)

قال الدكتور كولين : هل هذا صوت أحد يصيح ؟ ..

ـ لم اسمع شيئا .

قال كيرى هــذا وهو يتقدم الى النافذة وينظر فى الظلام . ثم اضــاف :

ـ ليت الأخ فيليب يصلح العطل الكهربائى . حان الوقت لكى اعود الى غرفتى ، وليس معى (بطارية) .

ـ انهم لن يعيدوا التيار الآن على كل حال ، فقد بلغت الساعة العاشرة .

ـ انهم سيطلبون أن اذهب بأقرب ما يمكن ، اليس كذلك ؟ لكن من المحتمل ان السفينة لن تتمكن من الوصول الى هنا قبل اسبوع على الأقل . ربما أجد سيارة يقودها أحد لكى ارحل ...

ـ اشك فى ان يكون الطريق صالحا الآن بعد الأمطار ، وسوف يزيد هطولها .

ـ اذن فامامنا بضعة ايام للكلام فى موضــوع تلك الوحدات المتنقلة التى تحلم بها . لكننى لست مهندســا يا دكتور . ان الأخ فيليب يمكنه أن يساعدك فى هذه الناحية افضل منى .

فقال الدكتور كولين : ان حيــاتنا هنا تحتاج بطبيعتها الى البدائل . كل ما أريده هو نوع سابق الاعداد يتحرك على عجلات شيء يمكن تركيبه على (شاســيه) سيارة نقل صغيرة زنة نصف طن . أين وضعت تلك الورقة ؟ ان بها فكرة تصميم أريد ان أريك اياه ...

وفتح الطبيب درجا فى مكتبه . كان بداخله صورة فوتوغرافية لامراة . كانت الصورة ماثلة فى موضعها تنتظر ، محجوبة عن انظار

الغرباء ، بعيدة عن الغبار ، حاضرة على الدوام كلما فتح الدرج .
قال كيرى : ستوحشنى هـــذه الغرفة ــ حيثما اكون . انك لم تــكلمنى ابدا عن زوجتك يا دكتور . كيف كانت وفاتها .. ؟
ــ بمرض النوم ، كان من عادتها أن تمضى وقتا طويلا فى داخل الغابة فى ايامنا الأولى هنا لاقناع المجذومين بالمجىء عندنا للعلاج . ولم يكن عندنا حينئذ مثل العقاقير الفعالة الحالية لمرض النوم كما هو الآن . فـكان الناس يموتون بهذا الداء عاجلا .
ــ كان فى مأمولى أن تنتهى حياتى فى نفس هـــذه الأرض مثلك مثلها . اذن لـكنا ثالوثا فريدا .
ثم أردف كيرى بعد لحظة : هناك أحدهم ينادى فى الخارج. يخيل الى انه ينادى اسمى .
وفعلا سمع من ينادى قائلا :
ــ كيرى ... كيرى ...
فقال كيرى : هذا ريكيه . لابد انه تبع زوجته الى هنا . ادعو الله الا تــكون الأخوات قد سمحن له بالدخول لمقابلتها . يحسن ان اخرج واتـكلم ...
ــ دعه يهدأ أولا .
ــ لابد أن اجعله يتعقل .
ــ اذن فانتظر حتى الصباح . لا يمكن رؤية التعقل ليلا .
ــ كيرى ... كيرى ... اين انت يا كيرى ؟
فقال كيرى : ياله من موقف غريب بشع ! اذ يحدث هذا لى . هاتك العرض البرىء ! ليس هذا عنوانا رديئا لـكوميديا !
واختلج فمه بشبه ابتسامة ، واضاف قائلا :
ــ اعطنى مصباحك .
ــ من الأفضل كثيرا أن تظل بعيدا عن هذا الموقف يا كيرى .
ــ لابد أن افعل شيئا . انه يحدث ضوضاء كثيرة ... لن ينتج عنها الا زيادة ما يسميه الأب توماس بالفضيحة .
تبعه الدكتور كولين الى الخارج مكرها . كانت العاصـــفة قد عادت سيرتها الأولى من العنفوان . ونادى كيرى وهو يرفع المصباح ريكيه ... أنا هنـــــــا .
سمع صوت شخص يجرى الى ناحيتهما ، ولكن عندما وصل الى دائرة الضوء عرفا فيه الأخ فيليب ، الذى قال :
ــ أرجوك أن تعود الى داخل البيت وتغلق البـــاب . فى ظننا

ان ريكيه ربما كان يحمل مسدسا .
فقال كيرى : لايمكن أن يبلغ به الجنون الى حد استعماله .
ـ ومع ذلك ، وتجنبا لكل مكروه ...
ـ لاباس. ساعمل بنصيحتك ، واختبأ تحت سرير الدكتوركولين!
ورجع خطوات معدودة عندما سمع صوت ريكيه يقول :
ـ قف . قف مكانك .
وبرز من الظلام مترنحا ، وقال بلهجة تشوبها الشكوى :
ـ انني كنت أبحث عنك فى كل مكان .
ـ حسنا . هأنذا .
ونظر ثلاثتهم الى حيث كانت يد ريكيه اليمنى مخبأة فى جيبه . وقال :
ـ لابد لى من كلام معك يا ريكيه .
ـ تكلم اذن. وعندما تنتهى ، أود أن تكون لى كلمة معك ايضا.
خيم الصمت برهة . وسمع نباح كلب فى مستعمرة الجذام . وومض البرق فأضاءهم جميعا كمصباح وهاج .
قال كيرى : أنا منتظر يا ريكيه .
ـ انت ـ يا مرتد ، يا ملحد !
ـ هل جئت الى هنا لمناقشة دينية ؟ سأعترف بأنك أعرف منى فى هذا المجال .
وفى هذه اللحظة قصف الرعد شديدا حتى تلاشى فيه مطلع كلمات ريكيه ولم يسمع منه الا قوله :
ـ ... تقنعنى بأن ما كتبته فى المفكرة لا يعنى شيئا ، وكنت طول الوقت تعرف بوجود طفل فى الطريق ! ..
ـ هو طفلك . لا طفلى .
ـ اثبت هذا . خير لك أن تثبته .
ـ من الصعب اثبات ما هو سلبى يا ريكيه . وبالطبع يستطيع الدكتور أن يجرى تحليلا لدمى ، لكن لابد أن تنتظر ستة أشهر لكى ...
ـ كيف تجسر على الاستهزاء بى ؟
ـ انا لا استهزىء بك يا ريكيه . ان زوجتك اساءت الينا معا. وكان يمكن أن انعتها بالكذب لو خطر لى انها حتى تعرف ما هو الكذب . انها تظن ان الصدق هو اى شىء يحميها أو يؤدى الى عودتها الى دار الحضانة فى بلادها .

- انت تعاشرها ثم تشتمها . انت جبان ياكيرى .

- ربما كنت هذا .

[illegible]

[illegible] ياكيري . . .

- أنا لا أتعاون [illegible] هذا . أن تكون [illegible] الآن [illegible] ذلك . أنا لست [illegible] العظيم الا [illegible] نظري .

عندئذ قال الأخ فيليب [illegible] !

- أرجو أن تأتي الى الارسالية يا [illegible] ... [illegible] هناك . سوف تكون [illegible] أفضل حالا بعد نوم [illegible] ثم [illegible] في الصباح .

[illegible] دافق من المطر [illegible] كأنما [illegible] تأكيدا لكلامه . [illegible] صوت غريب تحلم [illegible] بأنه ضحكة ، [illegible] أطلق [illegible] النار مرتين [illegible] فسقط المصباح بسقوط كيرى [illegible] المطر ، [illegible] على فم مفتوح وعينين تجلت فيهما الدهشة . . . ثم انطفأ [illegible]

[illegible] الطبيب بقوة على ركبتيه في الوحل وفحص جسم كيرى [illegible] يقول : انه ضحك مني . كيف يجسر على أن يضحك ؟

قال الطبيب للأخ فيليب : [illegible] رأسه . أيمكنك أن تجد ساقيه ؟ [illegible] لنا من نقله الى الداخل .

هتف يقول [illegible] : الق هذا المسدس يا أحمق ، وساعدني !

انبعث صوت كيري يقول [illegible]

انحنى الطبيب [illegible] وهو لا يكاد يسمعه ، وقال له :

- لا تتكلم . اننا سنحملك الآن . وستكون بخير .

قال كيري : ضحكت من نفسي .

حملوه الى الشرفة ومددوه بعيدا عن المطر . وجاء [illegible] بوسادة [illegible] تحت رأسه ، وقال :

- ما كان يجب أن يضحك .

فقال الطبيب : انه لا يضحك بسهولة .

ومرة أخرى انبعثت حشرجة تشبه ضحكة ملتوية . وقال كيرى :
ـ مضحك . هذا مضحك ، والا فهو ...
لكن لم يقدر لهم قط أن يعرفوا اتجاه تفكيره الاخير ، فلسفيا كان او نفسانيا ...

(٦)

عاد رئيس الرهبان الى الارسالية بعد أيام قليلة من الجنازة ، وزار المقبرة مع الدكتور كولين .

لقد دفنوا كيرى غير بعيد عن قبر مدام كولين ، ولكنهم تركوا فراغا كافيا للطبيب عندما يدركه الاجل المحتوم .

ووضع احدهم ، ولعله ديوجراتياس ، اناء مربى قديما بجانب القبر مملوءا بأغصان ونباتات مشبكة بصورة غريبة ، فكانت أشبه بقربان للمعبود نزامبى منها باكليل جنائزى .

وعمل باركنسون على ارسال اكليل من (لوك) حمل هذه العبارة : (من ثلاثة ملايين من قراء مجلة بوست) . وقد التقط صورة فوتوغرافية لهذا الاكليل لكى تنفع فى المستقبل ، ولكنه أبى فى تواضع غير منتظر منه أن تؤخذ صورته بجانب الاكليل .

وقال رئيس الرهبان للدكتور كولين :

ـ لا يسعنى الا أن أحزن اذ لم أكن هنا . فربما كان بوسعى ان أسيطر على ريكيه .

فقال كولين : كان مقدرا أن يحدث شىء عاجلا أو آجلا . انهم لم يريدوا قط أن يتركوه وشانه .

ـ من تقصد بقولك (انهم) ؟

ـ الحمقى ، الحمقى المتطفلون . انهم موجودون فى كل مكان وزمان ، اليس كذلك ؟ انه نال الشفاء من كل شىء سوى النجاح . ولكنك لا تستطيع أن تشفى النجاح باكثر مما استطيع أن ارد الى المجذومين المشوهين أصابع ايديهم وارجلهم . اننى أعيدهم الى البلدة ، والناس ينظرون اليهم فى المتاجر ويراقبونهم فى الشوارع ويسترعون أنظار الآخرين اليهم وهم يمرون . ان النجاح مثل هذا أيضا ـ تشويه للرجل الطبيعى . هل تسير فى طريقى ؟

ـ الى اين تذهب ؟

ـ الى المستوصف . اننا بالتاكيد اضعنا وقتا كافيا بين الموتى .

ـ سامشى معك قليلا .

فسأله كولين : هل رأيت ريكيه قبل مغادرتك (لوك) ؟

ــ بالطبع . انهم هيأوا له الراحة الكافية فى السجن . انه ادى الاعتراف الديني وينوى حضور القداس كل صباح . وبالطبع تهيأت له بطولة كبيرة فى (لوك) . وقد بادر مسيو باركنسون فابرق الى جريدته بحديث معه ، وسوف يتوافد الصحفيون عليه من أكثر العواصم . واعتقد ان باركنسون صدر مقاله بعنوان كهذا : «مصرع ناسك». « قديس هوى » . وبالطبع سوف تكون نتيجة المحاكمة كالسوابق.

ــ الحكم بالبراءة ؟

ــ طبيعي . (الجريمة العاطفية) . كل واحد سوف ينال مراده

ــ انها نهاية سعيد حقا ، اليس كذلك ؟ فان ريكيه يشعر بانه اصبح ذا اهمية عند الله وعند الانسان . بل انه تحدث الى من امكانية رفع التماس ديني الى روما لابطال تأثيمه ، لكنني لم أشجعه . ومن قريب ستغدو مدام ريكيه حرة للعودة الى بلادها ، وسوف تحتفظ بالطفل . وقد وجد مسيو باركنسون انه وقع على احسن قصة كان يحلم بها . ولهذه المناسبة فأنا مسرور لأن كيرى لم يقرأ مقاله الثاني .

ــ لا نستطيع أن نقول ان النهاية كانت سعيدة بالنسبة لكيرى

ــ احقا ؟ انه كان يريد على الدوام ان يمضى الى ابعد من هنا .

ــ ولكنها خسارة كبرى لنا . فعلى الرغم من خيبة آماله فى الحب والعمل ، قد تعلم ان يخدم الناس ويكرس وقته لهم . وقد تعلم ان يضحك أيضا بعد طول تجهم وعبوس . وكانت ضحكة غريبة ، لكنها كانت ضحكة على اى حال . فأنا أفزع من النــاس الذين لا يضحكون . ومعنى هذا انه قد وجد سبيلا للتعلق بالحياة .

ووصلا الى المستوصف . كان المجذومون جالسين ينتظرون على سلالم الأسمنت الحارة . وفى المستشفى الجديد كانت العمليــات التكميلية دائرة على قدم وساق .

وقال رئيس الرهبان : ارى من مراجعة الحسابات انك توقفت عن استخدام اقراص الفيتامين . فهل هذا من قبيل الاقتصاد ؟

ــ لا اعتقد ان الأنيميا تأتى من استخدام عقار (دى.دى.اس) فى علاج الجذام . انها تأتى من دودة الانكليستوما . والأرخص هو بناء مراحيض ، وهــذا أفضـــل من شراء أقراص الفيتامين . انه مشروعنا التالي . اعنى انه كان مقدرا أن يــكون .

ثم التفت الى عامل المستوصف قائلا :

ــ كم عدد المرضى اليوم ؟

ـ حوالى ستين .
فجلس الطبيب الى المنضدة وجذب ورقة بيضاء قائلا :
ـ رقم واحد .
كان طفلا فى الثالثة . وراح الطبيب يجرى اصابعه فوق بشرة الظهر بينما كانت ام الطفل تنتظر .
وقال رئيس الرهبان :
ـ اننى أعرف هذا الصغير . كثيرا ما كان يأتى عنـــدى لطلب الحلوى .
فقال الدكتور كولين بلهجة اقرب الى الغضب :
ـ هو مصاب بالجذام بلا شك . تلمس البقع هنا وهناك ، لكن لا داعى للقلق . سوف نتمكن من شـــفائه فى سنة أو سنتين ، وبوسعى أن أعدك بأنه لن تحدث له (تشوهات) .

تمت

هذه الرواية

ولد جراهام جريف عام ١٩٠٤ وتلقى تعليمه فى مدرسة «بيركهامستد» التى كان والده ناظرا لها، وقد تخرج فى كلية «باليول» بجامعة اكسفورد وفيها نشر كتابا عن النشر، ثم عمل أربع سنوات مساعد محرر فى جريدة التيمس . وذاعت له شهرة دعمها بروايته الرابعة المعروفة باسم « قطار استنبول » ، والتى قيمها هو نفسه فى سلسلة مؤلفاته بأنها لون من « التسلية » ، تمييزا لها عن أعماله الاخرى الاكثر جدية . وفى عام ١٩٣٥ قام برحلة فى أرجاء ليبيريا ، سجل وصفها فى كتابه :« رحلة بلا خرائط » ، وما أن عاد منها حتى أختير ناقدا سينمائيا لمجلة « سبكتاتور » .

وفى عام ١٩٣٨ نشر له كتاب جديد هو« صخرة برايتون » ، وما أن حل عام ١٩٤٠ حتى أصبح المحرر الادبى لمجلة سبكتاتور . ثم اختارته وزارة الخارجية البريطانية فى العام التالى للقيام باحدى المهام ، فأوفدته الى سييرا ليونى لهذا الغرض ، واستغرقت مهمته أعوام ١٩٤١ – ١٩٤٣ . ومن احدى روائعه التى ألفها بعد الحرب العالمية الثانية والتى اتخذ افريقيا الوسطى مسرحا لها روايته « جوهر الموضوع » ، وهى معدودة لدى الكثيرين بأنها قمة مؤلفاته واكثر كتبه شموخا . ثم أعقب ذلك كتابان هما « نهاية القضية » و « الامريكى الهادىء » ، وهو كتاب روائى مسرحه فى فيتنام ، وتلاهما على الاثر« رجل لنا فى هافانا » و « قضية ضائعة » .

وقد بلغت حصيلة ماكتبه جراهام جريف نحو الثلاثين من الروايات والمسرحيات وكتب « التسلية » وكتب الاطفال وكتب الرحلات ، الى جانب مجموعات تشمل مقالات وقصصا قصيرة وفى عام ١٩٦٦ أنعم عليه بلقب « وصيف شرف » .

١٥ قرشا